كل أنثى يرقد بداخلها شيطان نائم،

لا تزعجها .. فتوقظه

مي خالد

جيمنازيوم

رواية

العربي للنشر والتوزيع

جيمنازيوم

رواية

60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة: - 27954529
27921943/ فاكس: 27947566
sherifbakr@yahoo.com

جمينازيوم

مي خالد

الطبعة الأولى 2015
رقم الإيداع 2014/21132
ISBN: 978-977-319-217-4

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر

بطاقة فهرسة

خالد، مي
جمينازيوم: رواية / مي خالد .- ط. - القاهرة العربى للنشر والتوزيع ، 2014
- ص؛ سم. تدمك 9789773192174
1- القصص العربية
أ-العنوان 813

إلى مها عافية

مدّي روحك، واقطفي بعضا من حروفي.

لكي أتباهى

بأن لي سطوراً

تُقرأ في السماء.

سهّير ليالي وياما لفيت وطفت

وف ليلة راجع ف الضلام قمت شفت

الخوف..كأنه كلب سد الطريق

وكنت عاوز أقتله..بس خفت!!

عجبي

الأماكن هنا حقيقية، والشخصيات خيال محض، وأي تشابه بينها وبين أناس تعرفهم، هو مقصود لإشباع فضول التلصص لدى القارئ.

سويسرا

"أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا؟"

فليجعله شخصية في رواية..

يظنون أنني أرتدي الآن "مايوه" أحمر كالذي ظهرت به "سعاد حسني" في فيلم "نادية"، وهي تمرح مع الشباب وتراقصهم على ضفاف بحيرة أسفل جبال الألب، ثم تقفز لتطفئ حماسة الإثارة في برودة المياه وهي تطلق ضحكتها الشهيرة.

أما الواقع فهو أنني أحاول فقط أن أسجل ليلتي الأولى في هذا القصر السويسري العتيق، والذي ينفصل عن أية مظاهر للحياة بمسافة أربعين دقيقة من الركض الهادئ.

لمن يسيئون الظن، أقول لهم ظنكم في محله، فشرفتي تتسع لمشهد بانورامي لدرجات الأخضر، ابتداء من الفستقي الفاتح، حتى الزيتوني الداكن، تتخلله مساحات من اللبني، والبترولي، واللازوردي، والأبيض، التي تغطي بحيرة جنيف وجبال الألب، وسماواتها ذات السحب الإسفنجية، المشربة بالوردي الفاتح، مثل ندف غزل البنات. يمر النسيم بحس رتيب مثل مكيف للهواء تتخلله صفارات غزل وزقزقة وصوصوة من كروان وبلابل وكناريا، لا تعلن عن اشكالها، وتهيمن على الفضاء الفسيح بثرثراتها المتصاعدة.

ولمن يطلقون سهام نظرات حاسدة، أقول لهم احترسوا، فقد ينقلب البصر خاسئا اليكم، فكاتبة هذه السطور حتى هذه اللحظة، غريبة، تسكن بمفردها في غرفة فسيحة بسريرين، تحكم سك مفتاحها الأثري ثلاث مرات، كي تستطيع أن تغوص في نوم آمن. تدلف إلى فراشها شبه مغلقة العينين، لأنها إن التفتت حيث تحب أن تريح جنبها، ستواجهها فترينه زجاجية بحجم الحائط العريض، يتوسطها اثنان وعشرون كلبا خزفيا بأحجام مختلفة، تصوب نحوها عيونها بوسعها. تشد الغطاء إلى رأسها دون ان تطفئ الأنوار وتندم كيف لم تخبر مديرة القصر، أنها منذ الصغر تعاني من فوبيا العرائس. عزاؤها الوحيد أنها الآن تستلقي على الفراش نفسه، الذي شهد نعاس وأرق الكاتب الروسي العالمي "فلاديمير نابوكوف".

الكاتبة الناشئة/ أنا، كانت قد تلقت تعليمات صارمة في رسالة إلكترونية، قبل قدومها الي المكان، بأن تلتزم الهدوء منذ ان تستيقظ وحتى موعد العشاء في السابعة مساء. حينئذ فقط يمكنها أن تتسامر مع رفاقها في السكن الملكي، حيث سيلتقون في غرفة المعيشة ويلتقطون المكسرات ورقائق الشيبسي مع زجاجة من النبيذ الأبيض. ويمكنها ايضا ان تناقش مسائل ثقافية او ترفيهية، حين ينتقلون إلى غرفة الطعام الزجاجية المطلة على الحديقة، وهم يتناولون عشاء رسميا حول زجاجة من النبيذ الأحمر.

لم تكن الحيرة فقط في كيف ستشرح لهم بطريقة تتقبلها عقولهم، انها لن تشاركهم طقس الشراب الاحتفالي، بل في كيف لا ترسخ لديهم الصورة الذهنية عن دول العالم الثالث، حين تخبرهم أنها لا تجيد تشغيل غسالة الأطباق، التي من المفترض أن يتناوبوا على تشغيلها، وتتساءل إن كانوا سيصدقونها حين تقسم لهم أن لديها واحدة مثلها في بيتها، لكنها تفضل أن تحك أطباقها بالليفة الإسفنجية ورغوة الصابون السائل الغنية.

الكاتبة المبتدئة "بداية مهران"(41 عاما)، والتي تعلق خرزة زرقاء في صدرها اتقاءً للعيون الحاسدة، قررت أن تبدأ من حيث انتهت الكاتبة الكبيرة "بداية الألفي"، جارتها في العمارة. فقد بدأت الكاتبة الكبيرة طقوس الكتابة من تحت منضدة السفرة، ثم انتقلت الى زاوية مخفية في آخر ركن بمنزلها، ثم خصصت لنفسها غرفة للكتابة بعد أن قرأت رواية فرجينيا وولف "غرفة تخص المرء وحده"، وأخيرا أطلقت جناحيها للتحليق فوق بيوت للثقافة، وقصور ترعى هواة ومحترفي الفنون.ثم اتخذت قرارا مصيريا بالتوقف عن الكتابة، والتقاعد في غرفة ببنسيون يطل على البحر المتوسط في محطة الرمل بالإسكندرية.

لم يكن قرار الكاتبة الكبيرة نابعا من حصولها على جائزة أدبية فخمة عن مجمل أعمالها، بل لأنها لاحظت أن روايتها الأخيرة كانت تصيب كل من يقرأها من معارفها بلعنة ما: موت أو مرض أو فقد، فاتخذت هذا الوهم ذريعة لتنفيذ قرارها بالاعتزال، الذي كانت تعلنه بعد الانتهاء من كل رواية، أما سر اللعنة هذا، فلا يعرفه أحد سواها هي والكاتبة المبتدئة/ أنا.

الكاتبة الكبيرة هي جارة العمرالتي كنت أطلق ساقي لسلالم الدور السادس، حين تهددني أمي بالضرب، وأرنّ جرسها في لهفة وأرتمي في شقتها وحضنها.

على مدار سنوات عشرين، كانت تقطعني مثل شريحة من البتلو الرقيقة، وتغطسني في البيض المخفوق، ثم تهدهدني على البقسماط. تغرس شوكتها الطويلة في جسدي وهي تقلبني وتزحزحني بين فقاقيع الزيت المغلي. وحين يصير لوني ذهبيا ومذاقي يطيب للحضور، تقدمني على طبق من الكرتون المُقوّى، وبكلمات مطبوعة على ورق فاخر، ليلتهمني قراؤها ساخنة، ويتلذذون بمضغ ومناقشة "الشخصية الثانوية". المدهش أنني كنت أشعر، أيضا، بالغبطة وأنا أرى المتعة في عيونهم وهم يستحسنون ويتعاطفون مع خيباتي، ثم يصفقون للكاتبة الكبيرة على براعة تناولها ووصفها لتلك المسكينة التي طحنتها دنياها.

لم يتوقف زهوي بنفسي عند هذا الحد، بل كنت أقف في أركان خفية لأمارس هواية التصوير، وأقتنص الكاتبة الكبيرة في اوضاع فنية، تليق بصور تتصدر المقالات النقدية التي ستمتدح أعمالها، ثم تضعها هي كصورة للبروفايل على الفيسبوك، وتحصل بسببها على أكبر عدد من "اللايكات"، وقد يقترح عليها أحدهم أن تجعلها صورة الغلاف الخلفي لروايتها القادمة، التي سأظهر فيها، مثل كل أعمالها، شخصية ثانوية مثيرة للشفقة.

يقولون بأنك ان قرأت كتابا ورأيت انه بمقدورك أن تتناول موضوعه بطريقة أفضل، فأَبْشِر، تستطيع ان تصبح كاتبا.

مقتطفات حياتي التي تناثرت على صفحات الكاتبة الكبيرة لم ترضني بما يكفي، ومن هنا أدركت انه يمكنني أن أمسك بالقلم وأخط الحكايات.

تردُّدي على الندوات الأدبية والمؤتمرات بصُحبتها أكسبني بعض مهارات الصنعة، بالرغم من أنى كنت مجرد ظلٍ لها.

وكشأن أيّ ظل، حين ينعكس بجوارك أو أمامك في نفس حجمك أو يقصر ويستطيل بحسب الإضاءة، تفرح وتتسلى به، لكن إن سرت بدونه، لا تتساءل عن مكانه.

لكن الحق يقال، هي أفسحت لي مكانا بخطاب توصية لدى ناشرها، أن أترجم كتابا تجاريا لديه عن الرياضة وكيفية فقدان الوزن بأسرع وقت. لم يكن كتابا بالمعنى المبجّل للأدب، لكنه في النهاية عمل منشور، وكان شرطا أساسيا لقبولي للإقامة في بيت الأدباء هذا، بالإضافة الى القصة القصيرة الوحيدة التي كتبتها، وتُرجمت الى الفرنسية، كجائزة عن مسابقة القصة التي أعلنها المركز الثقافي السويسري لاختيار أفضل قصة عن الخوف.

في ساحة "جامع لفنا" بمدينة مراكش المغربية، كان للكاتبة الكبيرة هدفٌ

ثقافي عظيم، ألا وهو تسلم جائزة اليونسكو التي تشرف على هذا الفضاء.

مثل الظل اللامرئي كنت بصحبتها. طبولٌ ومزاميرُ ومروضو أفاعي وقردة وحلقات غناء أمازيغي. سائحون يتكالبون على الرجال الذين يرتدون القبعات الملونة ذات الجلاجل، ونساء يجلسن منصتات لكلمات البصّارات، العرّافات، وأواني كسكس وحساء "حريرة" مغربية، وفناجين شاي أخضر منعنع تدور علينا ونحن نجلس في حلقة بين رواة القصص الشعبية، يرددون أذكار التوسل والمغفرة.

كل هذا لم يمثل لي سوى أمر واحد.. خلفية لمشهد اللقاء بين "سعاد حسني" و"رشدي أباظة" في فيلم "الحب الضائع"، وفكرة أن تذهب لآخر العالم لكي تهرب من شيء ما، ووسط كل الزحام والصخب، تجده أمامك.

لقد سُميّت الساحة بال "فناء"، لأنها كانت ساحة للإعدام، لكنها تمثل المكان الذي سيلهمني الشكل الذي سأختاره لبداية حياة ثانية خاصة بي ككاتبة.

حمّام "ألف ليلة وليلة" القريب من الساحة كان هو الملهم في الواقع. فلقد وقعت في فخ الذهاب إليه، بعد أن عادت منه رفيقات الكاتبة الكبيرة بحكايات أسطورية، نسجتها مخيلتهن الإبداعية عن الحمام المغربي. قالت إحداهن شعرت بأني جارية محظية، تقوم الجاريات الأقل مرتبة بتدليلها وتدليكها بالزيوت المعطرة، تلتصق بجسدها الناعم وتنعش بأريجها مولاها السلطان. قالت أخرى شعرتُ أني شهرزاد ذاتُها، مما أنساها همومها مع خليط موسيقى هندية وبابلية، سمت بها إلى مقامات وجدانية، ثم غاصت بها إلى أعماق نفسها لينطلق لسانها بالحكي.

أما أنا فقد شعرت انني لعبة عديمة الحيلة في يد "ثريا" المغربية التي صارت تقلبني وتديرني وتحك جسدي بالصابون البلدي الداكن والليفة الخشنة، ثم تأخذني تحت الدش الساخن، وتزيح الشحم الذي كستني به، مثل

طفل يزيلون رغوة الصابون عن وجهه اثناء الاستحمام، وهو يتقلب في أيدي الكبار كدمية عاجزة. كان من الجائز أن أحلق في عوالم بديعة لأشبه الأخريات، إلا ان ما سيطر على تفكيري أثناء كل هذه الطقوس هو أمر واحد.. أني عارية.

لقول السر سحر، يقرب القائل والمستمع بعضهما لبعض، ويجعل للتعري لذة إزاحة العبء، لكن العُري الذي لم أحتمله في الحمام المغربي، جعلني أثق أنى لن أقوى على كشف المستور، وعلى قول أشياء عن نفسي وتعبئتها في صفحات كتب، توزع على غرباء مثل منشورات فضح الحكام الخائنين.

كمنت المعضلة في قرار الكتابة الذي كنت قد اتخذته بالفعل، وبناءً عليه قبلني بيت الأدباء الأوروبي الفاخر الذي خطوت نحوه بقلب واجف.

على أية حال، ليس الخوف دائما أمرا سيئا، إذ لولاه ما كان لعملي الأول والوحيد أن يترجم، ويرسلني إلى منفاي الاختياري.

في حياتي لحظات رعب عظيم مثل زيارتي للمقابر ليلا.. دادة أنيسة وهي تملي عليّ وصيتها كل يوم، لأنها تشعر أنها ستموت في السرير المواجه لفراشي.. العروس التي تلقيتها كهدية، ثم اكتشفت أنها مبتسرة بيد واحدة.. الأطراف الصناعية المعروضة في فترينات بائسة في شارع عبد العزيز بوسط البلد. جثة جدي المغطاة بملاءة حتى أعلى رأسه، ونحيب النسوة في الخلفية. ذكية الشغالة التي سكبت على نفسها الجاز واحترقت جبهتها وظلت رائحة الشياط عالقة لأسابيع في المطبخ، بالإضافة إلى أغنية داخل حدوته كانت ترويها لي دادة أنيسة: *أنا الطير الأخضر.. يمشي ويتمخطر.. مرات ابويا دبحتني.. والندل ابويا كل لحمي.. ولما بتدور الدنيا.. يرجع الطير لأخضر!*

أما رعبي الأكبر فكان في اللحظة التي ارتفعت فيها نسبة الأدرينالين إلى مداها الأعلى وحثتني على كتابة عملي الإبداعي الوحيد الذي أدين له بتغيير مسار

حياتي. كانت القصة التي كتبتها تسمى "الشبح".

وكان الظهور الأول للشبح في العاشرة مساء السبت 29 يناير 2011 والمعروفة بليلة الترويع، والتي عبرت فيها عما شعر به ملايين من أهالي القاهرة وما حولها في تلك القصة القصيرة:

"سلام قولا من رب رحيم.. سلام قولا من رب رحيم".. أرددها كالمحمومة وأنا أقبض بكلتا يدي على السياج الحديدية لشرفة بيتي. اهتديت لتلك الآية من قلب سورة يس وأنا أبحث في هستيرية عن كود لتشفير الخوف وتعويذة لرد الرعب. لست متأكدة إن كنت قد وجدتها في إحدى الكتيبات الدينية أم انني نقبت عنها في "جوجل"، فقد كانت شاشة الكمبيوتر هي الملاذ المعرفي، تليها "الجزيرة مباشر مصر" من تلفاز الصالة، ثم القناة الأولى بالتليفزيون المصري في تلفاز غرفة النوم.

"بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم". دعاء آخر أردده بشفاه منملة ولسان متيبس لتبدو حروفه على هيئة زن متصل طويل.

سياج الشرفة تغادر مكانها وترتطم بقلبي ثم تعود لمكانها. بل قلبي هو الذي يفعل ذلك، لكن من فرط الانفعال والتهاون التدريجي لساقي وجسدي شُبه لي أن الحديد هو الذي يخترق موضع القلب ثم يعود.

تلك اللحظة التي استغرقت ثوان وبلغت فيها ذروة الرعب كانت حين امتلأ الشارع بصراخ نسائي، فانتشر على الفور كل رجال المنطقة، ومن بينهم ابني وزوجي.. لأن البلطجية قد وصلوا.

ذروة الرعب أن تفتح عينيك عن آخرهما لتطل من شرفة على مشهد لحياتك وهي تؤول إلى السقوط.. فقد ترى ابنك وزوجك وهما يلقيان

حتفهما.. وقد تشهد واقعة اغتصاب أو خطف ابنتك بواسطة من أجهزوا على الرجال الذين يقومون بحمايتكما.

تشكلت أمامي كل مدخراتي من المشاعر والجهد العاطفي على هيئة صرح كبير هائل.. مبنىً شاهق أخذت كل طوبة فيه من قلبك دقة، ومن عينيك دمعة ومن روحك نفحة.. وها هو الصرح الصلب سينهار بمثل سهولة انهيار البرجين في 9/11 (الحادي عشر من سبتمبر) وكأن ما حدث على الشاشة أمامك آنذاك كان مجرد خدعة سينمائية في فيلم للخيال العلمي.

كان فعلا محض خيال. ففي تلك الأثناء كنت أخشى شبحا لا أستطيع وصفه أو تمييزه: "البلطجية"!!

من هم؟ وما تلك القدرات الخارقة التي يتمتعون بها وتتناقلها وسائل الإعلام وتغطي تغلغلهم في كل صوب وحدب؟

الأصوات النسائية على الهواء مباشرة تستغيث بالجيش بعد اختفاء الشرطة: "البلطجية" دمروا المحلات التجارية بعد أن نهبوها في شارع جامعة الدول العربية. "البلطجية" أحرقوا "أركاديا مول" عن آخره. "البلطجية" خرجوا من الكيلو 4,5 طريق مصر السويس.. اتجهوا إلى التجمع الخامس.. هم الآن في مدينة الرحاب.. شيراتون هليوبولس.. شارع عمار بن ياسر.. إنه الشارع الرئيسي الملاصق لبيتي.. انهم يقتربون.. يقتربون جداااا..

كنت كلما سمعت اسم حيّ أو منطقة أتصل فورا بذويَّ الذين يسكنونها، فأجدهم على قيد الحياة لا يزالون. يسمعون فقط دويّ طلقات نارية كالتي تخترق أذني وقد صارت جزءا لا يتجزأ من خلفيتي السمعية لأيام متتالية فيما بعد، هي وأبواق ترتفع بصوت ذكوري أجشّ ينطلق من المآذن العديدة المحيطة بمنزلي، وفي أحيان أخرى يأتيني من عربات تجول في المنطقة وتحث

الشباب والرجال على التيقظ والتربّص وإعداد ما استطاعوا من قوة.

ثلاث فتيات في العمارة المقابلة يقفن على السطح ويطمئنّ شباب المنطقة أنهن قد أعددن زجاجات مولوتوف وسيقمن بإلقائها من أعلى كخط دفاع ثان. زوجة البواب تجري خلف ابنها الصغير وتمده بسكين ليغرسها في العصا التي يمسك بها. ابني وزوجي، كلاهما يمسك بعصا حديدية ثقيلة، علمت ذلك اليوم أنهما كانتا بحوزتهما منذ زمن ويحتفظان بهما في سيارتيهما للدفاع عن النفس إن قطع أحد طريقهما.

لحظات الخوف الشديد تمر على الإنسان مثل ساعات ثقيلة، يشاهد فيها شريط حياته كاملا وقد يتغير، بناء عليها، مستقبله تماما.

كنت في المرحلة التي تسبق الإغماء التام وأنا في ذروة الهلع انتظارا للبلطجية، حين ارتفعت أصوات الرجال المتربصين بالشارع ناظرين لنسائهم بالشرفات: "ماتخافوش.. دي واحدة ابنها تايه وبتدور عليه!".

امرأة مجهولة تصرخ لثوان بحثا عن طفل تائه، لتطلق سراح ألف جنّي يستقرون في قلبي وعقلي. شبح عظيم سكنني ثم تغلغل في كل ركن وتمطّى واستراح، حتى بعد أن تلّقى عقلي الواعي بيانات رسمية تكشف خطة الترويع المحكمة من بثّ شائعات عن أعمال سلب ونهب وانتشار مسجلي الخطر بالأحياء وإصدار تلميحات في وسائل الإعلام بتشكيل لجان شعبية لتوجيه طاقة الناس بعيدا عن الميدان!

أنا التي تبكي ويفسد يومها حين يفترق حبيب وحبيبته في فيلم سينمائي، وأنا الطفلة التي كانت تكره أن تختبئ خلف حائط تفاجئ طفلا آخر بكلمة "بخ"، وتمقت أن تصرخ في أذن صديقة لها ب "تووووت"، ولا تضحك أبدا مع الآخرين على شخص اختّل توازنه ووقع في الطريق، هي المرأ نفسُها التي ترصّ بجوار باب الشقة مجموعة من عبوات الريد والبيروسول لبخّها في

عيون المهاجمين المحتملين، ثم مباغتتهم بالسكاكين الضخمة اللامعة التي تأتينا كهدايا ضمن أطقم للتقطيع ولا نستعملها أبدا!!

أنا التي كانت تحتمي بالأغنيات الرومانسية التي يبثها كاسيت سيارتي بعد الثانية صباحا وأنا عائدة من المستشفى الذي أعمل فيه، ليقيني بأن الإحساس الجميل لن يجذب نحوي إلا كل ما هو رقيق، هي الشخص نفسه الذي يقوم بغلي كمية من الخل وإضافة الفلفل الأسود والشطة الحمراء إليه وتعبئة المحلول الحارق في بخّاخ أحتفظ به في سيارتي تحسّبا لأي هجوم، بينما الحواسُ جميعُها تترصد لأي موتوسيكل يمر بجانبي واقوم بالتدريب الذهني على اللحظة التالية: إحكام حزام الأمان.. تسكير الأبواب.. زيادة سرعة القيادة مع توجيه مقدمة السيارة نحو منتصف الموتوسيكل وطرح ركابه أرضا على الطريق العام، ثم انطلق نحو بيتي بدم بارد في الشوارع الهادئة نفسها التي كانت قد شهدت احتمائي باليقين والثقة في قدرة النغمات الحالمة على صرف أي سوء!!

تركتني ليلة الهلع بقلب لا ترى عيونه سوى لونين: بيج كابي نهارا.. وأحمر فوسفوري باهت ليلا.. هي ألوان شوارع انتُزِع منها الأمان، على الرغم من أن عقلي تملأه شمس تشرق ليل نهار ضوء الإنعتاق والتطلع إلى الشعاع الساطع بآخر النفق المظلم.

ظل الشبح المستقر في القلب، والنور الذي يضيء العقل في عراك لا يهدأ، إلى أن كانت تلك الليلة القريبة التي قدت فيها سيارتي، عائدة من عملي قبيل الفجر، متسلحة كالعادة برذاذ الخل المخلوط بالشطة والفلفل. استشعرت خطرا ما حين لمحت في المرآة العاكسة سيارة تتبعني. توقفت أمام العمارة وغادرت السيارة وأنا أمسك بالبخاخ بكل جرأة، وبخطوات ثابتة صعدت إلى شقتي، بعد أن كنت قد تأكدت أن السيارة الأخرى لم تكن تتبعني، حيث

انحرفت يمينا في شارع آخر.

ضغطت على البخاخ ووجهته نحو الفراغ لتجربته من باب التسلية، إلا أنه كان معطلا تماما. البخاخ ذو الرذاذ الكاوي الذي منحني قوة هائلة لشهور ستة لا يعمل!! تركته في المطبخ، موطنه الأصلي، جنبا إلى جنب مع عبوات الريد والبيروسول والسكاكين الضخمة التي لا أعرف لها فائدة. والأهم هو أنني خلعت أمامهم الشبح الذي سكنني ليخيفهم أو يخيفوه.

أما أنا فقد عدت أحتمي بالموسيقى الناعمة والأغنيات الحالمة التي يبثها مذياع السيارة وأنا أنعم بالقيادة الواثقة بعد منتصف ليل القاهرة".

بداية مهران

ثمة حقيقتان تخصان هذه القصة، أولاهما أنني نلت عنها جائزة، والثانية هي أن نهايتها غير حقيقية، فمازال الشبح مستريحا ومتمددا في كل ركن من جسدي، وفي كل الأماكن التي أمر عليها يوميا.. شارع صلاح سالم، والخليفة المأمون، وأمام الكاتدرائية في العباسية، وفي كل شبر من ميدان التحرير، وشارع قصر العيني، وبجوار فندق الإنتركونتنتنتال، وفوق كوبري قصر النيل، وأسفل عمارتنا على كورنيش نيل القاهرة، وما كان يمكنني التخفف من وطأته، سوى بملء إستمارة طلب الحصول على تأشيرة في السفارة السويسرية والهروب إلى مجهول آخر، لأقضي شهرا في قصر منعزل مع حفنة من الغرباء.

القاهرة

جيمنازيوم "لابيل فام"

ليست السرقة دائما حراما، فهناك مفردات أنيقة في المجال الأدبي تعطي للسرقة مذاقا راقيا، فقد نجد أشياء مشروعة مثل توارد الخواطر والاقتباس والتخييل.

ولقد تعرفت على مثل هذه الأمور أثناء حضوري لبعض ندوات الكاتبة الكبيرة، لكي أزيد عدد المصفقين واحدا. ومن هذا المنطلق سأتمكن من كتابة روايتي هذه. وأول من سأقوم باختلاسه وسرقة خواطره، ستكون هي. أظنها لن تبالى بعدما اعتزلت حياة أدبية لم تكن منخرطة فيها أصلا، وذهبت لتعتكف، مثلما تمنت دائما، في فندقها الصغير، المطل على بحر محطة الرمل، لتملأ رئتيها كل صباح بيود سكندري مسكر، وتستعيد لحظات طفولة تخصها، واقحمتني فيها في إحدى رواياتها كشخصية مساعدة للبطلة. في تلك الرواية التي صعدت بها للعالمية، نصبتني ابنة أخ ورفيقة روحانية ودثّرتني بتعويذاتها الخاصة لكي أصير نسخة مصغرة منها، مع أني في الواقع مجرد ابنة الجيران التي تلوذ بشقتها المطلة على كورنيش النيل لحظة حدوث أزمة ما. في تلك الأثناء كنت أظن أن مجرد فراري إلى أعلى، سواء بالمصعد أو على درجات السلم، سيوفر لي أمنا واستقرارا دائمين في محيطها المبهر، إلا أن صخب وأحداث شقتنا بالدور الأرضي كانت تستدعيني للهبوط القسري، بينما لا تتشبث هي بوجودي حين تكون منشغلة في كتابة نص أو مقال. وبما أنها قد تخلت راضية عن رصيدها الإبداعي، سأعتبر نفسي وريثة شرعية لبعض

أفكارها، مثل أن أكتب رواية على غرار روايتها تلك، فتدور أحداث فصل في مصر، وأحداث فصل آخر في سويسرا.

كانت تردد بثقة في الندوات التي عقدت لروايتها الأشهر: "روايتي على هيئة زجزاج.. فصل متوتر صاخب في مصر، وفصل سلس ناعم في ألمانيا".

ما كنت لأفعل شيئا مُشينا كهذا لو كنت ملمة بتقنيات الكتابة الإبداعية، لكنها منحة السفر التي أتتني فجأة لكتابة رواية في بيت الأدباء السويسري.

ولقد بدأت فعلا السير على أولى خطواتها، بأن افتتحت الرواية برباعية لصلاح جاهين، ودسست رباعيات أخرى داخل الفصول، شأنَ صنيعها.

أما ما لن أتحمله، فهو أن أعتلي منصة لمناقشة روايتي، ويشير أحد الحضور أنني أحمل بعض سمات البطلة، ملمحا أنني هي بالفعل.

ومنذ أن قررت في رحلتي إلى الحمام المغربي أن لن أتعرى، فستكون أحداث الرواية في مكان يذهب إليه الآخرون ويستمتعون بالتعري.. جيمنازيوم "لابيل فام" القريب من بيتنا بوسط القاهرة. فالجيمنازيوم، ليس مجرد صالة يتمرن فيها الطلاب على الألعاب الرياضية فحسب، كما هو شائع. بل تعني كلمة "جيمنوز"، "العُري" بالإغريقية، وقد كان الرياضيون يتنافسون وهم في حالة عري كامل، كنوع من تقدير الجمال الجسدي للذكور في الأزمنة الغابرة.

"الجيم" الذي اخترته كمسرح للأحداث، هو للنساء فقط، ولا يدخله الرجال إلا يوم الجمعة، اليوم الذي خلق الله فيه آدم. إلا أن الرجال يدخلون ذلك المكان السري المقدس في هذا اليوم فقط، كعمال صيانة، للإبقاء على كفاءة الأجهزة.

المحظورات بداخل المكان تجعل مهمتي أكثر صعوبة، فعلى معظم الحوائط تجد تلك اللافتة: "ممنوع استخدام الكاميرات".. "ممنوع التدخين".. "ممنوع

الأكل خارج الكافيتيريا". كيف أجعل قلوب النساء تنفتح، وتنفك ألسنتهن، وتدمع عيونهن، إلا مع دخان سيجارة أو فنجان قهوة، في جلسة حميمة، وقد تستحق تلك الجلسة التقاط صورة جماعية بالمحمول، لتثبيت اللحظة على حائط الذاكرة.

على الحائط المواجه لماكينة المشي توجد عبارةٌ ألهمتني: "إنك لا تلعب لأنك كبرتَ في السن.إنك تكبر في السن لأنك لا تلعب"، فقررت أن ألعب.

تذكرت يوم منحتني صديقات الكاتبة الكبيرة لقب "الساحرة الصغيرة"، حين أردن أن يلعبن في رحلتهن العجائبية إلى مراكش. كنا نجلس في قُمّرة خشبية في القطار العتيق الذي يقطع الجنوب الغربي للمغرب، عائدا إلى الرباط، وكان معنا رجل وامرأة. كنت أرتدي قميصا مغربيا فضفاضا، وألفّ رأسي بإيشارب على الطريقة الغجرية الإسبانية وفي مقدمته أشبكُ قطعة من الفضة الأمازيغي مثل العرافات.

فكرة مجنونة صعدت في رؤوسهن بأن يقلن للراكب والراكبة اللذين يجلسان بجوارنا إنني عرافة واقرأ الطالع. ضحكت وتمنّعت في البداية ثم راقت لي الفكرة. أمسكت بكف المرأة وكأنني أدقق في خطوطه التي لا أفهم منها شيئا، بل إني لا أعرف حتى أي كف يجب أن أقرأ.

كان بصري في الواقع يتفحّص وجهها ويتجول على جسدها وملبسها. استشففت أمورا من نظراتها وايماءاتها وجلستها. استحضرت أمنيات النساء التي تتلخص في رغبتين أو ثلاثة على الأكثر، وقلت لها إن تلك الأماني تراودها وأنها ستتحقق لو فعلت كذا وكيت.

تحمس الرجل المرافق للمرأة حين تطابقت نبوءتي مع ما يعرفه عنها وقال لي: "أنت ملعونة.. شوفيلي الطالع!!". لم يكن سهلا أن أقتحم دماغ رجل مثلما فعلت مع المرأة، لكنني كنت قد سخنت مع صيحات التشجيع ونظرات الإعجاب

مثل المقامر الذي لا يتوقف عن اللعب ليس رغبة في المال، بل حبا في قطع مسافات أكبر في عالم الاثارة والمغامرة.

قلت للرجل أشياء يمكن أن تقال لأي رجل، مثل إنه يفضل العمل على أي شيء، وأن شغفه هذا قد أثر سلبا على حياة أخرى ناعمة كان يصبو إليها، وأنه لم يستطع الحفاظ على تلك الحياة ليس لعدم قدرته، وإنما لأنه خائف.

اتسعت عينا الرجل ورفيقته، وكان هذا كفيل بحصولي على لقب "الساحرة"، خاصة بعد أن كنت قد قمت قبل ذلك بيومين بخداع عرافة بصارة في ساحة الفنا وقلت لها أن تقرأ طالعي. همست للودْع الذي ناولته لي، لكن بصوت تستطيع أن تسمعه هي. قلت: "يارب نجّح أبنائي واشفِ زوجي وأعِد أخي سالما من غربته". تناولت العرافة الصدفاتِ وهزّتها ثم قالت لي في ثقة: "الصغار ديا لك سينجحون والمريض يشفى والغائب يعود". كانت هذه هي الواقعة الأولى التي تأكدت فيها أنني يمكن أن أخدع عرافة، فلا أنا متزوجة ولا صغارَ لي ولا أخي غائب! إلا أن لعبة التنبؤ هذه ما كانت لتنفع هنا في الجمنازيوم، لأن العراف هو الذي يقوم بالحكي، وأنا أريد أن أتناول الكلام لا أن أعطيه.

ضغطت على زرّ السرعات على ماكينة المشي، حتى أنتهي من ركض مسافة ثلاثة كيلو متر، كتسخين قبل أن انتقل إلى جهاز العجلة الثابتة، حيث يمكنني أن أجلس لأتدبر الأمر، لكن كيف أفعل وفي الخلفية موسيقى الرقص اللاتيني، وتعليمات وجمل تشجيع من المدربات وأصوات الأحذية الكاوتشوك وهي تدب بخفة على أجهزة التنحيف وتقوية العضلات، ممتزجة بصيحات بعيدة تصاحب دقات على واحدة ونص في درس الرقص البلدي بالقاعة الخلفية؟

القاهرة / جنيف

"لو لم تضل الطريق، فهناك فرصة أن يعثر عليك أحد"

أضخم حقيبة سفر أمتلكها مفتوحة الآن في آخر غرفة النوم، وقبل موعد السفر بأسبوعين.

الفوهة العميقة تستعد لتلقي كل الاحتمالات. درجة الحرارة في "لوزان" ستتقلب بين الشتوي البارد الممطر والصيفي المشمس، وفقا لجدول تنبؤات الطقس على موقع البي بي سي. هذا يتطلب ملابس تكفي للإقامة شهرا كاملا وتبدأ من البالطو حتى الـ"تي شيرت" القطني ذي الحمالات، مرورا بملابس المساء الرسمية لزوم طقس العشاء اليومي.

أدباء خمسة سيقاسمونني المنزل والمأكل ووجهات النظر.

تسرح أصابعي على الموقع الرسمي للمكان لمعرفة هوياتهم، ويدي الأخرى على قلبي لئلا يكون أحدهم ذو ايديولوجية متطرفة، تسحبني إلى مهاترات كلامية وتعود بي خالية الوفاض إلى مصر، تاركة ذلك الانطباع الشائع عن همجية المسلمين ومعاداة العرب للسامية.

مجموعة شهر يونيو 2013: "نيل مارتن".. بريطاني. "جون تشارلز".. أمريكي". "أولجا بوكونوفا".. روسية. "بداية مهران".. مصرية. و"كاترينا جورسكي".. بولندا. تنفست بارتياح حذر لأن ليس من بينهم كاتب من "أبناء العم". وضعت كل اسم على "جووجل" لأتعرف على تاريخهم الأدبي، لإذابة أية

كتل جليدية محتملة. ترجمات، روايات، سير ذاتية وأخيرا وقعت عيني على تلك السيرة الذاتية التي تعدها "كاترينا جورسكي" عن معاناة اليهود في الجيتو البولندي وتأثير ذلك على الأجيال الحالية، وفقا لما سمعته من أمها وروايات أجدادها الذين عاشوا وماتوا بداخل الجيتو.

النوتة الزرقاء الصغيرة بها صفحة للوازم السفر الثابتة، والتي تمنحني احساسا بالاطمئنان بأن كل شيء سيكون على ما يرام، لو ألقيت بمحتويات القائمة المكتوبة في الحقيبة بلا تفكير: معجون الأسنان والفرشاة، شبشب البيت، ترينغ، السشوار، كيس الأدوية، شاحن الموبايل وأشياء أخرى كثيرة لكنها على مرمى خطوة من الدولاب أو الدرج.

ماذا لو فاجأتني تلك اليهودية بزعم أنهم بناة الأهرامات؟ هل سأجرسها وأمصمص شفتي وأنا أقول لها: الذي نعرفه هو ان الأهرامات موجودة في آخر شارع الهرم، والذي يطالب بها، فلينقل حجرا من أحجارها حتى ارتفاع مائة وستين مترا، شرط ألا يستخدم التكنولوجيا الحديثة؟

من الأفضل أن أستعد بالبراهين العلمية التي تسحق زعمها.

مثل مدمن يرثى لحاله بعد أن فقد عقله من كثرة التعاطي، سيصير مظهري بعد أيام خمسة من بدء البحث. ستغوص عيناي، وتحوطهما هالتان سوداوان، من كثرة التدقيق في شاشة الانترنت، والاطلاع على موسوعات احياء العلوم القديمة. وفي آخر كل مساء، أتخيلني في عديد أوضاع، تارة وأنا أرد عليها بحماس واثق، وتارة وأنا أواجهها بوجه محايد ونبرة معدنية. أتخيلها الآن وقد فقدت النطق بعد أن أخبرها أن الأهرام بنيت قبل قدوم اليهود إلى مصر بأكثر من ألف سنة، وأنا أشفع حجتي بتاريخ الأنبياء باليوم والسنة. ثم أراني في موقف آخر، ونحن نرتدي الملابس الرياضية المريحة، ونتمشى في الجبال،

وأنصحها بتلقائية ان تهدأ، فلا الفراعنة ولا اليهود هم بناة الأهرام، فهناك رواية يروّجها العلماء الغربيون عن وجود حضارة غاية في التقدم سبقت الفراعنة بقرون طويلة، لجأت إلى مصر بعد الغرق العظيم لقارة أتلانتا وانهم البناة الأصليون، ثم ورثهم الفراعنة ليسكنوا مساكنهم. وأن هذه القصة تتشابه وقصة قوم عاد التي وردت بالقرآن، وأنهم خلفاء نوح بعد الطوفان.

لن أردد هذا الهراء المُغرض من أجل أن أغلق مناقشة، لأريحها، وأبدد حضارة بلدي. البروفة الأخيرة كانت على مشهد وجهها، وأنا أطلق ضحكة ساخرة من القلب، مثلما فعل السادات حين قال له "مناحم بيجن" أنه باتفاقية السلام، قد فعل شيئا أعظم من الذي فعله أجداده اليهود لما بنوا الأهرامات. ولما استفز الصهاينة رد الفعل اللامبالي للزعيم، زرعت الموساد عشرات المرشدين السياحيين لتزييف التاريخ المصري. وبالمثل، قد تقيم لي المدعوة "كاترينا جورسكي" صلاة "بالسا دي نورا" التي تجلب اللعنة، مثلما فعل المتشددون اليهود مع اسحق رابين قبل شهر من اغتياله، كما استخدموها مع "شارون" قبل ستة أشهر من دخوله في غيبوبته الدائمة.

يبدو أن روح صلاح المشعوذ، شقيق هدى قد تلبستني فصرت أفكر على طريقته. سأسلك طريق التعاطف وأشاهد أفلاما تسجيلية وروائية تحكي معاناة أجدادها في الجيتو البولندي لعلّي ألتمس لها الأعذار ونبدأ على أرضية من التفاهم.

بعد انقضاء أيام الانغماس الخمسة وصلني إيميل من "ناتالي" مديرة بيت الأدباء، تخبرني أنها ستكون بانتظاري في موعد وصول القطار الذي سيأخذني من مطار جنيف إلى البلدة الأقرب للبيت. وسيكون ذلك في الساعة الواحدة وسبعة وثلاثين دقيقة بالتمام!

كم كانت الكاتبة الكبيرة مدللة، حين ذكرت في إحدى رواياتها عن الهروب إنها ضجرت من سكناها أمام شاطئ النيل، وملّت سياج الفراندة التي تتكرر قضبانه، "مثل البشر المتكرر أشكالهم وحركات أيديهم في برديات الفراعنة"، وغادرت إلى رحلة نحو عالم واعد بالحب والجمال، كفترة استرخاء من ملابسات خطوبة لم تكن ترغب بها.

كيف لي أن أصف مشهد كورنيش النيل الذي ضايقها، حين كان مزدانا بمراكب شراعية تطلق أغنيات وأضواءً ملونة، تعكس رونقها على صفحة النهر ووجوه المحبين وباعة الترمس والسميط وحمص الشام والمشروبات المثلجة؟ أنا ساكنة الشقة التي تقع في الدور الأرضي من عمارتها، أحاول الآن أن أكتب رواية هروب من الشرفة نفسها، لأني أفتحها كل صباح على مشهد نهر كابي، يكاد يقلب ما في جوفه من فرط استنشاق الغاز المنبعث من قنابل لتفريق بشر يطمعون في حياة أكثر إنسانية، أو مدرعات هائلة تسوي آخرين بالأسفلت، أو صخب هتافات في مكبرات صوت في أيدي العشرات، والآلاف الذين يرددون خلفهم وفي أيديهم صلبانٌ خشبيةٌ مرفوعةٌ في وجه شبح فتنة طائفية.

أما الأيام التي تبدو فيها الحياة الأسرية على ما يرام، فهي حين كانت تقوم نساء اعتصام أهالي الدويقة بطهو حلل المحشي والبامية بداخل الخيام التي نصبوها من مفارش وبطاطين مهترئة، يعلقونها بمشابك تستند إلى الأسلاك الشائكة أمام ماسبيرو، وامتدت حتى مدخل عمارتنا، وفي المساء يتسلين بالمسلسلات الرمضانية وإرضاع أطفالهن وتدخين سجائرهن بتلذذ، قبل أن يحين موعد صلاة الفجر.

رغم ان قلبي كان ينفطر لمشهد الأطفال الغارقين في سباتهم، والمتناثرة أحذيتهم الصغيرة وشباشبهم فوق الأسفلت، فلن أنكر فضل هذا التجمع

العشوائي في إدخالي إلى عالم هدى وصلاح وأمينة ورضا، وإلى دنيا الجيمنازيوم والبيوتي سنتر المنغمة المعطرة.

تقول الكاتبة الكبيرة بداية الألفي، أنها تكتب الأحداث بشكل أفضل حين تنفصل عن المشهد تماما. أنا الآن في المقعد رقم 32 الملاصق لنافذة طائرة مصر للطيران الرحلة رقم 772 المتجهة إلى جنيف. في مواجهتي المضيفة وهي تقوم بأداء حركات مثل لغة الصُّمّ على خلفية شريط مسجل، يشرح كيفية التصرف إذا ما تعرضت الطائرة لعطل أو احتراق أو غرق. أضع سماعة الراديو في أذني والتفت نحو السحاب. تبتعد البيوت وتمتزج بالمساحات الصفراء والخضراء والنيل وتفرعاته وتتحول إلى فكرة اسمها الوطن، بينما اتخفّف شيئا فشيئا من حملى الجسدي في مراحل الصعود والارتقاء إلي السماوات السبع.

السماء الأولى زبدٌ بحريٌّ يُسكرني بلذة طفولة شقية. السماء الثانية طرقاتٌ إسفنجيةٌ ناصعةُ البياض، امتطي فيها مِقشّة طائرة مثل ساحرات" هاري بوتر". السماء الثالثةُ قطنٌ هشٌ يبطِّن سجادةً شيرازيةً أتربّعُها بجوار السندباد في طريقنا إلى بغداد. في السماء الرابعة، لا أراني، بل أحسني بين ثنيات الأبيض. في الخامسة، لا أحسني بل استشعرني روحا صاعدة، تبحث عن روح تتعارف عليها ليأتلفان. وفي السماء السادسة، ينبت للروح جناحان عظيمان يرفرفان في الهلام الأبيض في وداعة ملاك. أما في السابعة.. يااااا الله!!!! أنت المبدع البديع الرائق المتجلي العلي الفاتن الجميل ذو الحسن والإبهار! أحبوا الله حين تتخففون من أثقالكم فتتسع رؤياكم.

البحر الأبيض المتوسط يتهادى تحت بساطي الطائر في براح ويقذف أمواجا صغيرة مثل زجزاج من خطوط الطباشير على رمال ليبيا، تونس، جزر اليونان وايطاليا، والتعاريج البنية لجبال أطلس تواجهها في شموخ، تماما

مثلما كنت أظللها بشغف في الخرائط في واجب الجغرافيا، أووه!! حتى الروح يجهدها هذا الجمال فأعود بالمقعد إلى الوراء وأروح في سبات عميق.

على من يرغب في الوصول إلى ذروة هذا الاحساس، أن يفتح عينيه جيدا حين يصل إلى منطقة "مون بلان"، أعلى ارتفاع في جبال الألب عند الحدود الفرنسية، حيث امتزاج درجات الأزرق بظلال لانهائية من اللون الأبيض المتثني المتدلل، لدرجة أن الفرنسيين أطلقوا عليه اسم "لا دام بلانش"، أي المرأة البيضاء، تلك الجميلة التي سأشاهد بعض مفاتنها وأنا أتمشى بين الجبال في فترات الراحة من الكتابة، في قصر الأدباء الذي سيستضيفني بعد لحظات.

تعددت الملابس والعُريُ واحد

بكشف ساقها المتورمة بسبب "داء الفيل"، سجلت أم هدى لنفسها حضورا متميزا أثناء اعتصام أهالي الدويقة أمام ماسبيرو. كانت كلما ابتعدت عن مواقع التكدس في الخيام، ونزحت نحو مدخل عمارتنا، حيث تحب أن تستقر وتردد الدعوات لكل من يدخل أو يغادر العمارة، ينهرها رجل، يبدو عليه أنه ابنها، بأبشع السباب ويسحبها نحو كاميرات الفضائيات التي تجري معه حوارات شبه يومية، وهو يشرح مأساة مخيمات الإيواء بأحياء "السلام" و"النهضة"، ثم يشير إلى ساق أمه العارية، ويخفض من نبراته حتى يجعلها مثيرة للشفقة.

أظن أن الصخرة العملاقة التي انهارت فوق رؤوس أهالي الدويقة، ووضعت الأحياء منهم في شتات الإيواء، قامت بتفتيت ما تبقى من عقل أم هدى.

ففي الصباح تجلس عند مدخل عمارتنا وأمامها مجموعة من علب المناديل الورقية بهدف بيعها. وفي منتصف اليوم يكاد يتلاشى كل أثر لها. أما في المساء فتارة تجدها عند أول كوبري 6 أكتوبر وهي ترفع جلبابها وتقضي حاجتها، أوتجدها جالسة على الرصيف تسب شخصا في الفراغ، لأنه سلبها شبابها وجمالها. يبدأ تصاعد السِّباب من "النذل" و"النطع"، مرورا بـ"ابن الكلب الواطي"، إلى أن تصل حتى الدرجات القصوى من أعضاء الجسد المختلفة. حينئذ يلكزها ابنها ويقول "اتهدي يا ولية فضحتينا الله يخرب بيتك". كانت أم هدى تجذبني نحوها بمغناطيسية عجيبة، حتى أنى منعت عم فرج البواب

من طردها من أمام المدخل حتى أعرف قصتها. لم تقل سوى أنها كانت "زي القمر في شبابها" وأن "عندها بيت".. "وحياة المصحف أنا عندي بدل البيت اتنين" ثم تصمت. الغريب أنها تظهر إعلاميا ك "أم صلاح"، بينما قالت لي أنها تسمى "أم هدى". وفي الليلة الأخيرة التي انفض فيها الاعتصام، ونام سكان الكورنيش نوما هادئا لأول مرة منذ ثلاثة أشهر، ظهرت "هدى" وشكرتني على حسن معاملتي لأمها، وأعطتني ورقة دعاية ملونة للجيمنازيوم والبيوتي سنتر الذي تعمل فيه. "دا انتي هتنبسطي عندنا قوي يا دكتورة.. آه والله!"، ومنذ ذلك اليوم صارت "هدى" مجرد اسم يثير الصخب والكثير من الأقاويل كلما تردد في جيمنازيوم "لابيل فام"، بعد اختفائها المفاجئ، وبعدما صرت جاسوسة طابور خامس وأنا أتلوى وأتنطط على موسيقى الصالصا اللاتينية في القاعة الكبيرة، أو أحتسي القهوة السادة في الكافيتيريا وتزوغ عيناي يمينا ويسارا، لكي ألتقط مشاهد تصلح خلفيات لحكايات الزبونات.

لم يكن التعري هو الخطيئة الأولى لآدم، بل أكل التفاحة. قضمت التفاحة التي طلبتها في الكافيتريا، وأنا سارحة في أحداث اعتصامات، وكرّ وفرّ تدور صامتة على الشاشة التي تعلو ماكينة المشي التي لا يستعملها أحد. أما الشاشات التي تعلو الأجهزة المتوازية التي عليها نساء ماشيات او راكضات، ويضعن السماعات في آذانهن، فتتراوح بين الأفلام الأجنبية والأغنيات الغربية، وتسجيلات قرآنية لقناة "الناس" أو "الحافظ"، وفي الخلفية موسيقى "روك" للجميع لمن لا يرغب في مشاهدة أو استماع خاص. ارتفع صوت "عزة" عاملة الجاكوزي، تلاه تهديد مهذب من مدام أمينة صاحبة "الجيم"، واعتذارات هادئة من الدكتورة نهلة.

عزة:

- يا دكتورة نهلة دي مش أول مرة حضرتك تروحي ف النوم ف الجاكوزي. أنا اضطريت أقول لمدام أمينة عشان دي مسئولية.

مدام أمينة:

- خلاص يا عزة انا هاكلم الدكتورة.

الدكتورة نهلة:

- أنا آسفة والله يامدام أمينة، مش عارفة إزاي حصل كدة، يمكن عشان كنت واخدة مهدئ مع تعب الشغل، فنمت غصب عني.

كان ضروريا أن أحدد مجموعة مستهدفة لأكتب عنها، فمن المستحيل أن أكتب حكايات أكثر من ألف امرأة يترددن على المكان.

أنا نفسي كان رقم اشتراكي 1762، واشتركتْ بعدي العشرات.

أطلقت كلمة "المهدئ" التي قالتها الدكتورة نهلة أجراسا في رأسي، وجعلتها الهدف رقم واحد، وقررتُ أن أنهي تدريباتي بجلستيّ استرخاء في الساونا والجاكوزي، حيث الحركة هادئة والثرثرة كثيرة.

اللقطة الأولي للدكتورة نهلة بالنسبة لي كانت من الخلف. جسد ممشوق ذو استدارات محسوبة على أجهزة الـ"تونينج"، أي جعل أجزاء الجسم في حالة تناغم وانسجام، بعد عمل مجموعة من التدريبات الرياضية. الزي يشف عن أناقة كلاسيكية، تظهر عمدا المجهود الذي بذل، وحجاب يكشف أكثر مما يستر من خصلات الشعر الذهبية المنفلتة.

وصوت الدكتورة نهلة يتوافق ودغدغة المياه لحوض الجاكوزي وهي تمد يدها بجنيهات عشرين لعزة، وترجوها ألا تقول لأحد من المترددات على الجيم أنها نامت دون أن تشعر.

بعد خروج الدكتورة نهلة بدقيقة واحدة، كانت عزة تعلن عن مدى معاناتها في تلك المهنة الصعبة بصوت سمعته النساء جميعا، وإن أصعب تلك

المهام هي إيقاظ الزبونات اللاتي يسقطن نائمات أو مغشيا عليهن في الحوض ويجلبن المصائب عليها، مثلما تفعل الدكتورة نهلة.

تتقبل عزة، إذاً، الرشاوي بضمير راضٍ وتُعرّي الأسرار. ستكون الهدف رقم اثنين على قائمتي، ومنها سأنطلق بسلاسة نحو تحديد مزيد من الأهداف.

كان عليّ أن أنفذ التعليمات الصارمة الخاصة باستخدام الجاكوزي: دشّ قبله، استخدام الشبشب الخاص بالمكان، ارتداء المايوه إذ التعري التام غير مسموح به هنا أو في الساونا أو غرفة البخار. مددت قدمي اليمنى في حوض الجاكوزي، وكدت أردد سرا "الأولة بسم الله"، مثل امرأة ترجو أن تحمل بواسطة مشعوذ يجهز لها الأعمال. قبل دقيقتين، كنت قد دسست في يد عزة عشرة جنيهات، وأنا أرجوها بمكر ألا تخبر أيا من الزبونات أنى اعمل مرشدة نفسية، فلقد جئت هنا للراحة من شكاوى النساء ومشكلات المتعبين التي يرمونها على كاهلي، ليل نهار.

الراشي والمرتشي الآن في الماء. غصت بكامل جسدي للمرة الأولى داخل حوض جاكوزي بهذا العمق، وأطراف أصابع عزة تتحسس درجة حرارة المياه، وتوجه المضخات العشرين نحوي. نهرا خاصا بك، تدغدغ امواجه الصغيرة اللعوب كل سنتيمتر مجهدا من جسدك، من أول العنق المتيبس فترخي تشنجه، حتى أطراف اصابع قدميك، التي تصدر صوت طقطقة خافت تحت الماء المتحرك. أغمض عيني على وشيش، كالذي كان يملأ آذاننا بعد اللعب طويلا في البحر ونحن صغار، ويتلاشى كل ما عداه من أصوات.

- كدة المية كويسة؟ وللا أسخنهالك شوية يافندم؟

- كويسةكويسة قوي يا عزة.

دقيقة واحدة وكنت سأضطر لدفع عشرة جنيهات إضافية لعزة، حتى لا تشي لمدام أمينة بأني من الزبونات اللاتي يسقطن مغشيا عليهن في الجاكوزي.

في روايتها الأشهر، ذكرت الكاتبة الكبيرة أني من مواليد برج العذراء، لتعطي الإيحاء بأني سريعة الانزعاج، كثيرة القلق وأسعى نحو الكمال بتحفظ قاس، لخدمة أهداف خاصة بالتسلسل الدرامي للشخصية الثانوية/أنا، ولتجعل القارئ يتعاطف معي ويضجر مني في آن معا.

أريد أن أصرخ في روايتي أنا بحقيقتي أنني "عقرب. عقرب". البرج ذو الإرادة الفولاذية، الباحث عن الغموض والأسرار والخفايا وعمق الحياة. وان من مزاياه العديدة، قبول الضعف الإنساني والتفوق في أعمال البوليس والجاسوسية وعلم النفس. لهذا اخترت علم النفس مدخلا لعملي التلصصي هذا.

يومان وستتوالى عليّ معظم الزبونات ومدام أمينة وحتى عزة نفسها، بعد أن أشاعت المعلومة التي سهرتُ ليال طوال لتحويلها من مجرد شائعة إلى شبه حقيقة.

تراكمت على مدار شهرين مجموعة من الكتب التي قرأتها وهضمتها سريعا، حتى صارت جزءا من تكويني: التحليل النفسي لفرويد، تفسير الأحلام لفرويد، التنويم المغناطيسي لميلتون اريكسون، التحليل النفسي لكارل يونج، فضلا عن عشرات كتب التنمية البشرية وكتاب "السر" و"عبودية الكراكيب" و"آدم من المريخ .. حواء من الزهرة". لم أنس ايضا أن أغافل "حنان"، المسئولة عن دفتر المشتركات لأطلّع على تواريخ ميلادهن ومعرفة أبراجهن كمدخل لطيف وسهل لتحليل الشخصية دون معاناة.

وبعد هذا كله قررت تخديرهن كليا أو جزئيا، ليس بواسطة الحقن أو استنشاق غازات الإيثير أو بخ رذاذ تغشية الحواس، بل بابتسامة هادئة ونظرة ثاقبة وصوت هامس يخترق مواضع الألم ويقوم بتسكينه.

لا أنكر أنى حققت إنجازا على صعيد شخصي، فكل من رآني بعد انتهاء الشهرين كان يثني على مظهري، ليس بفضل القراءة، بل بسبب المواظبة على استخدام أجهزة الجري والاوربيتراك والآب جيم ورفع الاثقال، والتعرق واللهاث خلف مدربة الزومبا وتدريبات الـ"كيلر آبز" وحرق الدهون السريع.

على منضدة الكافيتريا، أو فوق خشب الساونا، أو حجر حمام البخار، أو مع دغدغة دوامات الجاكوزي، كانت تتم الاعترافات، التي تحولت إلى رزم من الأوراق الممتلئة بمكنونات ومشاعر فاضت عن صدور صاحباتها.

كانت الكاتبة الكبيرة تخصص مجموعة من "كروت البحث" لكل شخصية روائية.

سرتُ على الدرب نفسه، بلا أي إبداع او ابتكار، فتحولت عزة ومدام أمنية والدكتورة نهلة ومدام أميرة وهدى وصلاح وابراهيم وغيرهم، إلى حفنة من الكروت المجمّعة بأستك، أو دبوس رسم، أو توكة شعر قديمة. لم يكن يقاطع الاسترسال في الحكي سوى مكالمة يرتفع فيها صوت مدام أمينة، وهي تنهر صلاح شقيق هدى، أو حين صرخت عاملات المدخل، فأجرت إحدى الزبونات مكالمة عاجلة لزوجها ضابط الشرطة، حتى يرسل قوة تبعد إبراهيم، شقيق هدى الأصغر، الذي هدد باقتحام المكان وكسر الزجاج الأمامي للجيمنازيوم، أثناء الاختفاء الأول والثاني لهدى.

سويسرا

"تنام عيناي ولا ينام قلبي"

حديث شريف

الغرباء الخمسة الذين سيؤنسون وحدتي في هذا القصر الفسيح لم يأت منهم سواي و"نيل"، القاص البريطاني.

تأجيلات بالجملة لرحلات طيران وظروف ثقافية وعائلية. حتى "نيل" لم أره. فقد وصل بعد تناولي لعشاء رسمي مع ناتالي مديرة القصر وزوجها وابنها.

دخلت الى غرفتي فور انتهاء ناتالي من إعطائي إرشادات وضع الأطباق والكؤوس في غسالة الأطباق، ولم يصل إلى مسامعي سوى تقلب المياه في الغسالة من الدور الأسفل، وخطوات "نيل" وبعض تعليقاته بلكنة بريطانية على تعليمات ناتالي بلكنتها السويسرية المتكسرة، وهي تخبره بأن هناك نزيلة مصرية بالغرفة المجاورة، ليسود بعدها صمت كثيف يدعو إلى تمرين على الكتابة:

"والليل إذا عسعس، في قلعة أعلى جبل بمنطقة نائية. غرفتان فقط مسكونتان بالإنس. رجل من الغرب وامرأة من الشرق. المرأة تنصت إلى صوت الرياح وهمسات الجن وأطياف من أمضوا هنا أوقاتا سعيدة أو أليمة، وقضوا نحبهم في نهايات مأساوية.

زواحف الحديقة تصدر أصواتا رتيبة، ترهب ولا تؤنس، وبرد قارس، يلسع ذراعيها في أوائل شهر يونيو.

قبل ثلاثين دقيقة، كان الرجل الوافد من الغرب ينصت للأصوات نفسها، وترجفه درجات الحرارة الخمسة فوق الصفر، إلا أنه لم يكن يفكر سوى في أمر واحد: امرأة الغرفة المجاورة. لابد أنها الآن تخلع ملابسها قطعة قطعة، وتلقى بها بعيدا بأنامل رشيقة. تتأمل في المرآة جسدها الشرقي كثير المنحنيات. تسحب قميصا خفيفا تسدله على نعاس ودلال. تدلف إلى سريرها وتمنحه دفئا أصيلا أتت به من بلادها. تنغز قلبه قشعريرة وتوق إلى مغامرة. يتمنى أن يتدثر بحنان التي في الغرفة المجاورة. يتعلل بأنه ذاهب للسؤال عن غطاء اضافي. وفي اللحظة التي يهم فيها بالتنفيذ، تدق هي بابه. تغمغم بأشياء ويتهامسان بكلمات، تهدأ بعدها أشباح الدار، وتعم السكينة بالقلعة النائية، والدفء بالغرفة التي جمعتهما".

"كتابة شبه حسية، غير مبررة في الليلة الأولى لتعارف أي شخصين".. هذا ما ستقوله الكاتبة الكبيرة عن مدخلي لوصف الحالة، مع أنها تنال شهرتها وتحصد الجوائز عن كتابتها في تمجيد ومغازلة الجسد. ستقول أيضا أنها بعيدة عن الصدق الفني وستكرر نصيحتها: "ليتك بدأت بجملة واحدة حقيقية وكانت الخيالات ستتدفق معك على الورق".

بي رغبة قديمة في أن أضع يديّ على أذني لأحجب صوتها، وأغمض عينيّ لأخفي صورتها ثم أفتحهما في مرآتي لأراني أنا، على الرغم أنى في قرارة نفسي كنت أود لو رأيتني على هيئتها، ولي صوتها نفسه، وبحوزتي حُلي وملابس وأناس يتدوددون لي مثلها.

هل كان حفل زفافها هو ما قرنَ روحها بأول شريك لحياتها؟ أم أدخلني أنا معها في رباط أبدي؟ مثل راقص صوفي يدور ويخلع تنورة تلو الأخرى ليتحرر من عوائق الجسد، كانت ترمي بحزمة ورودها ثم الذيل الإضافي

لفستانها ثم شال من التل يخفي عري كتفيها، لتدور في حلقة راقصة بين أصدقائها. وأنا الصغيرة ذات السنوات الأربع، يعتريني ذهول من يرى مثل هذا المشهد للمرة الأولى في حياته. لم أعرف ماذا أفعل بجسدي الهزيل سوى أن أدور مثلها. فردت ذراعيّ على الفراغ مثلما تستند بذراعيها على رفقائها. أغمضت عينيها وهي تضحك فأغمضت عيني لكنني ظللت أرى طيفها، وداومت على تقليدها. أخذت أدور وأدور حتى كدت لا أشعر بجسدي. تحولت إلى طير أثيري ذاب في منامها. ومنذ ذلك اليوم وأنا الصغيرة غير المرئية التي تعيش في حلمها وتتلقى إيحاءاتها في ارتياح، بالرغم من يد أمي القوية التي جذبتني من ساحة الرقص المزدحمة حتى لا تفرمني الأقدام.

لأبدأ بجملة حقيقية:

هذا هو المكان الوحيد الذي سأقول فيه اسمي، فيستحسنه الناس، ثم لا يتبعون ابتسامتهم بالسؤال نفسه "هل اسمك "بداية" مثل الكاتبة "بداية الألفي؟".

هنا سأكون نفسي، في حلم خاص بي، تسجله مشاهد ستحدث لي وحدي، مع أناس لا يعرفون الكاتبة الكبيرة، التي سمتني أمي باسمها، لأسباب لا أفتخر بذكرها.

قال حكيم ما، إن الناس يظنون أن الأحلام ليست حقيقية، لأنها ليست مصنوعة من مادة يستطيعون لمسها. الأحلام حقيقية لكنها مكونة من وجهات نظر، لوحات لذكريات ومعانٍ وأمنيات ضائعة. في الحلم تجد نفسك في مكان عجيب لكنك تتجول فيه بمهارة من يسكنه منذ عشرات السنين، وهذا هو ما حدث معي تماما. فلقد تقدمت بخطوات واثقة نحو بهو هذا القصر مثل مجرم محترف، يخطط لجريمته منذ سنوات. القصر من الخارج.. الحديقة..

الصالون.. غرفة الطعام أحفظها عن ظهر قلب، من كثرة ما تفرجت عليها في الموقع الإلكتروني الخاص به، ومن شدة التركيز في كل تفصيله ثقلت جفوني وارتخت أطرافي لأدخل في نوبة نعاس طويلة امتدت شهرا إلا يومين.

لست بحاجة لمهارة إبداعية لكي أستفيض في وصف المكان. من الأفضل أن أقول كلمة او اثنتين، لأترك لخيال كل قارئ إطلاق عنانه الخاص ليرى ما رأيت. فيكفي أن نقول: "قصر فاخر". يمكن أيضا أن نقول "بلاط ملكي" لوصف رخام الدهليز، الذي تتفرع منه الغرفات والمؤدي إلى الدور العلوي حيث حجرات النوم.

الأحلام لا رائحة لها.. وكذلك هذا البيت القصر. أنا ساكنة النيل، عاشقة نسيم العصاري ورائحة شواء الذرة، ونكهة لسعة سكر البطاطا، الممتزجة بيود بحر اسكندرية، ورائحة الطحالب الراقدة منذ قرون على صخوره، والأمكنة التاريخية بعبق رطوبتها والشاي بنكهة النعناع الأخضرالطازجة، سأضطر أن أترك روحي هاهنا تستجدي أية رائحة لتلهمني، وأعود للكاتبة الكبيرة وقرائها وناشرها برواية كاملة، تحكي عن نساء لاهثات جريا أو خوفا أو رغبة داخل جدران جيمنازيوم، بينما أتسلى بتسجيل يوميات في عالم غير حقيقي، ستربطني بمن عاشوا فيه قوى خفية وتحركني مثل عروس منذورة لحلم.. بلا رائحة!

على باب غرفتي اسم "نابوكوف". فلاديمير نابوكوف، الكاتب الروسي الشهير، والصديق المقرب لـ"هانز شميت"، المالك الأصلي لهذا القصر. من كانت غرفتي حجرته المفضلة، وقت أن اتخذ المكان إقامة صيفية، يستضيف إليها رفاقه من النخب الأدبية وحازي نوبل.

بدأ السحر منذ أعوام حين كنت أرى روايته الأشهر "لوليتا" تتصدر مكتبة الكاتبة الكبيرة. ثم كنت ألمح رواية إيرانية مترجمة في وضعيات مختلفة بغرفة معيشتها، عنوانها "أن تقرأ لوليتا في طهران". كنت أحدق في غلافها كثيرا، دون أن أمد يدي وأرى ما فيها.

في "لوليتا" الأصلية، كان البطل رجلا يستأجر غرفة في بيت امرأة ويخطط لقتلها، ليستحوذ على ابنتها التي يشتهيها لعقدة ما في نفسه. ياللتشابه بيني وبينه!!

باب غرفتي يفضي إلى زهور وردية منقوشة على مفارش السريرين، والكراسي الفوتيل وورق الحائط والأباجورات. المدفأة العتيقة عليها أصيص زهور مقلدة، والمكتب يطل على النافذة المنفتحة على حقول الكروم وجبال وبحيرة جنيف المغبشة بالضباب.

غرفة تجولت بخيالي في نسخة طبقة الأصل منها، مع حكاية زبونة بالجيمنازيوم تدعى "مدام أميرة"، عن حياتها الأولى في الغرفة الكبيرة ببنسيون "مدام ميشيل" في الاسكندرية.

ما يفزعني هي تلك التماثيل للاثنين وعشرين كلبا، الذين يحدقون في وجهي، من فترينة ضخمة تؤدي إلى الحمّام المرفق بالغرفة. الدُّمى المخيفة ليست إلا أناسا فاسدين حلت عليهم اللعنة، فسجنوا بداخل العرائس ليكفروا عن جرائم ارتكبوها في حق ملاك البيوت، من هم في الأصل سحرة أشرار. هكذا تقول أفلام الرعب، وأثرت على الكاتبة الكبيرة في أول ليلة حب لها مع ثالث أزواجها، حين اصطحبها إلى فندق ملئ بالدمى في كوبنهاجن، ودوّنتها كإحدى لياليها التي لن تنسى في روايتها قبل الأخيرة. الكلاب المحدقة فيَّ، تأخذني لعوالم أزواجها الذين اجتمعوا على عشق الكلاب بأنواعها.

حبها الأول نفسه، الذي لم تتزوج منه، وقررت أن تقضي معه ما تبقى من عمرها الآن، ما كان ليقدم على التخلي عن حريته، إلا بعدما فقد كلبه الأثير في حادث أليم.

اقتربت جدا من فترينة الكلاب. كدت ألتصق بها وأنا أحدق فيها. همست لهم: "انت مجرد دمى مسكينة. قطع خزفية قابلة للكسر. كنا نمتلك مثلك في زمن مضى وتخلصنا منك حين تفتت حوافرك من كثرة السقوط. أعطيت الكلاب ظهري في شجاعة زائفة وأمسكت بهاتفي المحمول لأبعث رسالة للكاتبة الكبيرة، أبلغها فيها أنني تجاوزت إحدى مخاوفها، وانني لم أعد تلك الطفلة التي كتبت عنها قصة قصيرة في زمن بعيد أنها حصلت على عروس دون أن تتبين ملامحها، وأفسحت لها مكانا في فراشها، وحين فتحت عينيها عليها في الصباح، إكتشفت أنها بلا ذراع.

ولما كانت إشارات الشحن بداخل الهاتف تودع الحياة، دسست يدي بثقة داخل الجيب المخصص للشاحن في حقيبتي، لأمد الهاتف بالروح، فلم أجده. فتحت الحقيبة الأصغر، ونبشت كل جيوبها. فتحت الدولاب والأدراج لعلي رميته سهوا وأنا أرصّص ملابسي، لكن عبثا. هكذا فأنا نسيت الشاحن، الذي سأكتشف أن لا شبيه له بهذا المكان النائي، لتنقطع صلتي بدنياي الأرضية، وليصير حلمي هو عالمي.

رأيت فيما ترى النائمة ساقي وذراعي يتغطيان بشعر كثيف، مثل أدغال سوداء على هيئة بلد مستطيل على خريطة. يقال "*حلم بلا تفسير يشبه كتابا بلا قارئ*" . فسعيت إلى التفسير الذي يقول إنك إذا حلمت أن يديك مغطيتان بالشعر كأيدي الوحوش، فإن هذا يعني أنك ستتآمر ضد أناس أبرياء، وسوف تكتشف أن لديك أعداء متيقظين يعملون لإبطال مخططاتك.

إن بدأت الروائح في التسلل إلى أنفك، فاعلم أنك في طريقك إلى خارج الحلم. أهل البلد الشعبيين يمررون بصلة أو قطعة قماش مغموسة في النشادر تحت أنف من يفقد الوعي فجأة.

مزيج تشكيلة مختلفة من أصناف الكافيين المتحول إلى إسبرسو ونسكافيه وقهوة أمريكية، والذي يغذي حاستي الشمّية وأنا ممددة في فراشي، يشي بأنني على وشك الإفاقة الصباحية في بلد غريب، فرائحة القهوة التركية/المصرية، ليست في التوليفة التي يأتيني أريجها من الدور الأسفل. وأن يناديك أحدهم باسمك، فتشدك تلك الكلمة السحرية إلى عالم اليقظة، فلا شك أن النوم لم يسحبك إلى عالم الأموات بعد.

"بيضاية بيضاية" !! صوت ناتالي يناديني بلكنتها التي تفخّم حرف ال دال في اسمي، يأتيني من عالمها خارج باب الغرفة بينما مازلت على حافة الحلم.

"لقد وصلت "كاترينا جورسكي" الكاتبة البولندية.. *"اليهودية"*.. وننتظرك في المطبخ لنحتسي القهوة معك ومع "نيل".

سيشهد المطبخ لقاء وديا بعد دقائق مع أعداء تاريخين.. المحتل الانجليزي والمغتصب الاسرائيلي. هدنة مكونة من قهوة وخبز وجبن سويسري وحديث لطف مفتعل. لم يكن "المطبخ" في الحسبان. فلم تظهر صورته في أي من المواقع الإلكترونية. ربما لأنه يشبه أي مطبخ عادي، إلا أنه أوسع قليلا ويشع بضوء نهاري وطلاء أبيض يفتح الشهية على ترك فخامة الخارج، والتسكع بداخله في مشاوير صغيرة بين الثلاجة العامرة بمنتجات البقالة، والملحق الضيق الذي يحتوي أرغفة الباجيت الفرنسي وأنواع لمخبوزات شتّى، بالاضافة

إلى عشرات الأطقم الفضية وألواح الشوكولاتة السويسرية، المطعّمة بالبندق أو الزبيب، أو الرقائق الداكنة ذات المذاق المر.

لو رأت أمي هذا المطبخ لتخلت عنا أنا وإخوتي وقررت أن تُمضي ما تبقى من حياتها به.

في ليلتي السابقة قررت أن أغوص في عالم نابوكوف، فمقدر لي أن أسير فوق آثار قدميه وأن أريح جسدي حيث شاهد أجمل احلامه.

كلماته التي نامت إلى جواري كانت عن الكتابة والأدب: "أن نسمي قصة "قصة واقعية" هو شتم للفن وللحقيقة في الآن ذاته، وكل كاتب كبير إنما هو مشعوذ، وكذلك هي الطبيعة المخادعة. تمتلك الطبيعة أروع جهاز للسحر والشعوذة، ولا يفعل المؤلف شيئا، سوى اتباع السبيل الذي سطرته الطبيعة. ولنعد قليلا إلى قصة الطفل الشهيرة وهو يصرخ: "أغيثوني.. أدركوني.. الذئب.. الذئب"، ويمكننا تلخيص الموقف كالتالي: لقد كان سحر الفن في شبح الذئب الذي اختلقه، في حلمه بالذئب، وبعدها كانت القصة الجيدة في الأكاذيب التي روجها.

ذئابي أو أشباحي التي اخترعها خيالي، في انتظاري بالمطبخ.. فلا "نيل" بالشخص المحتل، ولا "كاترينا" من اسرائيل.

نزلت إلى المطبخ وأنا عازمة على ممارسة سحري الأبيض.

أقل ما يقال في "نيل" وصفه بأنه رجل عادي، فلن يلفت إليه أحدا لو مشى في شوارع القاهرة، مثلا.

فلا شعره أشقر طويل، ولا عيونه زرقاء ولا هو ذو كتفين عريضين. مجرد شخص عادي قد ينتمي إلى أية جنسية.. مصري؛ لبناني؛ سوري؛ لم لا إسباني،

لا يحتاج كثيرا لتعويذاتي الطيبة، فهو مسحور أصلا ببحثه الذي يقوم به عن "فلوبير" وافتتانه بمصر.

"كاترينا" تجاوزت الخمسين، لكن لاختصار الوصف، وبلغة الشارع التي لا تليق براوية ترغب في أن تضع أولى خطواتها في عالم الأدب والمجاز، يمكننا استخدام التعبير السوقي ونقول بأنها "مُزة"، ولنغير هذا الوصف بآخر أكثر أناقة وشاعرية، بعد مراجعة المسودة الأولى.

تبدو "كاترينا" وكأنها ثملة قليلا، أو غير متزنة من مجهود السفر. حين قدمتني "ناتالي" لها، بدا لي انها اضطربت بعض الشئ حين سمعت كلمة "كاتبة من مصر"، أو هكذا قرر خيالي. لا أريد صدامات هنا، كي أتفرغ لترتيب شخصيات الجيمنازيوم. لابد أن أكثف طقوس السحر الأبيض معها. سأمنحها هدية تذيب الجليد. ترددت هل أقدمها لها بعد تناول إفطارنا أم فيما بعد. فلنطرق الحديد وهو ساخن. المشكلة أن معظم التذكارات التي جئت بها فرعونية وقد تستفزها، لكن الأمر يستحق المجازفة.

قررت إيثار السلامة وأهديتها شالا عليه حروف عربية هللت به فرحا.

لا تغترّي بنصر سريع يا "بداية"، فلو انكشف أمرك نهايتك محتومة. فالتلمود عندهم يقول: "*لا تدع ساحرة تعيش*".

أثناء احتضاني لفنجان القهوة كنت أخفي أطراف أصابعي، لأن أظافري تخلو من الطلاء الزاهي، كالذي ألمحه يلمع على أظافرها عن بعد.

عزمت على شراء طلاء أظافر من أقرب صيدلية أو سوبر ماركت. مشيت وحدي إلى الغرفة الزجاجية المطلة على الحديقة.

أرى البيت مكانا آمنا للكتابة، مثل بيوت "حماية الشهود" التي نشاهدها في الأفلام الأجنبية.

وبالرغم من كل الاحتياطات، عادة ما يتوصل المجرم إلى معرفة مكان المختبئين حيث تبدأ الإثارة. لا أشعر بذلك الفراغ الرائق الذي يبهج الروح ويجعلها في حالة كتابة.

وسائل التواصل الإلكترونية على اللابتوب تشدني نفسيا إلى بلدي، حيث هربت من أشباحي الحقيقية والافتراضية.

نعيش مرحلة يناقش فيها مصير فن الباليه ويتوصل بعضهم إلى أنه حرام شرعا. علقت إحدى صديقات الفيسبوك على سخريتي من الأمر، بأن راقصة الباليه ليست فراشة طائرة تشكل جمالا حركيا كما أقول، ولا يهمها أنني كلما شاهدت تكويناً من البجعات الآدميات قلت: "الله". ضغطتُ على مربع إنهاء الصداقة الافتراضية، حين كتبت هي أن راقصة الباليه ليست إلا إمرأة تظهر عوراتها، والتصفيق على فسادها يأخذنا بعيداعن الطريق الحق.

ماجدوى أن أبذل جهدا نفسيا وأتكبد آلاما في العنق والذراعين وأنقطع عن العالم وأتهم بالتعالي مثل الكاتبة الكبيرة، لمجرد أن أكتب رواية قد تعتبر بعد أسابيع معدودة كمن يكتب "لوليتا في طهران"؟

مرّ كلب أسود غريب أمامي في الحديقة. شعرتُ أن الكلب الشارد في حديقتنا لم يكن سوى رمز في حلم. فالكلب الأسود حين يمر بمنامك، فإنه طيف لصديق. كما يبشرك بأنك سترى الجانب المظلم في حياة شخص قريب. ستتخلل حياته ويكشف لك عن نواياه، وقد يكون مجرد روح لأحد الكلاب الخزفية المنحبسة بفترينة في غرفتي، وتراقبني من خلف الزجاج أثناء نومي.

ظهرت "كاترينا" بعد ساعة تقريبا وهي تنوي التجول في البلدة لالتقاط بعض الصور. سألتني إن كنت أعرف مكان صيدلية لأنها تريد شراء مزيل لطلاء الأظافر الذي بدأ يتقشّر وتخجل من منظره. تذكرتُ "مدام أميرة" زبونة الجيمنازيوم التي كنت أعشق لون طلاء أظافرها، وكنت أبحث عن درجته النادرة في كل مكان، إلى أن صارحتني ذات يوم أنها من فرط محبتها لي، صارت تقص أظافرها وتتركها بلا طلاء مثلي.

في السادسة مساء تحوّل المشهد إلى تابلوه، أو عمل فني مركب من صورة وصوت. الأخضر الزيتوني والفستقي والزرعي، يتداخلون كتلال متعانقة وتنحدر نحو زرقة البحيرة، المظللة بسحابات معلقة بين الأبيض والرمادي. والعصافير تقيم حفلا اوركستراليا يمتلئ بالنغمات، وصيحات الاستحسان، وصفافير الغزل، التي بدأت منذ مطلع الصباح، وتزايدت حدتها ساعة بعد أخرى.

أقف أمام دولاب ملابسي حائرة في اختيار الزي شبه الرسمي، المفترض أن أرتديه وفقا لأصول الدار. خلعت القرط الذهبي وتركته في الغرفة خشية أن أبدو مبهرجة. نزلت إلى غرفة الطعام لأجد الجميع قد سبقوني. "كاترينا" ترتدي بلوزة مطرزة بالترتر الفضي وتضع على كتفيها الشال ذي الحروف العربية الذي أهديته لها صباحا. وأتت "ناتالي" مديرة الدار بزوجها، لتعرفه على "نيل" و"كاترينا".

ظهرت امرأة ستينية بشعر كستنائي مرتّب ورداء كلاسيكي أزرق داكن، يزينه عقد من فصوص المرجان الأصلية الضخمة. حسبتها إحدى الكاتبات القائمات على اختيار نزلاء القصر. تمنيت أن لم أكن تركت قرطي بالغرفة، وجاء صوتها فجأة: تفضلوا.. العشاء جاهز.. بون آبيتي.. ووضعت لنا

السرفيس الفاتح للشهية في تأدب وانصرفت مؤقتا، حتى ننتهي منه، ثم تعود لتلم الأطباق وتجئ بالطبق الرئيسى ثم أطباق التحلية.

انصرفت ناتالي وزوجها، وتركا ثلاثتنا أنا وكاترينا و"نيل" في حوار طويل للمرة الأولى.

كلمات "كاترينا" تدور في مجالها الشخصي، ندوتها التي ستعقد بعد يومين في جنيف، وجولاتها الإبداعية التي ستقوم بها مدة أربعة أيام في ألمانيا، وكتاباتها التي تجلب لها المتاعب، ومع كل موضوع جديد يتناوب كفّاها على تحسس شعرها أو ذراعيها أو فخذيها أثناء الكلام.

امتصت "نيل" فكرة أخذته تماما، ثم نطق فجأة كأنما يستكمل حوارا بدأه مع نفسه: "أظن أن زوج ناتالي لا يعيش معها. أراهن أنهما منفصلان، فقد جاء لاستقبالنا للحفاظ على المظاهر، ليس إلا. ألم تريا كيف لم يوجه أحدهما الكلام للآخر؟". بقدر الجدية التي ناقش بها "نيل" الأمر، بقدر ما وجدت الأمر طريفا. أن تجد كاتبا انجليزيا جادا، يتمتع بروح نميمة عالية، وبهذا الإخلاص للوهم الذي نبت في رأسه، فلابد أنه سيمثل صحبة مسلية في أوقات الراحة.

اختلفنا على أمر ناتالي، وتركنا أجابته للأيام القادمة.

ما اجتمعنا عليه هو حكايات رواها كل منا، تدل على الضجر من المدن الكبرى وصخبها الذي صار متشابها حد المسخ، وإن كانت كل مدينة تخصنا تبعد عن الأخرى بعشرات الآلاف من الأميال.

تمنت لنا الطاهية الأنيقة تحلية شهية مع قطع الجاتوه، ورجتنا أن نأخذ وقتنا ثم نعتني بوضع أطباقنا في الغسالة بالمطبخ. قالت "تصبحون على خير" بفرنسية رقيقة وابتسامة عريضة وانصرفت.

"كاترينا" بحوزتها تليفون محمول وشاحن يبثه الحياة، لكنها تسكّره طوال الوقت، لتقطع صلتها بضجيج العالم أثناء رحلات الكتابة. لست الوحيدة التي تعيش حياة بدائية منبتة الصلة بكل من عرفتهم لإصابة محمولي بالسكتة. يرى "نيل" أن إنفاق الأموال على المحادثات سفهٌ لايمارسه. يرن هاتفه بعد العشاء وينخرط في حوار مرئي على سكايب، يدور فيه بهاتفه مصوّبا كاميرته على كل ركن في البيت. وحين يصل إلى المبتدأ والنهاية.. المطبخ، يكون قد صار لنا مرة أخرى.. رجل المرأتين.

سنضع أطباقنا المتسخة في الغسالة، إلا أن كاترينا و"نيل" قالا أنهما يفضلان استعمال الإسفنجة والسائل المركز الموضوع على الحوض، فوجدتني أنا التي كانت تخشى مواجهة حضارية مع غسالة الأطباق، أشرح لهما مدى سهولتها التي بسطتها لي ملاكي الحارس "ناتالي". خطر لي سؤال: تُرى هل يعلق بقلب أو عقل ناتالي أي من النزلاء الذين يتبدلون على هذا المكان، أم إنها مثل المرشد السياحي الذي يركز حسه وبصره على الأثر الذي يقوم على رعايته وشرحه فقط؟

إلى غرفتي/ غرفة نابوكوف والكثير من العابرين صعدت وأوصدت بابي. تعجبت من حديث مدام أميرة، الأقرب إلى قلبي من صاحبات الاعترافات بالجيمنزيوم، والتي ضاقت بحياة الفنادق. قارنتها بي أنا الهاربة من إعلام لا يخبر، وشرطة لا تنجد، وشعب نصفه كشف عن عوراته، وأصيب نصفه الثاني بهوس الحرية، لأجد الملاذ في غرفة للإقامة المؤقتة، لمبدعين يجدون في حجرات

الفنادق إلهاما وسكينة. وحين يبعثرون أشياءهم في فوضى ويبقون الأنوار مضاءة ليلا، يهمس الواحد منه لنفسه مثلما أفعل الآن: "أنا ملك لنفسي، وسأتحكم في أمري".

أثناء حوارنا الثلاثي على مائدة العشاء، وبينما كانت "كاترينا" منشغلة بطلب النبيذ الأبيض لنفسها من الطاهية، قال لي "نيل" وكأنه صاعدا توا من عالم خفي تثرثر فيه كائنات غير مرئية: "*سنتمشى غدا إلى البحيرة وسآخذك رهينة في وقت ما، لأعرف منك ما يحدث في بلدك*".

تركت نور الأباجورة مضاءً، وغطيت رأسي بالبطانية والملاءة المزركشة. أعطيت ظهري لتماثيل الكلاب الخزفية ودسست روحي داخل حلم جديد، مكون من كلمات أظنني سمعتها في عالم اليقظة.

"سآخذك.. رهينة.. في.. وقت ما.. ل.. أعرف...."

القاهرة

"الدكتورة نهلة"

"بسم اللّه العظيم الأعظم يبطل كل سحر لتعطيل العقول"

أجب يا عفريت الرياض ويا مليج ويا برفان ويا زوبعة وتوكلوا بإبطال عمل كل جن يوسوس لـ"بهية بنت جليلة" ويسهيها عن صلاتها ويوقف حالها ويصد العرسان عن بابها.. بحق هيهات هيهات آلات آنات. العجل العجل الساعة الساعة".

تفوت تلك الكلمات مثل وميض يختفي ثم يظهر في لحظات خاطفة على عقل الدكتورة نهلة، بالصوت الأجشّ لدادة أم الخير، آخر جيل الخدم الأحباش في بيت العائلة الكبير، منذ مايزيد على أربعة عقود. للحروف رائحة بخور تفاح الجان وخيوط رمادية تتراقص أمام جدة نهلة، خالة أبيها.

"بهية بنت جليلة"، عاشت وشاخت دون أن يلمسها رجل من الإنس، لأنها عشقت جسدها في مرآة الحمّام، ففُتن بها جنٌّ لهاها عن صلاتها وأزاغ نظراتها، وخاصمت كلام البشر أربعين يوما بليله، ثم وُجدت ملقاة على ظهرها، فوق بقعة من الدماء الساخنة، بعد أن ألقت بنفسها من شرفة الدار الكبيرة بالعزبة.

حكايات نساء الجيمنازيوم تُروى مثل كوابيس قصيرة، على ألسنة ناس يسيرون أثناء النوم. مشيهم ركض سريع على جهاز التريدميل، أو تبديل بطيء على العجلة الثابتة.

يقال إن الأحلام ليست إلا أفكارا لم يتوفر لدينا الوقت لتأملها أثناء اليقظة. وجدول الدكتورة نهلة النهاري مكدس بمحاضراتها، ونزاعاتها على الترقية في الجامعة، واقتسامها عبوة البوتوكس مع الدكتورة شيرين صديقتها عند طبيب التجميل، والاتصال بمُعدِّي البرامج الشهيرة، وتقديم الخدمات لأبنائهم المتعثرين في الجامعات الخاصة التي تدرس بها، وإرسال باقات الورود والمبالغ النقدية للقائمين على صفحات المرأة والسياسة والرياضة في الصحف الرسمية، الذين صاروا يراوغون في نشر مقالاتاها بانتظام منذ قيام ثورة يناير.

لذا لم يتوفر لديها أيّ وقت لتأمل أفكارها، إلا حين مكالماتها مع أصدقاء الطفولة والأهل في آخر النهار، هؤلاء الذين بدؤوا في التناقص بدورهم، بفعل الضجر من تكرار الحوارات والشكاوى ذاتها.

ثم يحل الليل الذي تقضيه نهلة مفتوحة العينين في تحليل نظرة هذا، وفك شفرة كلمة قالها ذاك، من بين عشرات البشر الذين مروا بيومها، ثم تعاود قراءة رسائل الغزل القديمة التي تحتفظ بها على هاتفها المحمول، إلى أن تصيح الديوك، وتغيب الدكتورة نهلة في نوم قصير، يحملها إلى نهار صاخب بعينين زائغتين وجمل مشوّشة، تقولها بصوت ناعس وابتسامة مرسومة، تحرص على ألا تفارقها، وفقا لتقاليد العائلة.

أما دادة أمّ الخير التي كانت تُوكل اليها المهام العائلية شديدة الخصوصية أيام الجدة، فقد حل محلها الآن خادمات أخريات، مثل سعدية أو نبيهة أو إمتثال أو وردة، وبناتهن، اللاتي سمّينهنّ على أسماء الدكتورة نهلة وأخواتها البنات.

كانت أمي تقول لي إن المرأة التي تجيد التزين وتُنمِّق الكلام، ويقال لها ياهانم، ومع ذلك تتسامر مع خادمتها، من المؤكد أنها من بيت عز، أما من

يخاطبن الخدم من طرف الأنف ويناديهن بالألفاظ، أولئك النساء كن خادمات في بيوت أهاليهن المتواضعة.

"حين يشيخ الرجال، يعشقون قول الكلام المبتذل الذي لا يجيدون سواه. دعيه يتكلم طالما كلامه يطربك، ولا تمسحي رسائله". تلك كانت نصيحة "إمتثال" الشغالة للدكتورة نهلة، حين تناولا إفطارهما سويا بالمطبخ، لتقرأ الدكتورة نهلة على إمتثال رسائل المحمول التي يرسلها لها "الراجل المهم اللي كان بيطلع كتير ف التليفزيون". كان رأي والدة الدكتورة نهلة من رأي إمتثال الشغالة أيضا، والذي طرحته بسلاسة أمام "باهر" حفيدها، ابن الدكتورة نهلة. فقد هجر باهر البيت إلى منزل جدته، حين استعار هاتف والدته، وشعر برغبة ملحة في تفتيش الرسائل الواردة، فوجد عشرات الكلمات الملتهبة التي تتلقاها أمه بعد منتصف كل ليلة، فكان رد جدته: "عادي.. جنان رجالة.. وانت شفتها ردت عليه؟".

"ديباكين" هو إسم دواء ربما اشترته الدكتورة نهلة لباهر ابنها من الصيدلية نفسها التي اشترته منها "هدى" عاملة البيديكير قبل اختفائها الثالث، واقترضت مني ثمنه. أما الدكتورة نهلة، فقد اكتفت بأن ذكرت لي اسمه على الهاتف، بعد أن وصفه الطبيب النفسي الذي يتردد عليه "باهر". لم أفهم سر معاناة باهر إلا بعد أن بدأت الدكتورة نهلة حوارها بـ"وحياتك إوعي تقول لحدّ ف الجيمنازيوم إن باهر عنده اضطراب في المزاج وصرع خفيف". لولا أن الهاتف كان وسيلة اتصالنا، لفتحت نهلة حقيبتها وناولتني عشرين جنيها، وهي تتوسل إليّ، مثلما فعلت مع عزة يوم أنخرت نائمة في الجاكوزي. وكعادتها، سوف تستحلفني الدكتورة نهلة ألا أقول للضيوف أنها حصلت على الدكتوراة في عشر سنوات، وهي تطمئن على زينة الأطباق وترتيب المقاعد بنادي التجديف، في حفل العشاء الذي دعت إليه مجموعة غير متناغمة من معارفها،

من كل بؤرة أكاديمية أو اجتماعية هبطت عليها، كمحاولة يائسة لاسترجاع وهج انطفأ مع ضجيج الأحداث الأخيرة.

نفذ كل التفاح الأخضر بكافيتيريا الجيمنازيوم، يوم أن اشترته نهلة ووزعته على الزبونات بمناسبة تخرّج باهر، وهمست لي ألا أخبر أيا منهن أن باهر كان "بطيء التعلم ولولا إهدار ماء وجهها في مكاتب زملائها، ماشهدت مثل هذا اليوم أبدا".

أطيل النظر إلى فمها وهي تهمس متوسلة وكأنني أشاهد ريشة تُغمَسُ في قنينة حبر لتخُط حروفا مبعثرة، تكوّن رواية كوميديا سوداء فوق سطور في الهواء. فما الكتابة حسب القول المأثور إلا وسيلة كلام دون أن يقاطعك أحد، يُنصح بأن تظل مخمورا أثنائها حتى لا يدمرك الواقع. نهلة لا تحتاجني أن أخرجها من حالة الثمالة التي تلفها. تحتاجني فقط لأقوم بدور قسّ اعتراف، ولأدعها تبعثر أسرارها على صدري، حتى تفيق من نوماتها التي تبدو كاليقظة ولكنها ليست بيقظة.

الدكتورة نهلة تسير في حلمها إلى الخلف. تقبض على مجدافيها بيدين عفيتين، وتضرب الماء بقوة فيسير القارب عكس اتجاه وجهها، وتصل إلى نقطة النهاية، التي تكون بداية الفوز والتصفيق وحصد الجوائز.

نهلة ذات السنوات الخمس، مرورا بسنوات مراهقة صاخبة هي من تسكن قلب الدكتورة نهلة الآن. "نهلة القاضي.. حاصلة على بطولة مصر في التجديف لثلاثة أعوام على التوالي، وبطلة المسرحيات المدرسية والجامعية"، ميزات ودت لو تضيفها إلى ألقابها، التي كانت تعرفها بها مقدمات البرامج والندوات الخاصة، بعد لقبيها كأستاذة جامعية وعضوة لجنة مراجعة القوانين بالحزب الوطني الديمقراطي.

لمسايرة الدكتورة نهلة حتى وإن كان عن طريق هز الرأس صمتا، تصفحت بعض المعلومات عن رياضة التجديف، لأجد نهلة بشحمها ودمها تنظر لي من بين سطور المرجع: "إن الكلمة الفرنسية "أماتور" أو هاو، مشتقة من الكلمة اللاتينية "أماتورام" يعني "العاشق"، وقد استخدمت في نهاية القرن الثامن عشر للدلالة على شخص لديه علاقة بالفن أو أي شئ آخر ولكن دون توقع أي منفعة اقتصادية. وقد استخدمت منذ ذلك الحين في لعبة التجديف. الهاوى هو شخص يجدف، ولكنه لايعمل في عرض البحر". وكذلك العاشق. ونهلة تجدف الآن بلا بحر، لأنها تعاني من خوف مرضي أن تُسحق في الأماكن الضيقة، وأن تحبس في الأماكن الواسعة التي لاتعرف مخارجها، كما تخشى الشيخوخة، وانطفاء الأضواء وتصفيق الحاضرين.. وضحكاتهم.

"نهلة.. لا تلمعين إلا وانت تحت أضواء مسرح المدرسة، ترُجين الخشبة ومقاعد الجمهور. تشكلين ملامحك على هيئة وجوه مدرسيك وزميلاتك، تقلدينهم في تلقائية، فيصرخ ضحاياك انبهارا وقهقهة. حينئذ تتتفتحين وتزدهرين كالوردة، حتى يكاد يهيمن شذاك على المكان. ثم يخفت قليلا ويخبو وهجك حين تغادرين القمة وتختلطين بالبشر المتشابهين على الأرض، إلى أن يحلّ موعد العرض التالي.. حفل المدرسة الثانوي أو حفل المواهب أو توزيع الجوائز. احرصي على ألا يغادر الجمهور أبدا، لأنك بغيابه سوف تذبلين وتموتين". الدكتورة نهلة ذات الأحبال الصوتية العريضة أصلا، تنفخ رقبتها وتتحدث بصوت أكثر رخامة وترفع أنفها وهي تقول العبارة السابقة بصياغة أخرى لتقلد والدتها "لا لا لا.. انتي مالكيش أي قيمة إلا وانتي ع المسرح. انتي ف العادي كدة دادة إمتثال أظرف منك بكتير!".

الحكايات التي تقصها عليّ نهلة هي مرايا ليس فقط لوالدتها وجدتها المنتحرة والخادمات، وحدهن. والدها في الصورة أيضا، وصديقتها شيرين،

ومدام أميرة، ورجال الدولة ونساء الصفوة. صحيفة صفراء مسموعة بصوتها الذي تبدله وفقا لنبرات الشخصية التي تحكي عنها وتقلدها. يوخزون جميعا إبرا صغيرة في جسدها، مثل العروس الورقية التي يعذبونها قبل أن تُحرق، وتصير رمادا ثم دخانا في الهواء. أما الأوراق الصفراء التي تفردها أمامي فلم تكن سوى تقارير طبية، أو صور سهرات لمجموعات متكررة من البشر يدمنون على دوائر الضوء، ورسائل على المحمول من رجال ذوي صيت، بعضها حمّال أوجه، والبعض الآخر يعلن عن رغبة في أوضاع حسية صريحة.

الوسواس القهري يخص والدها، و"الكلوستروفوبيا"، أي الخوف المرضي من الأماكن الضيقة يخص نهلة نفسها، وهو السبب في وجودها بالجيمنازيوم.. "الأجورافوبيا" أيضا احدى متاعبها، وهي الرعب من الأماكن التي لاتعرف مخارجها.

تربكني كمية الخيبات التي تحملها نهلة. لابد أنها ستطلب مني أن أخرج من مرحلة الاستماع الصامت في وقت ما، وأن ألعب معها الدور الذي أوهمتُ الجميع انه حقيقتي كمستشارة نفسية.

طبيب نهلة هو من نصحها بارتياد الجيمنازيوم. فشفاؤها سيكون في أن تربط نشاطا محببا بمكان مغلق؛ عندئذ يطغى الحب ويتلاشى الخوف مع الوقت.

في الدقائق التي صعدت فيها الدكتورة نهلة إلى البيوتي سنتر لتنظف البشرة وتصقل الجسد، حتى يصير أملس كما يليق بالمجتمع المخملي الذي يشدها إلى أحلام مبهجة ناعمة، اقتربت مني مدام أميرة، وشكرتني إذ أرحتها من الصداع الذي كانت تسببه لها نهلة.

في أيام المجد الحزبي والإعلامي، كانت مدام أميرة تتلقى مكالمات من نهلة في أي وقت أثناء النهار أو بعد منتصف الليل. كانت تساؤلات أكثر منها حوارات،

تبدؤها نهلة دائما بجملة واحدة توجهها لأميرة صديقتها: "هسألك في حاجة ع السريع كدة" ثم تطرح الأسئلة المطولة نفسها: "فيه حفلة ف فيللا واحدة صاحبة شيرين فـ"عرابي" كلها ستات شيك ووزرا، وفيه حفلة تانية ف نادي السيارات ف نفس الوقت.. تفتكري أروح أنهي واحدة؟ "ترد مدام أميرة: "اقعدي مع جوزك وولادك". تقرر نهلة أن تحضر نصف ساعة في نادي السيارات ثم تذهب إلى حفلة منطقة "عرابي" البعيدة، وفي الطريق المظلم لا يستدل السائق على العنوان. تشعر أن الشوارع تتحول إلى ثعابين ضخمة ستلتف حول جسدها أو تماسيح جائعة ستلتهمها. تتمكن منها أعراض الأجورافوبيا والكلوستروفوبيا معا. تتصل بطبيبها فلا يرد عليها، فتدق رقم "أميرة" صديقتها. تخبرها أن العرق يكاد يُغرقها ويبلل خصلتها المنسدلة من تحت حجابها. ضربات قلبها ترجّ السيارة التي تشعر أن أبوابها قضبان زنزانة. وفي اللحظة التي تظن أنها ستُفرغ ما في جوفها ثم تسقط مغشيا عليها، يكون السائق قد سأل عدة حراس في المنطقة ووصل بها إلى فيللا وسط مزرعة تحزمها أضواء وتنطلق من قلبها شهب منيرة بالأصفر والأزرق والأخضر.

تسحب نهلة شهيقا طويلا وتغوص وسط الصخب. تحرص على أن تتواجد مع المجاميع المبتسمة لفلاشات مصوري مجلات المجتمع، التي تدفع لهم "شيرين" صاحبة الحفل وصديقة نهلة، في مقابل تغطية حفلاتها. وبحكم العشرة، يصوبون العدسات ذاتها عليها كلما تواجدت في مناسبة أخرى لا تخصها.

"ع السريع كدة ".. "تفتكري فلان الفلاني، رئيس تحرير الصفحة الفلانية هينشر لي المقالة ولا هيقلبوني ويعتبروني من فلول النظام القديم؟" يتكرر سؤال الدكتورة نهلة مع عدة صحف وعدة برامج وعدة جامعات خاصة.

"عضو لجنة مراقبة القوانين".. لقب كان يفتح لها أبوابا لا يخطر على عقل بشر أن يطرقها، بحدود إمكانيات نهلة المتواضعة.

في قيظ يوم صيفي عام 2009 شعرت نهلة بالعطش، في اللحظة ذاتها التي تعطلت فيها سيارتها أمام الجريدة الرسمية. تركت السيارة وسألت الاستعلامات عن مكتب رئيس التحرير، لأنها كانت ترغب في شرب عصير طبيعي مثلج، كما كانت تتخيل دائما إسمها مكتوبا أسفل مقالة في جريدة كبرى. ناولت رجل الأمن بطاقتها وكارت الحزب، وبعد دقائق كانت تتناول العصير في مكتب مدير تحرير الصفحة التي شهدتها في أحلام يقظتها، وبعد أسبوع ظهر اسمها مرتين، مرة أسفل المقال كما في الحلم، ومرة تحت صورتها التي قضت يوما كاملا بالبيوتي سنتر قبل أن تذهب للمصور ليلتقطها لها.

يوم صدور المقال فاق في الابتهاج ليالي اذاعة اللقاءات التليفزيونية، فالبث المرئي أثيرٌ يطير في الحال، وقد يُظهر تجعيدةً هنا أو خطا رفيعا تحت العينين المجهدتين. أما المقال فيدوم طوال اليوم والوجه الحسن ينظر للقارئ في دلال لا يتغير، على الرغم ان محتوى المقالة نفسها ليس إلا قصاصات من مواقع على الانترنت. وبعد تبدل الأحوال في البلاد وفي يوم مشابه عام 2012، قررت نهلة التوجه للمصور نفسه، لكن بعد ان أدخلت الخصلة وأحكمت لفة الإيشارب، وذهبت بها مع مقال قانوني جديد في جريدة تجنح للالتزام الديني. طالت فترة الترقب التي تحولت إلى مكالمات متلاحقة من نهلة إلى أخواتها وصديقاتها وزوج ابنة خالتها الذي يرافقها في الترّيض والمشي الخفيف، تستشيره خلالها في كل شاردة وواردة. لم تقل نهلة كلمتها الشهيرة "ع السريع كدة" كثيرا خلال هذه المرحلة لأن معظم الهواتف صارت لا تستقبل لهاثها واستفساراتها، ولا حتى أميرة صديقتها المقربة، فصرت أنا المتلقية شبه الوحيدة لوساوس هذا القلب الذي لايكف عن الخفقان. امتد انتظار نهلة لشهور، حرصتْ على شراء تلك الجريدة الدينية فيها يوميا، علها تجد المقال، حتى وإن كان بدون صورة وهو الأمر الذي كان يسيئها جدا من قبل، وكانت تتصل بالمسئولين عن

الصفحات لتخبرهم أنها ستمر عليهم بعد يوم أو اثنين لتسلمهم مظروف به مبلغ بسيط أو كيس أنيق به ملابس مستوردة للأولاد، حتى تظهر الصورة في العدد القادم.

كان هذا قبل أن تفقد الدنيا رحمتها وتمر أياما ثلاثة أمام مقر الحزب فترى النيران تلتهم مبناه المطل على النيل كما تأتي على كل الأحلام، وكذلك قبل أن تضطر إلى الاستغناء عن الخصلة الذهبية المنفلتة من تحت حجابها، لتنال مساحة بسيطة على صفحة جريدة شبه دينية تجاهلت طلبها بنشر المقال، كما اعتبرها مدير تحريرها مثل "زومبي"، كائنٍ معلقٍ بين حياتين، لا حق لـ"فلول" مثلها في العيش في أي منهما.

الميزة الوحيدة في هذا الأمر هو تلك الصورة الجديدة التي استصعبت نهلة أن تذهب هباء، بعد أن كانت قد اشترت عدسات عسلية فاتحة خصيصا لها، فأخذت النسخة المكبرة وزينتها بإطار ووضعتها على الرفّ المقابل لغرفة حازم زوجها. لم تقصد نهلة أن تبعث بأية رسائل لحازم بوضع تلك الصورة "الملتزمة" في هذا المكان، إلا ان حازم اعتبرها مبادرة للمصالحة، بعدما تأزمت علاقتهما أكثر، حين نمى إلى علمها مصادفة أن مكبر الصوت بالمسجد المجاور لبيتها، لا يحمل للحي كله سوى صوت زوجها وهو ينادي للصلوات الخمس. كانت ليلة ليلاء وقد نفذت الأقراص المهدئة التي تتناولها نهلة حتى يغلبها النعاس. تجاوزت الساعة الخامسة صباحا، حين سمعت مع صوت تكّات حازم بقفل باب الشقة تهليل عم سعيد البواب وهو يثني على أداء حازم وورعه في رفع الآذان. وفي الفجر التالي، حيث لا صوت يعلو على صوت المئذنة، جرت نحو النافذة لتتحقق من المعلومة. "الصلاة خير من النوم.. الصلاة خير من النوم"، تلك المقولة الواخزة لضمائر من يفتعلون النوم عند آذان الفجر، اشعلت اللهب في جسد نهلة.

_ ظننتك تذهب إلى المسجد للصلاة فقط؛ هل حصلت على الدكتوارة لأستيقظ ذات صباح فأجدني متزوجة من مؤذن؟

_ وهل تزوجت بعد حب جميل لتقرر زوجتي أنها ستنام في غرفة منفصلة لأن مواعيد نومي وقيامي تتعارض مع أوقات خروجها ودخولها؟

صلاة الجنازة طغت على أحداث ليلة "الأذان"، وأعادت نهلة إلى صدر حازم لكي تبلله بدموع الحزن على شقيقها رائد، الذي جاءها خبر وفاته ليلة أمس.

معظم زبونات الجيمنازيوم كن يرتدين السواد ويبكين من قلوبهن على نحيب نهلة ووالدتها وأخواتها في القسم المخصص للنساء بالمسجد.

تسربت واحدة تلو الأخرى، بعد صلاة الجنازة، وهن يحولن الايشاربات التي كن يضعنها على رؤوسهن إلى شالات على الأكتاف وركبن سياراتهن واختفين.

تشبثت نهلة بي لأرافقها إلى مثوى أخيها الأخير. ما كان لصدر مملوء بالحرقة مثل قلبي، من كثرة مشاهدة نقاط الدماء الطازجة والجلود المسلوخة من أثر السحل والوجوه المنتخفة خنقا بالغاز المسيل للأرواح، ما كان لمثل هذا القلب أن يتحمل مشهد دفن شاب تقف على عتبة قبره أمه المكلومة وبناته الصغار وزوجته الشابة، إلا أني ألفيتني مشحونة في قافلة السيارات المتجهة لمدافن الأسرة. سحبتني ساقاي خارج ساحة الدفن فجأة فظن من انتبهوا أني لم أتحمل المشهد، إلا أني كنت أداري الابتسامة التي أفلتت مني حين خرجت من نهلة جملة لفظتها من عمق أحزانها ككلمة أخيرة لرائد، أخيها الأعز على قلبها، قالتها بميوعة عفوية وهي تلوّح بتحريك أصابعها، وكأنها مراهقة تودع صديقتها الأنتيم: "باي باي يا رودي".

"هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ".

صدّق القارئ الشيخ على الآيات التي صدحت في أرجاء المسجد في ليلة العزاء، وفي الاستراحة القصيرة، ارتفعت همهمات في القسم الرجالي تحولت إلى اشتباك لفظي بين عم نهلة وأخيها الأكبر، لأن شقيقها لم يذكر في النعي المنشور في جريدة الأهرام أن العم "من الأعيان" واكتفى بذكر وظيفته كلواء على المعاش. "مفيش حاجة يا ماما، دة أونكل صفوت زعلان ان نبيل ماكتبش ف النعي انه م الأعيان. بيقول اننا كدة بقينا زي العائلات الأي كلام اللي بيتلزقوا ف الوظايف من غير مايكون لهم لا أصل ولا فصل". قالتها نهلة بصوت عال لتطمئن أمها وهي تتساءل عما يحدث بالخارج. وفي أذني همست نهلة: "ياريتني كنت بس لسة عضوة ف الحزب ولا أستاذة ف الأكاديمية اللي أنهوا عقدي فيها، وأنا كنت بعت العائلة دي كلها". حين تطل روح الدعابة من كلمات نهلة تشعرأنها في حالة يقظة، ثم تعود إلى غيبوبتها الكبرى وهي تهيم بجدية في دنيا المناصب والأضواء.

"نوموفوبيا" هوأحد المخاوف المرضية المستحدثة، وهو الرعب من ألا يتصل بك أحد على الموبايل، أو أن تفقد الهاتف نفسه، وهو أيضا أحد أهم المخاوف التي تعاني منها نهلة، لذا تتشبث بمحمولها وتقلب أسماء المتصلين والرسائل وكأنها ترجّه حتى يحدث رنينا. ولما يئست من ظهور أرقام بعينها همست لي "شفتي ولا واحد من ولاد الكلب اتصل يعزيني، الدنيا خلاص مابقاش فيها بركة".

بالضد تُعرف الأشياء، ولفظ البركة يتردد مرارا في حوارات نهلة. البركة نقيض اللعنة المتسربة من جينات قديمة إلى الأجيال الحديثة في أسرة نهلة. يقال اننا في الأحلام نشاهد الأشياء التي يراها المجانين في اليقظة. ربما شاهدت جدة نهلة نفسها تحتضن الجان الذي تلبسها وقفزت من الشرفة لتغوص معه في سابع أرض. أما أخوها رائد فلابد أنه أراد هروبا من حياة أرضية لم تعد تطاق، فشاهد أجنحة تنبت في جنبيه، ورفرف بها من شرفة بيته في الدور السادس، إلا

أنه استقر مثل جدته الكبرى "بهية بنت جليلة" على أرض يابسة متخنة بدمائه، لكن على أسفلت الشارع الذي يسكنه والمتفرع من شارع النبي دانيال بالاسكندرية. تلك المعلومة الممتزجة بالرهبة والسرية كانت تتناقلها جميع المعزيات أثناء التلاوة القرآنية، وتلف في دوائر حلزونية حتى تقف عند والدة نهلة، الوحيدة في هذا الجمع التي لم تعرف أن ابنها مات منتحرا.

في منتصف العزاء، دخلت شيرين صديقة نهلة إلى القاعة، إمرأة شابة في الثلاثين يزيدها الفستان الأسود جاذبية. هكذا تبدو للرائي، ولولا أني أعرف من نهلة أنها في السابعة والأربعين لظننت ما يظنه الآخرون.

"في الحلم لا تبلغ الثمانين أبدا، كما أنك تتجول بتلقائية شديدة في عوالم لاتخصك".

شيرين هي حلم نهلة الكبير الذي قادها إلى أحلامها الكبرى. كان الحلم الأول هو عيادة الدكتور سعد دربالة، أستاذ التجميل، وكان الحلم الثاني هو عضوية لجنة مراجعة القوانين بالحزب، والتي كانت ستوصلها إلى الغاية العظمى، مقعد في مجلس الشورى، تلتقط عليه أنفاسها من واقع لم تحبه، وليكون بديلا عن أن تقف نهلة على عتبة شرفتها وتطيرهربا من اللعنة، مثلما يفعل أفراد عائلتها.

بركتان حلتا على رأس نهلة وألهمتاها فرارا من نفق الجنون والضياع:

البركة الأولى هي العدد اللامحدود من الفوبيا والمخاوف، الذي وفر عليها الوقوع في فخاخ الغرفات المغلقة للفنادق الواسعة التي لا تعرف مخارجها، والتي عرضها عليها رجال الحزب لكي تنال مكانة تصعدها إلى حيث تطمح، على الرغم من أنهم وسوسوا لها بكلمات جعلتها تعشق جسدها في مرآة الحمام

مثل جدتها. والبركة الثانية هي نعمة الفضفضة، وإلقاء كل ما يجيش في صدرها على صدور غيرها، بعكس أخيها رائد الذي تحمل مطالب أسرته وتكبد ديونا لم يعرف كيف يسددها، وبدلا من أن يبوح بسره، آثر أن يأخذ خيباته ويتبخر في الهواء.

حكايات الدكتورة نهلة لملمتها منها أولا، واستكملتها ممن نلن نصيبا لا بأس به من هواجسها قبل أن نتصادف في الجيمنازيوم، يوم أن سقطت نائمة في حوض الجاكوزي ومثل البازل تمكنت من أن أكوّن حكاية شبه كلاسيكية، فلم يكن لها سوى بداية ووسط.

قمت برحلة ميدانية قصيرة إلى شقة والدة نهلة ذات صباح، فقد طلبت مني نهلة أن أترك زكاة رمضان عند والدتها، لتضمها إلى التبرعات التي تجمعها شهريا من أجل أستاذتها التي شاخت وقل مالها.

سلطت هذه الزيارة الضوء على المنضدة المستديرة التي تحمل كمية هائلة من البراويز الفضية، التي تزين صورا لوجوه من أعمار مختلفة، يمكنك أن تتعرف على الحقب الزمنية التي التقطت فيها من طريقة تحميض الصورة، أبيض وأسود يميل إلى الإصفرار، أو أبيض وأسود صريح، ثم تدريجات وظلال مختلفة للصور الملونة، باهتة كانت أم ناصعة. مايجمع بين الصور كلها، هي أنها جميعا تتوقف عند مرحلة الشباب. تتصدر صورة كبرى المنضدة، وتبدو مثل عصا موسى التي ستبتلع كل الصور الأخرى، ويظهر فيها التدرج العمري الحقيقي لأفرادها: والد نهلة يجلس على كرسي متحرك، تحتضن كتفيه يدا زوجته التي تقف خلفه، تجاورها بناتها الثلاث وأزواجهن، والإبنين وزوجاتهما، ثم عدد من الأحفاد الذين يحتلون الصف الأمامي، ما بين جالس القرفصاء أومستند إلى شقيقه أو من هو فاردٌ ساقيه تماما على الأرض. بصرف النظر عن ملامح الوجوه المتشابهة، كان ما يربط بين الجميع هو إمالة الرأس

قليلا إلى اليمين أو اليسار، مع تضييق العينين عمداـ لإعطاء الانطباع بالضحك، ثم انفراجة متشنجة للفم لاتكشف عن أسنان، تشبه ابتسامة الموناليزا التي بهتت، من طول المدة التي ثبتتها بها بلا إحساس.

كانت تلك الصورة هي آخر دليل على وجود كبير العائلة، والد نهلة، على قيد الحياة، قبل أن تزوره ذات ليلة من ليالي المرض، نوبة الوسواس القهري، التي صورت له أنه ربما نسيت الممرضة ان تعطيه القرص المنوم، وأنه سيقضي الليلة متألما، فمد يده إلى شريط الدواء وضغط على حبة منومة وابتلعها، وبعد فترة وجيزة حين بدأ النوم يداعب عينيه، تساءل إن كان قد تناول القرص أم لا، فتناول الحباية الثانية والثالثة والعاشرة، حتى استقر تماما في نومة عميقة أبدية. وقد نالت الممرضة النوبتجية جزاءها بالفصل، لأنها لم تكن المرة الأولى التي يخشى فيها على نفسه من التألم، فيتناول جرعات زائدة.

الوحيدة من اكتنفتها السكينة هي والدة نهلة، التي استراحت من افتعال ذلك الحنان الممزوج بذرف العينين والبسمة المصنوعة، كلما زارهم زائر للاطمئنان على زوجها، ومع ذلك حرصت على إحياء سيرته بالمواظبة على ملء المظاريف الصغيرة بالمبالغ الشهرية التي كان يخصصها لفقراء قريته، وذوي الحاجة من عساكر الحراسة، بالإضافة إلى توزيع حصص من محاصيل الفواكه بمزرعتهم على بيوت العائلة والجيران، بعد كل حصاد.

لكن الأم أبدا لم تنس أن زوجها، حتى بعد أن أنجبا أبناءهم الخمسة، لم يسترد قلبه الذي تركه مع "حكمت"، الراقصة التي استحوذت على كيانه، وزرعت في رأس الزوجة شبحا ضخما على هيئة أنثى مغرية لا تشيخ أبدا، وتخرج لها لسانا تحركه ثم تكيدها قائلة "المرأة الحق في قلب الرجل، هي المرأة الأخرى. هي اللعب والمناغشة وذكرى لقاءات قصيرة مختلسة ومفرحة". لولا العقد الذي شهد عليه

وكيلها وأقيمت من أجله الأفراح، لتمنت والدة نهلة أن تكون هي تلك المرأة التي يتسلل إليها رجلها ليراها سرا، حتى وإن بدون عقد نكاح.

الثنائيات التي ابتسمت للكاميرا لتوثق حالة السعادة، كانت جميعا تحمل جينات تفتقر إلى بركة الراحة الزوجية: رائد أخيها الذي قفز من الشرفة هربا من زوجة متدللة. نبيل الأخ الأوسط، المتزوج من مغربية، ويشيعون أنها تبث له الأعمال السحرية في أماكن طعامه ونومه لأنه يغدق عليها الأموال ببلاهة، لكن في واقع الأمر، لا هو بمعتوه ولا الزوجة تعزم عليه بالتعاويذ. كل مافعلته هو أنها كانت تتغاضى عن ولعه باللقاءات القصيرة المختلسة المفرحة بأخريات، وكان يخدر ضميره بتعويضها ماديا. ثم نيرة ونجلاء الأختين الكبرتين وزوجيهما: زوج نيرة عاطل برغبته، وصاحب كيف، وزوج نجلاء فاقد الشغف بزوجته، ثم نهلة الابنة الصغرى، حبة عين الأم ودميتها المسلية ببطولاتها الرياضية وسكتشاتها الفكاهية التي تقدمها على المسرح المدرسي والمناسبات العائلية. مسرحية تمتد بعمر نهلة لم يقاطع اداءها فيها أحد، إلى أن ظهر زوجها حازم، العريس اللائق علميا وعائليا، ذو الدماء الصعيدية الأصيلة الممتزجة بدماء انجليزية نبيلة من جهة الأم، تانت سيلفيا، الحماة الأشهر في حواديت العائلة. يصدر حازم لنهلة أمرا هادئا في بداية الزواج، بالتوقف عن الهزل والتهريج الذي لايليق ببنات العائلات، ثم قرارا بقضاء كل يوم جمعة بصحبة مجموعة أصدقائه خريجي مدرسة الفرير وزوجاتهم، في جلسة وقورة ببيت رفيق عمره، حيث يدرسون الفقه والسنة والأحكام والتجويد. وبعد اللقاء الروحي، تعرض كل زوجة الطبق الذي تفننت في عمله، بينما يناقش الرجال مشروع المدرسة الدولية الذي يسعون لإنشائه.

نبتت شعيرات غير منسجمة في ذقن حازم، جعلت نهلة تنفر قليلا منه، واختفت قُصة شعر نهلة تحت غطاء الرأس ذي الكشككة من المنتصف، الذي أمرها بالالتزام به. اتخذت رقبة حازم وضعا مقوسا إلى أسفل، كرد فعل

انهزامي أمام قرارات رفاق عمره، التي لم يكن له أي رأي في تعديلها. أما نهلة فكانت تصوب نظرها نحو الطلبة وأولياء الأمور من خلف النظارة الطبية السميكة التي تنزلق على طرف أنفها، بعد أن صارت مديرة المدرسة الدولية، التي شارك فيها حازم أصدقاءه، وباع من أجلها حصته من الأرض الزراعية التي ورثها عن والده.

كان لقب "الدكتورة" الذي يسبق اسم نهلة هو جواز مرورها نحو منصب المديرة، فلم تكن سوى اسم يوضع على الأوراق الرسمية الدعائية للمدرسة، أما الأوراق الخاصة بالأموال والمحاسبات، فكانت طلاسم لا تفهم فيها شيئا، هذا إن مرروها عليها بالأساس.

أما حازم فلم يكن مهتما بتلك الأوراق وأرقامها، وكان يصب تركيزه على الهدف السامي الذي من أجله أنشئت المدرسة، ألا وهو تقديم دراسة دينية إسلامية، منفتحة على العالم.

وبعد مرور عامين من العمل المتواصل، تلقى حازم رصيدا ربحيا لا يليق بالمبلغ الذي وضعه كرأس مال في المشروع، واستلمت الدكتورة نهلة خطاب شكر على خدماتها، حيث أدت الغرض المطلوب من لقبها في العامين الافتتاحيين للمدرسة. إلا أنه قبل المغادرة النهائية بسويعات، كانت كاميرات الـ"نايل تي في" تضبط زواياها بأرجاء المدرسة، لعمل حلقة خاصة عن مزج التعليم الديني بالرؤية الدولية، ولم يتوفر من مسئولي الإدارة سوى نهلة وحازم بهذا اليوم.

طأطأ حازم رأسه كالعادة ولم يقل سوى كلمتين من تحت الضرس، حيث أنه كان يدرك عبثية الموقف. أما نهلة، فقد وجدت في الإضاءة الساطعة المسلطة على وجهها، شعاعا منعشا كادت تستنشقه، كمن يرى النور للمرة الأولى، بعد حبس لعامين بالسجن مع الشغل والنفاذ.

بدّل معظم المشاهدين المحطة إلا اثنين في موقعين مختلفين: أمجد جار حازم من أيام الطفولة، والدكتورة شيرين، زميلة نهلة بالمدرسة الثانوية.

المكالمة التي تلقاها حازم من أمجد كانت طوق النجاة من احباط مزمن، فقد صارا بعدها زميلين في العمل بالموقع الالكتروني الإسلامي، الذي يصحح مفاهيم الغرب عن الدين الحنيف.

أما الدكتورة شيرين صديقة نهلة، فكان لها هدف آخر تماما من وراء المكالمة التي طلبت فيها منها أن تتقابلا. فقد كانت تشاهد البرنامج مع حفنة من أصدقائها من رجال المجتمع، وسبق لسانها تفكيرها حين قالت: "دي نهلة، كانت دفعتي في المدرسة"!! ثم استدركت حين لاحظت تأثير الجملة على الحاضرين: "أنا مش عارفة شكلها اتبهدل قوي كدة ليه، دي كانت أمورة جدا". قررت "شيرين" أن تمحو الصورة الذهنية التي رسخت في خيال أصدقائها عن عمرها الحقيقي، وكان الموعد مع نهلة بصالة المساج بالنادي. عدة لقاءات على مدار أسبوعين، كان نتاجها استبدال بونيه الرأس بإيشارب حريري ملون، تنزلق منه الخصلة التي صارت شقراء. النظارات الطبية السميكة استقرت في ركن بعيد من درج المكتب، بعد اجراء عملية الليزك، وشراء ثلاثة ألوان من العدسات اللاصقة بما يتناسب ودرجات الثياب. أما الخطوة الأخيرة والأهم، فكانت زيارة طبيب التجميل، يوم حقن البوتوكس بشفاه ووجنات الدكتورة شيرين، حيث تحتاج دوما إلى شريكة تقتسم معها العبوة كمية وسعرا. وكانت معجزة إعادة الشباب من نصيب نهلة.

لم يلحظ حازم ما طرأ على زوجته من تغيير، على الرغم من أنه استاء فقط من الخصلة المنفلتة، متهما إياها بنزع البركة من حياتهما. دبت الروح في قلب والدة نهلة التي كانت تستنكر تحجب ابنتها، حيث لم تطرأ فكرة الحجاب على رأس أي من سيدات العائلة، كما فرحت تانت "سيلفيا" حماتها من صميم قلبها لعودة نهلة إلى شبابها ووضعت في أذنها نصيحة، تركتها لها، مع البيت العتيق إنجليزي

الطراز في "برستول"، والذي صار عائد إيجاره سندا يعيل نهلة وحازم وولديهما، وجعلها تدعو بالرحمة لتانت سيلفيا كلما ذكرتها بعد وفاتها. أما النصيحة فكانت: "لكل امرأة الحق في الاحتفاظ بثلاثين بالمائة من أسرارها". استغلت نهلة الثلاثين بالمائة في افلات خصلة الشعر الذهبية عند الحاجة، والسعي لحضور حفلات الدكتورة شيرين، والتي روجت فيها لنفسها وصارت من خلالها أستاذة بنفس الجامعة الخاصة، وضيفة دائمة على قائمة معدي الفضائيات، حتى أنها تصدرت المشهد في تجمعات الدكتورة شيرين، وشاركتها الاستضافات في البرامج، وقفزت بفضل معرفتها لها إلى عضوية لجنة مراجعة القوانين بالحزب.

اللهم عبدك قد ضاقت به الأسباب وأُغلقت دونه الأبواب وبعُد عن جادة الصواب وزاد به الهم والاكتئاب وانقضى عمره ولم يُفتح له باب وأنت المرجو سبحانك لكشف هذا المصاب يا من إذا دُعي أجاب يا كريم يا وهاب.

دعاء تردده دادة امتثال في إحدى الليال التي زاد فيها الهم عن احتمال الدكتورة نهلة، حين رفض حازم زوجها مشاركتها فعاليات مؤتمر الحزب بأسوان، لأنها لن تسافر بلا مُحرم، وهو لن يخرج من شرنقته التي تضيق عليه أكثر وأكثر، بعدما وهب نفسه للجهاد الالكتروني لنصرة الإسلام.

دعاء دادة امتثال يشتهر بالصعود السريع إلى السماء، وبصعوده جلب نور البصيرة إلي ذهنها لحل المعضلة: "طب ما تخدي الست الكبيرة معاكي، أهو منه تغير جو، ومنه تبقى محرم زي ما الباشمهندس حازم بيقول".

وراء كل دمية تحرك يديها ورأسها وتطيّر قدميها من على الأرض، أم تمسك بخيوطها في الظل.

كثرت سفريات نهلة القصيرة والطويلة التي رافقتها فيها والدتها، كحامية فقط من رعب المصاعد والغرفات المظلمة وقت النوم بالفنادق الكبرى. أما لقاءات نهلة المنفردة بقاعات الـ"في آي بي" مع رجل الحزب الأشهر، فقد كانت توفر لها الأم الظروف الجميلة، على اعتبار أنها "انتعاشة" لن تضر، كما وضعتها نهلة تحت بند "الثلاثين في المائة من الأسرار" التي نصحتها بها تانت سيلفيا حماتها. أما الأصابع التي كانت تحرك الأم نفسها، فهي أصابع "حكمت الراقصة" حبيبة الزوج القديمة، التي تمسك الصاجات وتدق بها على رأس الأم وهي تردد: "أنا المرأة الأخرى. أنا الحقيقية التي تمنحه انتعاشة يعود بها كزوج مطيع لك وأب حنون لأولادكما"، فأرادت الأم أن تكون نهلة هي المرأة الخطرة التي تحظى بحب الرجال ولهفتهم، قبل أن تتمكن منها جينات الشيخوخة المبكرة التي تنحت خطوطا رفيعة حول الفم والعينين وتوشم بقعا بنية فوق الكف مثلها.

"أحسن واحدة بتعمل تنضيف للبشرة وماسكات في البيوتي سنتر هي رضا". تلك كانت نصيحة صادقة همست بها مدام أمينة في أذن الدكتورة نهلة قبل أن تصعد للمرة الأولى إلى الدور الذي يعلو الجيمنازيوم، حتى صارت عادة شبه أسبوعية، إلى أن توطدت الثقة بين الطرفين رضا ونهلة، فانتقل رقم هاتف محمول رضا سرا إلى يد الدكتورة نهلة في قطعة ورق صغيرة، حتى تتصل بها وتقوم بعمل أقنعة لتفتيح وشدّ البشرة في منزلها بنصف الثمن الذي تدفعه في البيوتي سنتر، وهو نفس ماحدث معي مع "هدى" عاملة الباديكير، حين صرت أنقع قدميّ في الماء الدافئ بالديتول بطبقي البلاستيكي العميق، وأنا أسمع منها حكايات بنات الجيمنازيوم في غرفة الجلوس بالمنزل، قبل اختفائها الثالث والأخير.

أستنشق في بيت نهلة نكهة البن المحوج قبل كل رشفة من كوب القهوة الصغير الذي قدمته لي دادة امتثال على صينية من الفضة الانجليزية العتيقة،

بينما تتمدد نهلة على الأريكة بغرفة الجلوس، مرجعة رأسها إلى الخلف بناء على تعليمات رضا، التي بدأت في الضغط على وجهها بأصابع مدربة، بعدما عرضتها لحمام بخار لتفتيح المسام.

مر طيف "حازم" زوج نهلة مثل حلم من خلف الباب الموارب ونادى نهلة هامسا، غادرت غرفة الجلوس بعدها لتختفي حوالي ربع الساعة. لم أشعر بأي ملل وأنا أشاهد رضا وهي تنقع قطعتين من أحجار الطمي المغربي في ماء الورد بصحن عميق، حتى يذوب ويصير كالكريم، ثم تضيف إليه ملعقة عسل أبيض وبعض الحليب للتطرية. ثم تطلب من دادة امتثال حلقتين من الخيار الطازج وأن تستدعي مدام نهلة لعمل القناع.

عادت نهلة وعلى وجهها الانطباعات الثلاثة الدائمة، التأسف والدهشة والاندماج في أحداث حلم. مرّرت رضا تلميحات تشاغب بها نهلة عن سر تأخرها برفقة الباشمهندس. لم تجد نهلة حرجا في أن تصرح بتلقائية ناعمة أنه لم يحدث أي شئ، لأن حازم لا يمكن أن يحيد عن الجدول المخصص للعلاقة الخاصة. الساعة التاسعة إلا الربع مساء الثلاثاء، اليوم الوحيد الذي لايقوم فيه الليل، إلا انه يأوي إلى الفراش في تمام العاشرة مساء، حتى يتيسر له استيقاظ نشط قبل صلاة الفجر. وقد عمل حساباته أن تبدأ المداعبة في التاسعة إلا الربع، وقد تستغرق خمسة عشر دقيقة لاستجابة نهلة البطيئة، وينتهيان من المسألة في التاسعة وخمس دقائق، يغتسل بعدها ويقرأ أورادا قصيرة وينام على وضوء، حتى إن لفظ روحه وهو نائم، يحتسب شهيدا. كل ما في الأمر أن حازم كان يطلعها الآن على جدول اليوم ويحاول الاستفسار منها عن سر اقامة ابنهما عند جدته.

مثلما تتعرى نهلة ببساطة من أسرارها أمام أي غريب، كانت تترك هاتفها في متناول أيدي الولدين وبه كل الرسائل والنكات الـ"ديرتي"، وكأنها تتلذذ

بكشف أمر يجب أن يظل مستورا، مثل من يعلنون في الطرق العامة عن عوراتهم كعوض عن خيبات بعرض الحياة.

"راسك ل ورا يا دكتورة نهلة". تُرجع رضا رأس نهلة إلى مسند المقعد، وتبدأ بغمس الفرشاة في الخليط الذي صنعته، ثم توزعه بالتساوى على وجه نهلة، مع ترك المنطقة المحيطة بالعينين، والتي تضع عليها حلقتي الخيار لنزع الهالات السوداء. "ربع ساعة وراجعة، هاشرب سيجارة واعمل مكالمة ف البلكونة لحد ما الماسك ينشف. إوعي تتكلمي يا دكتور أو تضحكي أحسن الماسك يبوظ". غادرت رضا غرفة الجلوس على أمل أن تترك نهلة صامتة. وهذا أمر مستحيل ولا يدركه إلا من يعرف أن صوت نهلة من دماغها، وإن قررت أن تتكلم ستتكلم، لذا حين بدأت في التحدث والتذمر لم أقاطعها. كما إني رأيت أنه قد يكون في حديثها مادة جديدة أضيفها إلى وريقات البحث التي أعدها في الجزء الخاص بها عن شخوص الرواية.

يستوي الطمي طريا وباردا على وجه نهلة، وحلقات الخيار الطازجة التي تغلق عينيها، تدخلها في حالة استرخاء. الرأس مازال ملقى إلى الوراء والحروف تخرج من فمها المزموم مثل حالم يقابل نفسه في المنام. عروض نهلة على المسرح المدرسي في شبابها كانت "مونودراما" قائمة على تقليد شخصيات أخرى. القناع المفرود على وجهها والذي بدأ يتصلب، يمنعها من تشكيل ملامحها على هيئات آخرين، لذا لا تخرج سوى صوت روحها في مونودراما تؤديها مستلقية على الأريكة أمام جمهورها المكون من شخص واحد/أنا:

"أرأيت كيف يسقط الزمن كل الأقنعة؟ زوج ابنة خالتي الذي كان يرافقني في رياضة السير، وأعطف عليه بأن أسامره وأسليه بحكايات رجال الدولة الذين يلقون بشباكهم عليّ، وفرحتى المستترة بمديحهم، تجرأ وطلب مني أن أفرجه رقص الإيروبيك الذي نتدرب عليه في الجيمنازيوم، لكن على انفراد. وحين راوغت، تحول إلى ناقد لاذع للقاءاتي التليفزيونية التي نصحني بالكف عنها لأن

الكيلوهات الخمسة التي تضيفها الشاشة إلى وزني الأصلي، صارت تظهر عمري الحقيقي، والمقالات التي أكتبها عن أسرار السعادة الزوجية، موجودة كدردشة نسائية على المنتديات الالكترونية التي تصممها ربات البيوت" .

لا أنكر أن شيرين هي التي قدمتني إلى دنيا الجمال والشهرة، لكن لا تروق لي سطحيتها وعدم إلمامها بالثقافة. صحيح انه لاوقت لدىّ لعمل أية قراءات أيضا، لكني على الأقل أمتلك من الذوق ما لايجعلني أطرد أصدقائي من حياتي. كفاها أن ابنتها لاتطيق أداءها، وأنها تزاحم البنت على شبابها، لدرجة أنها أفلتتها تماما من احتوائها، وصار الملاذ الآمن للإبنة هو طبيبتها النفسية أو بيت جدتها.

حتى ميس نجوى، مُدرستي، التي عاملتها كعزيز قوم ذل لسنوات، صارت تطلب الآلاف لمجرد أنها تحب أن تفتح ثلاجتها، فتملأ عينيها باللحوم المدخنة والدواجن والفواكه المتراصة فوق بعضها.

تقول "أميرة" صديقتي أنه بأواخر يونيو سيخرج الناس إلى الميادين مرة أخرى، وبعدها قدترفع الستارة السوداء التي أسدلت على أيامي منذ ثورة يناير، وأستعيد المجد الزائل.

سأذهب معها وأشتري علما من أكبر مقاس، وسأرتدي تي شيرت أحمر وربطة رأس بالأبيض والأسود، فربما قابلت شيرين ووالدتها وسط الحشود. كلما شاهدت صورتها في مجلة يقشعر بدني وتجتاحني برودة لا يدفئها سوى دعوة مرجوة من شيرين بأن أتدثر مرة أخرى بعالمها المعطر المضئ.

حتى مدير التحرير الذي فرد بساطا مخمليا في بداية تعارفنا وكان يلاحقني بالرسائل والمكالمات، صار يتجاهل مكالماتي، وإن فعلها وقام بالرد، يلاحقني بوابل من الأسئلة عن دواخل الحياة اليومية لنظيرات شيرين من كواكب المجتمع، وقالها لي دفعة واحدة ألا أتصل إلا إذا كنت أحمل أخبارا وكررها مرتين: "أخبار. أخبار"، لأنها ستعينه على تغذية نرجسيته بإضافة رواية جديدة إلى أعماله الأدبية.

أنت الوحيدة التي تستمع إليّ بصبر وبلا غرض. أنت كالولي الزاهد صاحب الكرامات. أدعو لك في كل وقت لأنه لا غاية لك سوى تطبيب النفوس."

الطمي المفرود على وجه الدكتورة نهلة تحول لونه من البني إلى الأبيض المائل إلى البيج، وصار يتشقق مثل أرض بور تفتقر إلى الحياة. بدأت جزئيات منه تتفتت وتتساقط لحظة دخول رضا معبأة برائحة السجائر، وفي يدها صحن آخر ممتلئ بمعجون قناع بني ستفرده على وجهي.

وقفت نهلة تراقب وجهها المشدود أمام المرآة بعد أن غسلته بالماء الدافئ، ثم بدأت تتفحص كل بوصة في جسدها وتتمنى لو كان فقدان وزنها في مثل السهولة التي تفقد بها مفاتيحها ونقودها أو حتى عقلها.

وحين تمددتُ على الأريكة تاركة مسام وجهي لأصابع رضا، رأيت فيما يرى النائم امرأة لها نفس وجهي وشعري وملابسي، لكنها تقترب جدا من الأرض، قصيرة جدا، ويجري بجانبها بضعة أقزام. ظل الحلم عالقا برأسي إلى أن فتشت عن تفسير له: "أن ترى قزما في حلمك، فستكون على صلة وثيقة بالأرض وسوف تحيا لبعض الوقت بين أحضان الطبيعة. وقد يعني القزم أيضا، هذا الجزء الضئيل من نفسك الذي لا يعرفه سواك ويشعرك بالدناءة والخسة".

هل كان هذا هو التفسير الحقيقي لرؤيتي لذاتي، أم كانت صورة مخبأة في العقل الباطن عن الفتاة القزم التي أغوت هدى بعد هروبها الأول؟

سويسرا

"الرؤيا معلقة في قدم طائر، إذا عبرت وقعت"

حديث شريف

الخائف لا ينام، وأنا هنا صرت آمنة، لذا صرت أنام وأحلم بعد ليلتي الثانية في القصر السويسري العتيق، ولا أبالي بقص مناماتي المعلقة في أجنحة الطير، حتى تُفسر وتتحقق.

أراني مثل طيف، على شاشة كمبيوتر، لي وجه غير وجهي. أحمل ملامح فتاة هندية، وأقدم نفسي لمشاهدين غير مرئيين. منذ تلك الليلة الثانية، بدأتُ مرحلة الأحلام بلغات أخرى. أحيانا لا تكون للهجة أصول في عالم الواقع، لكن حلم اليوم كان بالإنجليزية. قلت بثقة:

“I am from Pedwar. I am Hindu & we’ll have a revolution soon”.

"أنا من بيدوار. ديانتي هندوسية، وسنقوم بثورة قريبا".

ليس ضروريا أن يكون ما تراه وأنت نائم أضغاث أحلام، أو أمنيات قابعة في لا شعورك، وتعافر من أجل الصعود إلى السطح. ربما كان حلمي هذا رسالة من مكان كان معلوما لدي، في مرحلة ما من حيواتي السابقة، أو علامة تشير إلى نقطة فارقة في المستقبل. كان الحلم حقيقيا لدرجة أنه استحوذ عليّ، وظللت أرى صورة الفتاة الهندوسية وأسمع صدى كلماتها على وسادتي، برغم الأصوات التي تهيمن على سماء الحديقة، الآن؛ زقزقة وهدهدة وتغريد ونعيق

وعندلة، هي لغة الطيور، أول لغة خلقها الله، تلك الأطياف الصوتية، التي تضبط التناغم بين صخب أدمغتنا، وإيقاع الطبيعة.

تُرى هل أيقظت تلك الألحان الإلهية حواسَّ "نيل"، و"كاترينا"، أم إنها تغط في نوم متعب بتأثير كؤوس النبيذ الأبيض التي احتستها أمس، ويغوص هو في مدارات الشخصيات التي يكتبها في رواياته، وينال عنها الجوائز.

سيسحبني المطبخ بالدور الأرضي بقوة نكهة البن، وسأنزل إليه كالمسحورة لأجد "جون"، الكاتب الأمريكي، يعد قهوته، وهو في حالة إعياء من طول زمن الجلوس، داخل هيكل معدني ضخم، يحلّق به بين قارتين. نتبادل كليشيهات التعارف، وينسحب في هدوء صاعدا إلى الغرفة المقابلة لغرفتي، والمكتوب على بابها غرفة "ألبير كامو". أذهب إلى الثلاجة وأفتح بابها في هدوء كي لا أوقظ نيام القصر. أسحب إفطاري الصامت. كوبان زبادى بالتوت، وأسير على أطراف أصابعي نحو الحديقة.

درجات وظلال الأخضر تتبارى في مشتقاتها، وتتنافس على مساحات الأرض على اتساعها، وكأن الهضاب والجبال، صغار يتقافزون مرحا ويركبون فوق كتف أبيهم، جبل "الألب" الأعظم، ليطلوا برؤوسهم الناصعة البهية. أمد قدميّ على الكرسي البامبو المطل على المشهد، وأكمل لذة النظر بفعل حسي، قد لا يليق باللوحة. لكن نعومة الزبادي المثلج، التي تنثال على لساني، وتغمره بنكهة ولون التوت البري، ثم تمر على صدري وتبرده، ستجعل من فعل الأكل طقسا روحانيا، وستحولني إلى عشبة قرمزية، تزين طغيان مشتقات اللون الأخضر.

أغلق جفنيّ لأحتفظ بالمشهد، فتطالعني فتاة "بيدوار" التي رأيتها في الحلم، ويقاطعني صوت "نيل" بلكنته البريطانية من خلفي هامسا: "هنا الحياة تحافظ على بكارتها منذ عقود. فلو كانت لنا أرواح شبيهة في بداية عصر مضى، لطالعنا

المشهد نفسه. السماء في غاية السماوية، والزرع مزروع جدا، والبحيرة بحر صغير، استعار زرقته من السماء، وترك لها بياض السحاب ورماديته الهادئة، ليتعانقا في رُقيٍّ ودلال. ونحن.. ربما كنا أنت وأنا نجلس هاهنا، لكن بأسماء أخرى".

قلت له: "هل لديك فكرة أين تقع "بيدوار؟".

قال: "لا يوجد مكان في العالم يدعى "بيدوار"."بيدوار" هو الرقم "أربعة"، في الصيغة المُذكرة، بلغة "ويلز".. لغة بلدي الأم. فأنا إنجليزي بحكم المولد والمنشأ فقط. من أين عرفت تلك الكلمة؟

قلت: "هل تعرف أن اسمك له نفس حروف شريان الحياة في بلدي؟".

قال: "أعرف نهر الـ"نيل"، لكن اسمي له عدة معان في قاموسنا: البطل أو المحب أو السحاب. ولك أن تختاري. لكن من أخبرك بالرقم "بيدوار؟".

هل سيصدقني إن قلت له أني رأيته في حلم، وإن الرؤيا واحدة من أربعين جزءا من النبوة، وإنها ستظل معلقة بقدم طائر، حتى يرويها صاحبها، فإن رواها تحققت، لذا يجب ألا نحدث بها إلا عاقلا أو محبا؟

نصحتني الكاتبة الكبيرة ذات رؤية، بأن أنثر حلمي في السماء، وأن أدعه يهفهف مثل طائرة ورقية، وألا أبالي فيما سيشتبك. فقد يأتي لي بحكاية مثيرة، أو حبيب جديد، أو قصة تستحق أن تُروى، وهذا ما كان يجعلني أهيم بها هي شخصيا، وأطلق امنياتي في اليقظة والنوم بأن أكون هي، بداية الألفي.

همس "نيل" ثانية بأننا سنشق الجبال سيرا على الأقدام، أنا وهو و"كاترينا"، في الثالثة ظهرا، لنزور بلدة "أوبون"، التي تبعد عنا مسافة نصف ساعة من المشي الحثيث، صعودا وهبوطا في الطرق الوعرة.

الكاتبة الكبيرة، "بداية الألفي"، تستنشق الآن مزيجا من رائحة البحر المتوسط المحملة باليود، وزفارة الريتسا والقواقع التي تحبها، وتنعم بمشهد الأسماك الفضية التي تملأ الشباك، وتتقلب نصف حية في الصواني الخشبية، التي يرصها الصيادون أمام شرفتها، في الفندق الصغير الذي قررت أن تتقاعد فيه، بمحطة الرمل، حيث تستمتع بمشاهدة محايدة للعالم، دون أن تحمل هما لنقل ما تراه أو تستشعره على الورق. بينما أنا هنا، "بداية مهران"، أشق طريق الكتابة في قصر بلا روائح تثير المشاعر، سوى قهوة الصباح التي يصنعها غيري مصادفة، وتجذبني إلى المطبخ، وهو مكان يليق، من وجهة نظر الكاتبة الكبيرة، بالخادمات.

لا صوت ولا أثر لـ"كاترينا"، وقد انتصف اليوم. ليتها تستجيب لتعاليم دينها بأن تستريح يوم السبت، وتخلد إلى النوم إلى ما بعد الثالثة ظهرا، حتى أخوض مغامرتي الصغيرة مع "نيل"، لأنثر الحلم بين التلال وفوق الجبال، عله يشتبك في حكاية أو أقصوصة أو إحساس.

تمكن مني داء التلصص الذي بدأته في الجيمنازيوم، وأخذت أتجول مثل سارق للتحف، يحوم في بيت سافر أهله، وتركوا أرواحهم تحلق في أركانه. أغادر الحديقة المطلة على الجبال، التي غامت بين طيات السحب المنذرة بأمطار خفيفة. ألقى نظرة على القصر من الخارج، فأشعر أنه باشا عثماني، قويٌّ البنيان، زيُّهُ أسوار من حجر عتيق، ينطبع عليها نشع رطوبة، وأعشابٌ قطيفيةٌ كثيفة، هي لحيتُه التي رباّها بلا تشذيب، على مرّ الزمان.

دهليز الدور الأرضي هو المكانُ الوحيدُ المكسوُّ برخام أبيضَ وأسود، يمنحك إحساسا ببرودة البلاط، ويعطيك انطباعا بأن مهرِّجا سيأتي بعد قليل، لكي يُضحك الباشا. هذا المهرجُ هو نحن، الكتبةُ المقيمون، والمارُّون بالدهليز، لنُدخِل

أطباقَ العشاء إلى المطبخ ونضعَها في الغسّالة، أو حين نلتقي مثل نملتين في صفٍّ، يلتقيان، فيتوقّفا لإلقاء التحية، والوداعِ أيضا، ليصعدَ كلٌّ منهما إلى غرفته بآخر النهار. وإن خطوتَ على أرضية الصالون والسفرة، المصنوعة من خشب الباركيه، فلا تَدُقَّ كعبيك، حتى لا تجرح الصمت، أو عُمرَ الخشب، لأنه سيحدِثُ صريرا تحت قدميك الحذرتين، ويُقلقَ أرواحَ من عاشوا وتجولوا بالأمكنة نفسها.

لا أمتلك آلة لالتقاط الصور، وهاتفي فقَدَ الروح. سأدوِّنُ كل تفصيله تقع تحت يدي من أرواح أشباح المكان. تَجلّيْ أيتها الكلمات. ما لِلغيمِ الذي بالخارج يحبسك في صدري؟! فليكن قلمي منقارَ طير، يشدو ويهيمن على مشهد فسيح، ضاق عن احتواء الزقزقة وبدّلها بالخطابات. رسائل سأفتحها تباعا، كتبها كل من وطأوا أرض هذا القصر، أو عرفوا صاحبه وأرسلوا له كلمات منثورة. سأنقل محتواها من الملف الضخم الذي يضمُّها في الغرفة الزجاجية المطلة على الحديقة، علها تؤنسني في وحشة ادِّعاء الإبداع.

ها أنا الآن أجلس بهدوء على الأريكة التي ارتاح عليها همنجواي، ثم أنتقلُ إلى المقعد الذي احتوى ألبير كامو، وأرتشفُ القهوة في الفنجان نفسِه الذي مرّ على شفاه نابوكوف. هل ستكون لي يوما رواية مطبوعة مثل "العجوز والبحر" أو "الطاعون" أو "لوليتا"، أم يجب أن أعترف في منتصف الطريق بعجزي وأنصرف، وأعود كما جئت، مُحمَّلةً بالخوف؟

تحملني قوة سحرية نحو فترينة زجاجية بقلب الصالون، بها كلماتٌ عن هنري ميللر، الكاتب الأمريكي الذي ترك ثلاث لوحات من رسمه في البيت. نتشابه أنا وهو في أنه بدأ الكتابة بعد الثلاثين. كان ميللر يرسم في أوقات الراحة ليشعر بالاسترخاء. أما الكلمة المكتوبة عنه تحت اللوحات، فهي حكاية تلك الرسومات مع هذا المكان.

زار هنري ميللر ألمانيا عام 1960، وقضى بعض الوقت مع صديقه وناشره، "هانز شميت"، صاحب هذا البيت. كان "هنري ميللر" يخطط لأن يمكث أسبوعين فقط في ضيافة صديقه، لكنه ظل حتى نهاية صيف العام التالي. فقد منحه "هانز شميت"غرفة بدار النشر، لكي يكتب ويرسم. وحين انتقل "شميت" إلى مكاننا هذا في سويسرا بعد عشرين عاما، تمّ اكتشاف اللوحات الثلاث في صندوق قديم، بالغرفة العلوية بالقصر.

هل كانت لوحات هنري ميللر حالةً فردية، أم أن هذا المكان يطمس المشاعر والشجون، وتُنسى أين خُبّئت، حتى يأتي من يعبث بالغرفة العلوية، ويُنقب عن وريقات مدفونة، ثم تُزيّنُ بالإطارات المذّهبة بعد أعوام عشرين، حين يكون أصحابُها قد رحلوا أو زَهدوا؟

تتوالى الكلمات عن "هنري ميللر"، اسمٌ كان بالنسبة لي، حتى عشر دقائق قبل الآن، لا يمثل أكثر من كلمتين، ترنّان جرسا موسيقيا أن افتحوا عقولكم، هنا كاتب ذو مكانة. يخفت رنين الجرس تدريجيا، وتتحول سيرته إلى كلمات لها صدى، آتٍ من بئر سحيق، أنزل فيه رويدا رويدا، وكأني أغوص في قاع حلم يشبه واقعا يخصني. بدأ "ميللر" الخارج من عائلة قادرة بالكاد على سدّ رَمَقها المعيشي، لحياة تحتاج إلى قدرة هائلة لسد رمقها الإبداعي، وبين الفقر المدقع والكتابة كمتنفس وحيد لكيانه، عاش "ميللر" تجواله في قيعان المدن التي حطّ بها. وكانت باريس المفجرة الحقيقية للكتابة، حيث اندفع في الواقع اليومي لقاعها، حيث كتب "مدار السرطان" و"الربيع الأسود" و"مدار الجدي".

يسحبني البئر في دوامات تردد ما حكاه ميللر عن طأطأة رأسه، التي قدمها لمجتمعه في نيويورك في بداية حياته، حتى يتركونه في سلام، دونما اعتراض على أبيه السكير، الذي يعمل في محل للخياطة، وعند الكنيسة التي تستقبله صباح كل أحد لسماع الموعظة، التي يحس تجاهها بالضجر، وعند أمه المصابة

بالالتزام بالواجبات البيتية المقيتة، وعند المدرسة التي يكرهها ويؤمن انها تقتل التطلع والرغبة في الإبداع.

يكاد نعاس اللذة أن يغلبني، ويتحول شبه الحلم إلى حلم دسم، حين يصعد صوت "ميللر" من داخلي أنا، وهو يتساءل محاولا فهم روح الحرب المريضة والنزاعات على السلطة، ويقول: لنفرض أني هزمتك، فماذا أنتظر؟ سوف تنتظر فرصتك للنيل مني.

خشب الأرضية يصدر أزيزه، وينتزعني من عام ألف وتسعمائة وستين، إلى الساعة الثالثة ظهرا، من يوم سبت، بشهر يونيو، عام 2013. أفيق على طبق به تفاح وخوخ وبرقوق، وكلمات مبهمة بصوت "كاترينا"، ثم تخاطبني مباشرة بلهجة آمرة: "كُلي شيئا"، حتى تقوى على السير معي و"نيل". فلقد جئتكما بخريطة الوصول إلى أوبون".

تتطلع "كاترينا" إلى الخارج من خلف الزجاج، وتتحسس ذراعيها، فأظنها تحتضن نفسها كما تفعل دائما. الحرارة ثمانية درجات فوق الصفر، وكاترينا لم تحضر سوى ملابس صيفية خفيفة، وفاتها أن تراجع درجات الحرارة في بلدان العالم قبل أن تأت. صعدت إلى غرفتي لأحضر لها جاكيت صوفي، كنت قد أحضرت منه ألوانا عديدة، وأعطيتها حزاما جلديا عريضا، لتلفه حول خصرها، فيشع دفئا بوسط جسدها. لمحت فرحة من يفز بجائزة اليانصيب في عيني "كاترينا"، وهي تتدثر بدفء لم يكن مقدرا لها، في اللحظة ذاتها التي كان يبحث فيها "نيل" عن الفنجان الخزفي، الذي أهديته له، والمزين بنقوش فرعونية، وصار لا يحتسي شايه إلا فيه، لأنه يلهمه في كتابه عن الشرق.

طريق الجبال مثل صراط غير مستقيم، وينشق العالم على جانبيه إلى نصفين، نصف به جمال الدنيا، والنصف الآخر يعد بحلاوة الجنة. النصف الروحاني ينفتح على بحيرة جنيف، وندف السحاب وتموجات الجبال بألوانها، وعلى عرشها مرتفعات "مون بلان". والنصف الدنيوي، يحكي تاريخ فرسان وممالك زالت ثم شيدت، وتركت أدلة على وجودها ذات زمن؛ قلاعا حجرية وقصور أثرية وكنائس، ومراع خضراء وذهبية بلا حدود، تتجول فيها أبقار عجيبة، تثير الرهبة، ويداعبها "نيل" كأنه يلاطف كلبا. ولما لاحظ القشعريرة التي أخذتني بعيدا عنه، قال بأنه علينا محايلة تلك الكائنات الوحشية، لكي نحصل على شوكولاتة "ميلكا"، وأشار بيده نحو جهة "الفردوس"، فوجدتها صورة مكبرة من رسم الجبال البيضاء، التي تزين غلاف الشوكولاتة.

لم تكن بلدة "أوبون"، أو الهدف من زيارتها، يستحقان عناء الصعود والهبوط واللهاث فوق الصراط. فالغاية من الرحلة الشاقة، كانت شراء زجاجة أسيتون لـ"كاترينا". دخلنا أنا وهي إلى بضعة أجزخانات، وسوبر ماركت، توقفنا طويلا أمام عطور وبضائع لن نشتريها، قلبنا في بعضها، وشممنا بعضها، وتأملنا بعضها عن بُعد، لغلاء ثمنها. ينتظر "نيل" دائما خارج المحال، حيث الشوارع الصاعدة والهابطة، الخالية من المارة. قلت لـ"كاترينا": سيقوم "نيل" بتطليقنا. قالت "لا تقلقي عليه، معه لعبته". ظل "نيل" يعبث بهاتفه، حتى نفذ رصيده من الصبر، ووجدناه فوق رؤوسنا، وقال: "لو دللتكما أكثر من ذلك سأطلقكما، واسألا زوجا سابقا".

وحين جمعتنا طاولة العشاء، كان "نيل" قد اتخذ موقعه الدائم إلى جواري، واتخذ "جون" الأمريكي مكانه بجانب "كاترينا"، وحين رفع ثلاثتهما كؤوس النبيذ، لم ينس "نيل" أن يصب لي كأسا من عصير التفاح، وشربنا نخب بيتنا

الجديد، بعد أن قال "نيل": "في صحة زوجاتي العزيزات"، مع ضحكاتنا، ونظرات "جون" الذاهلة.

من عاداتي القديمة، أن أقرأ "حظك اليوم" بنهاية اليوم، لأطابق المكتوب بما حدث بالفعل أثناء النهار، وقد اشتركت في موقع للأبراج، يوجه لي رسائل الكترونية يومية بإسمي.

حظك اليوم

عادة ما تتناسين أو تستهرين بأحلامك، لكنك بدأت تنغمسين في موجة من الأحلام الكثيفة مؤخرا، لدرجة أنك بدأت تشعرين أن شخص ما يحاول أن يبلغك برسالة ما. ابق ورقة وقلما إلى جوار سريرك، ودّوني أية انطباعات، بمجرد أن تستيقظي.

بعد أسبوع أو أكثر، ستبدأين في تكوين صورة متكاملة. سترشدك حاستك السادسة القوية، إلى ما ستفعلينه بما كتبته.. يا "بداية".

القاهرة

"مدام أميرة"

"النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها"

حديث شريف

هكذا بدأت مدام أميرة كلامها في أول جلسة عميقة لنا معا، بعد أن شاع في الجيمنازيوم أن من يتكلمن معي، يشعرن بارتياح. قالت:

"لوحة زجاجية مضيئة تعلو باب شقتنا المفتوح طوال اليوم ولا يغلق إلا في الواحدة بعد منتصف الليل. ومع ذلك لا يمكنك اجتيازه إلا اذا أظهرت بطاقتك الشخصية أو قسيمة زواجك، وتفيدنا باسم من دلّكَ علينا. هذا ان كنت تزورنا للمرة الأولى. حينها ستتوقف قليلا عند العتبة لتتأكد أنك وصلت إلى بيتنا، الذي سيؤيك لأيام، سنحرص على أن نجعلها جميلة كالجنة، حتى تعود إلينا مرارا وتكرارا. لكنك حين تأتينا في المرة الثانية، ستدخل أنت وعائلتك أو أصدقائك مثل صاحب مكان. ستخرج بطاقتك بتلقائية، وتتبادل كلمات مجاملة سريعة مع عم "الضوي"، وهو يأخذ بياناتك ويسألك هتشرفونا كام يوم؟ سترد عليه مثل نائم، لأنك بالفعل تكون سائرا في حلم نحو غرفتك، التي سبقك إليها "عم محمدين" أو "عم إدريس" حاملا حقائبك.

ستجتاز الصالة المعتمة التي لا تطل سوى على المنور، وستنفحه جنيهين ليدعك تكمل حلمك وأنت تقابل تيار هواء، سيلفح وجهك بمجرد أن تنفتح ضلفتي

باب غرفتك الجنة. ستنعش رئتيك وأنت تسحب نفسا عميقا محملا برائحة اليود. ستخونك جفونك وتنغلق تلقائيا مع لذة الاستنشاق، إلا أنك ستفتح عينيك سريعا لتغذي بصرك ببحر أزرق على شكل نصف دائرة ضخمة، مزدانة من الناحية اليسرى بقلعة قايتباي. لكنك ستفشل حتما في الوصول بنظرك إلى رأس الناحية اليمنى، لأنك ستكون قد انشغلت بمتابعة بائعي الذرة المشوية والجيلاتي والفريسكا والغوايش والعقود والأقراط البلاستيكية الملونة، والأطفال الذين يركضون أمام والديهم، أو الذين يمسكون بأيديهم وهم يمشون في تأنٍّ فوق سور الكورنيش، وفي يدهم الأخرى هالة قطنية من غزل البنات. كما أنك سوف ُتمتص تماما مع شابين صديقين، أو فتاة وخطيبها يخضعان لتعليمات عم "كارلوس" المصور الفوتوغرافي، في محاولة منهما لتثبيت الزمن عند هذا الموقع المتميز من كورنيش محطة الرمل، حيث البحر وراءهما وبيتنا أمامهما. يلمحان اسمه على لافتة ضخمة على شرفة الدور الثالث وهما يبتسمان للكاميرا، ثم ينسيانه بمجرد أن تبتلعهما الحياة. "بنسيون مونمارتر".. اسم لن يدوم بذاكرة إلا من اتخذه ملاذا مثل ضيوفه العابرين، أو بيتا، مثلي أنا وخالتي هند، التي صار اسمها "مدام ميشيل" ليتناسب وشكلها ووضعها الاجتماعي واسم المكان".

تستخدم أميرة الفعل المضارع حتى وهي تحكي عن الماضي البعيد، وكأنها تعيش في زمن متصل لا أول ولا آخر له. لكنها على عكس الدكتورة نهلة، كانت في كامل يقظتها، يسبقها صوتها المرتفع وضحكاتها وسخريتها من وزنها الزائد، الذي كما يبدو من أدائها، لا يشكل أي عبء نفسي عليها.

مثلما نجحتُ في خداع الكثيرات من المترددات على الجيمنازيوم، اقتنعت مدام ميرا انني مرشدة نفسية وفردت أمامي حكاياتها طولا وعرضا، على أمل وحيد، أن تشفى من "الجيمنوفوبيا". طأطأت رأسي مدعية انني فهمت الكلمة.

أنقذني رنين هاتفها الذي أخذها بعيدا عني وفي تلك الأثناء كنت قد فتشت عن معنى الكلمة: "الخوف المرضي من التعري". أمر بديهي أن تخشى امرأة تعاني من السمنة المفرطة من أن تكشف أجزاء من ذراع أصابه الترهل من كثرة تناوب السمنة وفقدان الوزن، أو تعري فخذا لا تترك تعرجات السيليوليت سنتيمترا مستويا من سطحه، ولهذا ترتدي ملابس الرياضة الكاملة ولا تستخدم الدش المشترك لأخذ حمام منعش يزيح عن جسدها بحور العرق ومجهود تدريبات الـ"زومبا" أو الرقص الشرقي. إلا انه بعدما تمكنت مدام ميرا من تعرية الجزء الأصعب من تاريخها، بدأت في استبدال الزي الرياضي الفضفاض بشورت وتي شيرت مطاطي ماركة اديداس، لأفاجأ بأن منحنيات جسدها تكشف عن تشكيل أنثوي مشدود، لكن على هيكل ضخم قوامه لحم طري وعضل، ومع ذلك حين وقعت عينها على الريجيم المعلق على حائط الكافتيريا والمكون من زبادي وفاكهة وخضروات طازجة، نصحت زميلاتها بأنهن إن كنّ يرغبن في أن يبدون رشيقات عليهن بمصادقة البدينات فحسب.. "ولا ريجيم ولا حاجة".

أن تقول "الليل" وتجاوره بكلمة "النهار"، تعطي الانطباع بالكمال. أيضا شمس وقمر، وسمنة ورشاقة، وكذلك "نهلة" و"أميرة" أو "ميرا" كما يحب أن يناديها الجميع. وأن تظن أن ميرا بحجمها الهائل وعدم وجود زوج في محيطها، قد تكون مصابة بعقدة نقص أو تتنهد حسرة إن رأت امرأة لها زوج، فأنت مخطئ أيضا. كما لن يخطر ببالك أبدا أن ميرا لديها فائض من الرجال، توزعه على صديقاتها إن أرادت، حتى إنها لم تبخل بحبيبها السابق الأعمق ثقافة والأخفّ ظلا على صديقة طفولتها نهلة، لتلهيها عن تعسّرها الدائم في الحياة. الدكتورة نهلة أيضا ترد لها الجمائل فهي التي أتت بـ"ميرا" إلى الجيمنازيوم وأهدتها اشتراك الثلاثة أشهر الأولى. فمنذ أن نصح الطبيب النفسي نهلة بالجيمنازيوم للتغلب على

مخاوفها المتعددة، صارت تؤمن بأن أي ناد رياضي هو المنجي من كل متاعب الروح. كما كانت ترغب في أن تلهي أميرة عن مصابها في انهيار شقتها الصغيرة بحي سيدي جابر، والتي كانت تدخرها كملاذ أخير ان ضاقت بها السبل.

ظنت كل العاملات بالجيمنازيوم أن مدام أميرة تخفي جسدها عن خجل من فرط السمنة، وركزت المدربات على اراحتها من المشكلة التي شاع انها اتت من أجلها؛ آلام الرقبة، هذا لأن أول ما خطر ببال مدام أميرة حين سألوها عن المناطق التي تؤرقها في جسدها قالت بالإنجليزية "Pain in the neck" وترجمتها الحرفية "وجع في العنق"، بينما ترجمتها الصحيحة هي "أمور مزعجة".

تستطرد أميرة: "على يسار الصالة المعتمة في بنسيون مونمارتر، تجد نفس الطفلين، كريم وأنا. يسمح لي عم الضوي أن أقف وكريم حفيده خلف كاونتر استقبال النزلاء، حين تكون الحالة هادئة. أقلد مدام ميشيل الفرنسية العجوز، حماة خالتي هند، وكريم يقلد تأدب جده، عم الضوي، حريصا على أن يُطعّم كلامه ببقايا لكنة نوبية. قد يلمحنا نزيلا يظهر فجأة فيداعبني في غمازتي، أو خصلتي الناعمة التي تحرص خالتي هند على أن تفصلها عن باقي شعري بعقدة حريرية تتناسب ولون فستاني المنفوش والذي يزيدني بدانة وجاذبية. اسمع كلمات لا معنى لها، لكنها تدل على الثناء على جسدي الممتلئ مثل "كلبوظة" و"بطبوطة"حتى إني أحببت جسدي الذي يليق وملابسي وشكلي، مثلما أحبت خالتي هند عودها البضّ وحرصت على أن تبرز صدرها المرمري بفتحة بيضاوية واسعة لفساتين لاصقة تدمج جزئها السفلي وتجعل مشيتها محط الأنظار. لا يقبل كريم أن استحوذ على انتباه النزلاء وحدي، فيطلق موالا قوامه "آياا.. يايا.. يايايويويووو" مثلما يسمع مطربه المفضل في النادي

النوبي، أو يرحب بالضيف بعبارات فرنسية أصيلة، علمتها له مدام ميشيل العجوز، فيمنحه الزبون خمسين قرشا أو نصف دولار أو فرنك سويسري.

الصالة المعتمة بها طيور ضخمة، صقور أم نسور لا أدري، تَفرد أجنحتها التي قام مسيو ميشيل المالك الأول للبنسيون بتحنيطها منذ سنوات بعيدة، وتنظر لي كأنها ستنقضّ علي بمخالبها، لذا لم أتعب خالتي هند في تلبية أوامرها بعدم التواجد حول طاقم الصالون المصنوع من خشب الزان الداكن والمنجّد بقطيفة باللون البني، وتتوسطه منضدة أثرية من طراز كوين آن، حيث يجتمع رجال من بقايا أرستقراطية قديمة، يناقشون أمورا سياسية ويدخنون السيجار في ترفّع، لكنهم يشعرون بارتياح لفندقنا الصغير أكثر من "سيسيل" بفخامته الفارغة، أو "متروبول" لوجود حديقة مربعة كبيرة تبعده عن البحر. كل نزلائنا يرددون أنهم هاهنا يشعرون انهم في البيت، أو إنهم في سفينة جميلة في حضن البحر. الوحيدة التي تحس انها قضت حياتها عالقة في فندق هي أنا. لم يلمح أي من هؤلاء الطرز المختلفة للمناضد المربعة بآخر الصالة والتي تكوّن مطعمنا الصغير. مقاعد ومناضد مستعملة حصلت عليها مدام ميشيل من حي العطارين، لكنها أخفت الاختلافات بمفارش كاروهات بالأبيض والأزرق لتنقلك في المكان والزمان إلى أحياء باريس القديمة".

من الصعب أن أقاطع مدام أميرة لأسألها عن مشكلتها، ليس لأنها تثرثر بلا توقف، إلا لتتناول بعض السندوتشات من كافيتريا الجيمنازيوم، بل لأنها تنقلني إلى أجواء لا أرغب في مغادرتها، فمن العطارين إلى محطة الرمل ومن تاريخ شبه مجهول لي عن علاقة امرأة فرنسية عجوز بالخالة هند هذه، وجدٍّ نوبي وحفيدٍ يلهو خلف كاونتر فندق مع طفلة بيضاء جميلة، بينما الآلات الرياضية من حولنا تُحدث طنينا متواصلا، وتمر من أمامنا نساءٌ غارقاتٌ في

عرقهن، وتكاد الدماء تطفح من وجوههن من فرط الجهد الذي يبذلنه، هوسا بجسد أكثر نحافة، أو تفاجئنا هدى أو رضا أو مدام أمينة بخبر عن اشتباكات، وحروب شوارع، وغاز فائر في سماء القاهرة، وتنصحنا بعدم مغادرة الجيمنازيوم إلى أن تهدأ الأحوال.

"بالإضافة إلى غرفة مدام ميشيل التي صارت غرفة خالتي هند، لم أجد في البنسيون أروع من المطبخ الفسيح بآخر الطرقة. مساحة هائلة تجمع بين رهبة غرف العمليات، ودفء وحنان البيوت. بوتاجازات ضخمة وشوايات ومضارب وعصارات، وثلاجة ببابين ماركة فريجيدير، وأواني نحاسية، وأطباق صيني بافاري ثقيلة، وأطقم شوك وملاعق وسكاكين مطعمة بالفضة، عهدت بهم مدام ميشيل إلى عم الضوي، وشباك عريض يطل على الشارع الجانبي المؤدي إلى البحر ونسمات اليود، وأشعة شمس ساطعة تفرش أرضيته حين نزيح الستارة الكاروهات ذات الكرانيش الصغيرة. والأجمل هي الأطعمة التي تتوج الأطباق الخزفية، وتخرج محمولة على صوان عريضة، كل يوم في مواعيد ثابتة للإفطار والغداء والعشاء، كل له لون ونكهة ومذاق. لحم الانتركوت والفيليه بالشامبنيون من باريس، النبيذ من الألزاس واللورين، المأكولات البحرية من نورماندي، بالإضافة إلى حلوى صوص التفاح والخرشوف والقرنبيط من ليون، والدواجن والنقانق من سافوي. حفظت تلك الأسماء من عم الضوي، وهو يتفنن مثل فنان تشكيلي في وضع التوابل، وإضافة الفلفل والخل أو النبيذ الأبيض إلى الصلصات المختلفة، بعكس الجبن القريش والزيتون الأسود ومأكولات البقالة الجافة والفقيرة أحيانا، التي اتناولها في بيت خالتي الثانية في القاهرة، حين تمر عليّ في المدرسة الداخلية، وتأخذني كل أسبوعين لقضاء يوم الجمعة في شقتها المتواضعة بحي عابدين.

الغرفات المؤدية إلى المطبخ ببنسيون "مونمارتر" تخص عمي الضوي، وتخزين الأدوات وغرفة حفظ الحقائب، لذا نكون في مأمن من التعليمات الصارمة التي تصدرها خالتي بعدم إصدار أي صوت قد يزعج النزلاء. أما الأمر الأصعب هو عدم الظهور بتاتا في ملابس النوم، أو بشبشب البيت، أو بملابس غير مكوية، خاصة يوم المرور الاسبوعي لمندوب الصحة، حيث ان عدم المثول لتعليمات النظافة، قد يكلفنا غلق الفندق.

أشعر أحيانا أن أصابع خالتي هند تحركني عن بعد من مكانها الأثيري الآن، على الرغم من مرور عشرين عاما على وفاتها، مثلما كانت تزورها مدام ميشيل حماتها في أحلامها، لأنها ورثت اسمها وغرفتها الملكية بعد موتها. أكاد اسمع وقع خطواتها خلفي وارشادات النظافة تتردد كالهمس في أذني. تلفحني أحيانا سخونة أنفاسها بجواري في الفراش فأتقلب في نوم متقطع، مثل أيامي الأولى في البنسيون، مع كل فتحة باب أو جر للحقائب أو هبدة توقف الأسانسير الحديدي العتيق المجاور لشقتنا، التي يصفها بعضهم بال "جنة". حين أنظر في المرآة، أستشعر كف خالتي هند الطري يربت على كتفي، أنظر خلفي فجأة وأنا على يقين انني سأجدها بشحمها ولحمها، لكني أسرح في مرآتي فأجد فمها المرسوم بعناية وأنفها المرتفع قليلا وعينيها العسليتين تحملقان في، من وجهي أنا في المرآة. لا أخاف من فكرة الشبح وأقول لها مداعبة: "انصرفي يا روح خالتي". أما الرعب الذي لا يفارقني بحق هو أن أموت مثلها.. عارية".

الأمكنة والشخوص والمشاعر التي تعبر عنها مدام أميرة، تتركب على شريط وهمي يصوره عقلي، وأتوه معه كأنني أشاهد فيلما بالأبيض والأسود، حتى أنى لا ألحظ مندوبة شركة المنتجات الغذائية وهي تضع أمامنا ورقة الدعاية على طاولة الكافيتيريا، ومدام أميرة التي انخرطتْ معها في حوار حول النظام

الغذائي المتوازن. ترد أميرة ورقة الدعاية للمندوبة في هدوء وتقول: "عارفة ايه الريجيم المتوازن؟ انك تمسكي تورتة شوكولاتة بالآيس كريم في إيد، وتورتة تشيز كيك بالتوت ف الإيد التانية، بس بشرط يكونوا نفس الوزن.. هاهاهاها".

تقاطعنا أيضا مدام أمينة صاحبة الجيمنازيوم، وهي تملي على مدام أميرة عنوان ورقم هاتف هدى عاملة البيديكير التي اختفت، فربما عثر عليها فريق "هنلاقيهم" الذي تقوده مدام أميرة للبحث عن مفقودي الثورة.

تواصل مدام أميرة حكايتها في تلقائية وكأنه لم تحدث لها مقاطعة أو استفزاز من أي نوع:

"للحكاية وجهان أو أكثر: ما أعرفه بترتيب حكايات ألف ليلة وليلة، أنه في سالف العصر والأوان كانت هناك امرأة فرنسية تمتلك شقة فسيحة تطل على بحر الاسكندرية، مات زوجها وترك لها ابنا واحدا. كان للسيدة الفرنسية جار وزوجته، تنبعث من مطبخهما روائح ونكهات تُدخلها في نشوة شمية، وألهمتها ذات ظهيرة أن تحول بيتها إلى بنسيون به مطعم، وأن تستعين بالطاه الذي يقلب كيان العمارة بمهارته، وتمنحه تحية وإيماءة بالرأس كل صباح وهو صاعد أو هابط من شقة هؤلاء الجيران، الطباخ الأسمر اللطيف كان عمي الضو في شبابه، الذي استغنى عنه الجار في نوبة غضب، حيث كانت تدافع عنه سيدة البيت وتنصفه على زوجها في أية مشكلة تخص الطعام، المشادة الأخيرة كانت مرتفعة الصوت جدا، وكأنها تدور في شقة مدام ميشيل، ومع هبدة الباب بالدور العلوي، جرت مدام ميشيل وفتحت باب شقتها وعرضت على الضو وظيفة مدير بنسيون وطاهي ومسئول مالي، وجهزت له مطبخا محترفا بربع ما ورثته، وكأنه عريس تجهزه عروسته، علمته أطيب الأكلات الفرنسية واشتريا معا المناضد والمقاعد والغرفات من الموبيليا المستعملة بحي العطارين، وضعت لمساتها في كل الأركان لتهيمن على المكان روحا واحدة، تجعلك تشعر

أنك في حي مونمارتر بباريس، حيث زينت الجدران بلوحات زيتية مقلدة للشوارع الحجرية المؤدية لكنيسة الساكريكور بفنانيها وبيوتها البيضاء والزهور الملونة التي تتدلى من شرفاتها، تلك الصور كانت كالنداهة التي جذبت ابن مدام ميشيل إلى الحي نفسه فيما بعد، حيث سافر ليكسب عيشه من رسم البورتريهات للسائحين في شوارع باريس، وحين عاد في أجازة لزيارة والدته في الإسكندرية، كانت خالتي هند نزيلة بالبنسيون حيث إلتقيا وتزوجا خلال أسبوع، لم يشعر جون ميشيل أنه في بيته، وانتابته الحالة التي تتلبس من هم على سفر، حيث تخلع قيودك ومكبلات روحك أو تتجاهلها حتى لا تعكر صفو المدة المحدودة المتاحة للبهجة، لهذا لم يستمع جون ميشيل لتحذيرات أمه بأنها لا تعرف أصلا ولا فصلا لهند، التي تقضي يومين كل شهر بالفندق ثم تختفي، وبعدما تم إنجاز كل الرسميات من توقيعات ومستندات بدأ العروسان أيام العسل في شقة خاصة بشاطئ ميامي، وذات تمشية عصاري بجوار بئر مسعود، حيث يرمي العاشقون بعملات بعد أن يتمنوا أمنية غالبا ما تكون أن يعود الحبيب، صمم جون ميشيل أن يقفز إلى بئر مسعود ويأت لخالتي بحفنة عملات، إلا أن ساقه خانته واصطدمت رأسه بحافة الصخرة التي صعدت منها روحه، وبدلا من حفنة عملات معدنية، صارت خالتي مالكة لبنسيون مونمارتر، حيث أن مدام ميشيل كانت قد كتبته باسم ابنها، حتى تحفزه على البقاء في الاسكندرية لكيلا تموت وحيدة، صارت خالتي هند نذير شؤم في عيني مدام ميشيل، فضيقت عليها الخناق في الخروج من البنسيون، أو مغادرة الغرفة، أو حتى الظهور بملابس النوم أو شبشب البيت أو التحدث بصوت مرتفع، وكان وسيط التهدئة والهدنات بين المرأتين هو عم الضو، خاصة حين أتت بي خالتي هند من بيت والدي بعد زواجه الأول، لم تدم المشاحنات سوى فترة وجيزة، حيث لم تتحمل مدام ميشيل أن تشاهد ليل نهار، المرأة التي سرقت ابنها وبيتها واسمها ففارقت الحياة بهدوء في سريرها، مالم تكن

تتصوره أن خالتي هند ستحتل أيضا الغرفة الملكية ذات الورود المنقوشة بألوان ناعمة على ورق الحائط والمفارش الدانتيل التي تغطي السرير والمنضدة المستديرة، وأنها في ليال الصيف ستحتضن ابنة أختها اليتيمة على الفراش نفسه، الذي ستستقبل فيه أيضا الزوج تلو الزوج من نزلاء البنسيون الذين يستمتعون بكونهم ملوك الغرفة البديعة، ثم يزهدونها بحكم الاعتياد ويعودون لزوجاتهم أمهات اولادهم، ومع كل ضيف جديد على الغرفة، كانت تنتاب خالتي هند نوبات نعاس قصيرة جدا، تشاهد فيها ملامح مدام ميشيل وفمها المطلي بالأحمر القاني يقول لها بالفرنسية: "سارقة الرجال"، صحيح أن خالتي هند كانت تأت بصورة رجل ما وتركز في ملامحه قائلة:" أشعلت قلبك يا فلان يابن فلانة بمحبة هند بنت إحسان، تأتي ولهان حيران هيمان، لا يهنأ لك مكان إلا مع هند بنت إحسان"، لكنها كانت تتنهد حسرة بعدها لأن تلك التعويذات كانت تطلقها دائما بعد فوات الأوان، حين يكون المقصود قد غاب بلا رجعة، فهند لم تسرق رجلا عن قصد، كانت فقط تجذبهم بسحر خفي في عينيها اللتين ورثتهما عنها، وبعدما يبطل السحر بفعل الاعتياد والزمن، لا تنفع أية تعاويذ أو تعازيم لإعادته، ولأني أشعر بالحبل الشفاف الذي يربطني بخالتي هند، صرت أترك الرجال قبل أن يغادرونني.

بالنسبة لي كانت خالتي هند امرأة الصيف، مراجيح وسيرك في ملاهي "كوتة"، وحضن طري بغرفتها الحلم، وملابس نوم حريرية بالدانتيل وحكايات حبها لأبطال عديدين، ترويها مع صعود دخان سيجارة قبل النوم التي تحدث ثقوبا بحواف محروقة في ثيابها الحريرية، وحفلات الظهيرة بسينما ريالتو وكرواسون من تريانون وشوكولاتة بالحليب من البن البرازيلي وأطباق جمبري من "نصار" و"ايليت"، وإهدار حتى آخر قرش صاغ في كيس نقودها ثم انتظار إيراد الأسبوع الذي يسلمه لها عمي الضوي، ثم صاحب

الطفولة "كريم" واللعب بصوت خفيض في المطبخ، أو لعبة النظافة التي كنت أسلي بها نفسي حين أكون وحيدة، حيث أحمي عروستي بالماء والصابون وأضع لها العطور، ثم أقوم وأغطي جسدي بالرغوة بعناية ومزاج، حتى لو مررت بجوار أحد، يستنشق باستمتاع رائحة النظافة التي تهب من ملابسي وشعري، حتى وإن كلفني ذلك بعض التأخير على المواعيد حين كبرت، وفقدان بعض الصديقات اللاتي يحرصن على الوصول في الموعد المحدد. ربما تكون تلك الهالة من روائح الياسمين أو اللافندر التي تحوطني دائما، هي المجال المغناطيسي الذي ظللت أنا و"ناصر مختار" ندور فيه إلى ما لا نهاية، هو لأنه يمتلك شركة لاستيراد المناديل المعطرة وأدوات التجميل، وأنا الفتاة العصامية التي تعمل لديه في أجازتها الصيفية. وعلى الرغم من تقاربنا الوجداني والمكاني صار زواجنا مستحيلا لفارق السن، حيث يكبرني بخمسة وعشرين عاما، كما لم يقو أبدا على مواجهة بناته بأنه سيتزوج فتاة في عمرهم. كان هذا منذ أكثر من عشرين عاما ولا يزال، حتى بعد أن تمت خطبتي مرات ثلاثة، وفي الرابعة تمّ الزواج، وأنا لازلت مقيدة على حُب ناصر".

تتخلل حواراتنا تمرينات الرقبة دائما. تجلس مدام ميرا في وضع مستقيم. تمسك بجانب الكرسي باليد اليسرى. ترفع الذراع الأيمن لأعلى، مع وضع اليد اليمنى على الأذن اليسرى. إمالة الأذن اليمنى ناحية الكتف الأيمن، التوقف عن الإمالة حتى الشعور بشد عضلات الرقبة. الرجوع إلى الوضع الأصلي. الاسترخاء قليلا وتكرار نفس الخطوات مع الناحية اليسرى.

"لابد أنك تعرفين أن بالرقبة فقرات سبعة، لو انزلق أحدها وضغط على الغضروف، سيجعل حياتك لا تطاق. لهذا يطلق الإنجليز مجازا تعبير "ألم في الرقبة" على الأمور المقرفة. ولابد أيضا أن لتلك الفقرات أسماء طبية. أما فقراتي أنا التي تنزلق وتتلوى وتنحرف فلها أسماء تخصني وحدي، لأنها ببساطة تزعجني وحدي".

1. كريم إدريس الضوي.
2. عم الضوي
3. ناصر مختار
4. الدكتور حسن مرعي المحامي
5. أشرف زوجي
6. صمود بنت خالتي فكرية
7. خالتي هند

ليس هذا ترتيبا مقدسا، فقد تلتصق الفقرة الأولى بالثانية ويتداخلان والرابعة ثم تخترق الثالثة وهكذا.

"نعم كنا نلهو في المكان نفسه ونمتلك نفس عدد سنوات العمر حين التقينا للمرة الأولى. كنا في الرابعة من عمرنا. كما كنا نحمل الوصمة نفسها التي تثير الشفقة، ألا وهي اليُتم. ورغم ذلك كنت أدرك بحدس طفولي أنني أمتاز عن كريم لأنه حفيد عم الضوي، الذي مهما زادت صلاحياته، فإنه في النهاية خادم لدى مدام ميشيل الأصلية، ثم خالتي هند- مدام ميشيل المقلدة. كما أتميز عنه بكوني يتيمة الأم فقط، فأنا لي أب. صحيح أنه كان يتنقل من إعارة إلى أخرى

ومن المرأة تلو المرأة، لكنه كان يترك لي مبلغا سنويا خمسة جنيهات مصرية فقط لا غير، يفترض أن تغطي مصروفات المدرسة الفرنسية الداخلية بالقاهرة، وما يستتبع ذلك من كتب خارجية وفساتين وأحذية تليق بمصادقة بنات الذوات، مثل نهلة. يكفي أن والدها كان يمنحني مبالغ أضعها في يد خالتي هند في العيدين الصغير والكبير، وفي عيد ميلادي، وحتى في أعياد الكريسماس ورأس السنة، وهو نفس موعد الزيارة السنوية لمحل الساعات الذي يمتلكه عمي بشارع النبي دانيال، ليسلمنا الجنيهات الخمسة في مظروف به رسالة من بابا. كانت خالتي هند تلبسني الفستان الأجمل والأجدّ، وتربط شعري بالشريط الحريري، لنثبت له أننا جديرون بالخمسة جنيهات التي يعطيها لي مع قالب شوكولاته هدية منه، وعروس هدية من بابا، غالبا كلفه بشرائها من الإسكندرية لكنه يزعم أنها من البلد البعيد الذي يقيم فيه. تسود فترة صمت قصيرة، لا تملؤها سوى رتابة عشرات التكات الرفيعة والثقيلة من ساعات الحائط التي تكسو جدران المحل. أملأ عيني بملامحه التي تشبه بعض ملامح بابا، وأتنفس بقايا عطره قبل أن أنوي مباغتته بالحركة التالية، وهي أن أرتمي في حضنه وأنا أغلق عيني مفترضة انه أبي، إلا أن عدد رهيب من الدقات يقرع في الثانية ذاتها. أجراس كأجراس الكنائس، وأجراس الشقق، وأجراس المدارس، وديوك صغيرة تفتح أبوابا من بيوت خشبية يتدلى منها بندول، وتصيح بأصوات عالية ومبحوحة. يخرج عمي كاتينة من جيبه ويتأكد أن العقرب الصغير يستقر تماما على الرقم تسعة، والكبير على الرقم أثني عشرة. تمام التاسعة مساء، موعد غلق المحل، ودخول خالتي هند وسحبي من يدي سريعا حتى لا نشهد ما قد لا يعجبنا. فقد علق عمي لافتات عديدة وبلغات مختلفة، مفادها "الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك"، وما كان يمكن أن ندع سيف موعد إغلاق المحل ينزل على رقابنا ويفصلها عن أجسادنا. لم أفهم أبدا لماذا تحرص خالتي هند على الحفاظ على الخيط الذي يربطنا بأبي وعائلته كل هذا الحرص،

وافتعال الامتنان بالجنيهات التي نهدرها في فسحة يوم واحد. فقد كانت ترقق صوتها في الأعياد وهي تلقي عبارات التهنئة على أعمامي في الهاتف، وتلبسني أجمل الثياب وتنظف الفندق مثل يوم الكشف الدوري لمندوب الصحة، حين كانت تعلم أن أبي سيمر كل عامين مثلا لرؤيتي، لكني لم أجد العبارات المناسبة التي تعبر عن دهشتي من أدائها غير المبرر، مثلما كنت لا أجد العبارات التي تناسب ما أرغب به من تربيت على الرأس أو ضم الكتف أو الراحة بداخل حنان أبوي. وحين صرت في السابعة عشر وقررت طرح تساؤلي واستنكاري لسلوكها، أتتني الإجابة وثمرة مجهودها مع هاتف عمي الذي أخبرنا فيه بوفاة أبي بعد قيامه بنزع ملابسه ومثوله لجراحة شفط دهون البطن منذ أسبوع في الإمارات، وطلب مني الحضور إلى المحل في تمام الثامنة إلا الثلث. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي ألهث فيها للوصول في موعد محدد. لم يكن عمي بمفرده، وان كانت الرائحة الأبوية التي تحثني على الارتماء في حضنه قد هيمنت على المكان بصورة مضاعفة. تلك كانت المرة الأولى التي أرى فيها الدكتور حسن مرعي المحامي، الذي ناولني أوراق تملك شقتين تركهما لي والدي، واحدة في سيدي جابر والأخرى في شارع محمد محمود بوسط القاهرة. سيتم تأجيرهما بواسطة عمي، ليصرف عليّ من إيرادهما، حتى أبلغ السن القانونية وأتولى أمر نفسي بنفسي. وحين قرعت أجراس حوائط المحل دفعة واحدة في تمام التاسعة، شعرت بها وكأنها موسيقى جنائزية ممتزجة بجلاجل وزغاريد.

بعد أعوام أربعة سأمتلك مفتاحا لباب خارجي لشقة، بل اثنتين، سأقول لخادمتي: "هاتيلي الفطار ف أوضتي"، بدلا من "أنا ف أوضة 6". سيكون اسم المدخل فيها: "الطرقة" وليس "الاستعلامات".. والمطبخ "مطبخ" وليس "بوفيه".. والسفرة "سفرة" وليس "المطعم". سأخرج من الحمام إلى غرفتي بقميص النوم أو بالبُرنُس أو بفوطة ملفوفة حولي، أو حتى سأتقطر ماء نظيفا

يفوح بنكهة شامبو الفواكه وصابون اللافندر وهو يبلل أرضية الصالة وأنا أعبرها.. عارية!!"

"صحيح أني كنت أحملق في كريم مندهشة، وهو يعتلي خشبة مسرح قصر الثقافة أو النادي النوبي ويتغنى بحروف غامضة وصوت رفيع مبحوح وعذب، وكأنه ساحر يلقي بتعاويذ سرية ليُسخر كل الموجودين للإعجاب به، أو حين يتوسط منصة في ندوة عن كفافيس ويلقى أبياتا من شعره، ولا أنكر أني كنت أرخي جفوني في دلال حين يغمز لي ويبتسم، إلا أنه حين لامس أطراف أصابعي وثبت نظراته على عيني، هامسا بكلمة "باحبك"، شعرت باضطراب في معدتي مصحوبا بغصة في الحلق، انعكس تأثيرها على تعبيرات وجهي، فما كنت أتصور انه سيجرؤ على التصريح بها يوما، احتراما لفارق الترتيب الاجتماعي والخلفية الدراسية و.. اللون!!".

"حتى أنا نفسي لا أصدق البراعة التي تم بها تقسيم الفترة ما بين حصولي على الثانوية العامة، ومابين العام 2011. ثمانية وعشرون عاما، بها مراحل سبعة، كفقرات العنق، كل مرحلة منها تساوي أربعة أعوام، في دقة وصرامة مثل تكات ساعات دكان عمي، ولا تناسب انفلاتي وسمعتي الرديئة في الوصول إلى أي موعد:

أربع سنوات دراسة في كلية حقوق القاهرة.

أربع سنوات تدريب بمكتب الدكتور حسن مرعي في الاسكندرية.

أربع سنوات ماجستير في فرنسا.

أربع سنوات عودة للتدريس في الجامعة.

أربع سنوات السفر مرة أخرى للدكتوراه.

أربع سنوات في مصر.

أربع سنوات في فرنسا.... تك تك تك تك تك تك".

"أكافئني كل فترة بحجر شيشة تفاح في "جراند كافيه" المعادي، بعد أن أشاكس وأداعب جميع الجرسونات وعمال الشيشة الذين يتسابقون على تغيير الحجر، أو عرض نكهات أخرى كالكانتلوب والخوخ والنعناع. رائحة وإن تلوثت بأضرار التدخين، مازالت تحمل نكهة عذبة مثل المناديل المبللة بالكولونيا ولوسيون تنظيف الوجه وكريمات ترطيب البشرة التي كان يكافئني بها ناصر مختار بصفة دائمة.

"كيف ترين العالم بهاتين العينين الواسعتين؟ وكيف تحلو الأشياء حين تلامسها تلك الأصابع؟".

كان هذا هو سؤال "ناصر مختار" المتكرر منذ عملت سكرتيرة في شركته وأنا ما زلت طالبة، وكلما حدثت بيننا مشكلة ونظرت له معاتبة، فتذوب المشكلة مع مشاكسته وعذوبة كلماته، وان كنت لا أميل لتصديقها حرفيا، حيث كان يكمل المصالحة بدستة من العدسات الملونة بجميع درجات الطيف، وعبوة بها أربع زجاجات مستوردة من طلاء الأظافر بدرجات الفوشيا التي يعشقها. وحتى لا أتنازل تماما عن قضيتي أرد عليه بغيظ مفتعل: "وهل تستطيع عيناك الضيقتان أن تريا كل ما نرى؟" فلم يكن يرى أنني سأستطيع أن أكون زوجة عاقلة وراضية بفارق العمر الذي لا أشعر به أصلا. لم يكن يرى أنني سأكون صديقة رائعة لبناته اللاتي تعشقنه مثل حبيب، وأنني سأشفق على زوجته المنفصلة نفسيا عن الدنيا. لم ير الدموع التي كانت تبلل الأوراق الكثيرة

التي أملأها بحيثيات وبراهين وأدلة على أني لن أنظر إلى قراري بحسرة بعد أعوام عشرة حين يصبح هرما وأنا أتحسس طريقي نحو الحياة، مثلما يقول. كما لم ير أيضا استحالة أن أقف عارية أمام رجل سواه. وبرغم عينيه الضيقتين، كان يهديني عشرات العدسات الملونة لأرى الحياة المبهجة التي يصنعها لكل من يقترب من مجاله. كان يخلق من الرقعة الصغيرة دنيا، ومن الأفق الواحد أكوانا. على الربوة العالية التي تتدرج أسفلها درجات خليج نبق بشرم الشيخ، كانت تطل شرفتانا الدائمتان في رحلاتنا المختلسة إلى الأزرق والأخضر والأصفر والأبيض بدرجاتها. بحر ورمال وخضرة ونخيل وبيوت بقباب ناصعة البياض وشبابيك زرقاء، نتخيلها تارة في جزيرة يونانية، وتارة على ساحل أسباني، وتارة ثالثة في قرية تونسية على ساحل البحر المتوسط. وفي المرات الثلاث التي أقنعني فيها بإتمام عروض الخطوبة التي تخللت فترات متباعدة من علاقتنا، حتى لا تقتله عقدة الذنب لأنه أضاع حياتي، كنت أعود لـ"جراند كافيه" المعادي لأكافئ نفسي بنكهات الشيشة، لأنني خلعت نفسي من ورطات الخطوبات، وأتيت مبكرا كحدث استثنائي، لنحتفل سويا أنا وهو بفشل المحاولة.

وفي المرة الرابعة تركت نفسي أنغمس للنهاية في التجربة، وأعيش ما اشتهيته من رداء من التل الأبيض ومأذون على منصة وفرصة في إنجاب طفلة أحممها وأعطرها، ورحلة أسبوع عسل مع أشرف الذي صار زوجي، حين تأكدت أن ناصر يصر على أن عينيه الصغيرتين تريان العالم أفضل مني، وحين لمحت في إصبع زوجة ابنه، الخاتم البلاتيني الذي كان قد أهداه لي ذات مزاح كهدية خطوبة. رأيت الخاتم ذا الفص العقيق المحاط بالفيروز، وهو يحتضن إصبع امرأة أخرى، حين أتت كموكلة في مكتب الدكتور حسن مرعي الذي عملت به بعد التخرج، فعقدت العزم على الانتقام لغبائي الذي جعلني أسلمه الخاتم ليشتري لي خاتما من ذهب

على مقاسه، ثم أرسل لي هدية خطبتي علبة ذهبية ضخمة بها عطور بأنواع الزهور جميعا، وطاقم عدسات بكل الألوان، حتى أرى الحياة بشكل أجمل. لم أقرر إتمام الزيجة فحسب، بل أن أتجرد من كل ملابسي أمام رجل غريب، أشرف زوجي.. وقررت أنه مهما طال الزمن سأسترد الخاتم".

"صباح اللهفة المجنونة المحكومة بانفجار الكون عشقا وضما ولمّا وذوبانا وتقبيلا نهما".

"أي رجل يقدر على أن يصوغ جملة كهذه في رسالة صباحية سوى محامي محنك مثل الدكتور حسن مرعي؟ وأية امرأة يمكنها أن تصدّ بفجاجة من له هذه القدرة التعبيرية، حتى وان كانت لا تستهويها ملامحه؟ حتى وان كانت لا ترغب في أن تعلنه حبيبا أبديا على الملأ؟ من الفتاة التي تواجه هذا التدفق العاطفي، بين جدران أربعة تكسوها لوحات سوريالية لزهور ليلك ولافندر وكاميليا وتفوح فيها ذرات معطر الجو بنكهة التفاح أو الفراولة؟؟ وأية فتاة يصدها الرجل الذي تعشقه وتتمنى أن تتزوجه برغم فارق العمر، لأن له زوجة ذاهلة وبنات يخشى أن تهتز هيبته في أعينهن، ثم يتلقفها الدكتور حسن مرعي، نجم المرافعات وحاصد البراءات، ويركع خاشعا في حضرتها، لمجرد أن تنفذ طلبه الصغير في أن "تحبه مثلما يحبها؟".

أهدتني خالتي هند خرزة زرقاء، كحرز من الحسد، لعملي بمكتب حسن مرعي، ذي الشهرة والمكانة الرفيعة فور تخرجي. تدريب بأجر في فرع المحاماة، وتطوعٌ وخبرةٌ في فرع حقوق الإنسان.

المرة الأولى التي وجدتني فيها غارقة في غرام رجل متزوج، كنت مثل فتاة ريفية امتلأ بطنها بجنين من علاقة محرمة. هذا ما كنت أشعر به مع ناصر

مختار، وحين كان يطلق سراحي بين الحين والحين ليمنحني الفرصة في حياة سويّة، كنت أحس براحة من تخلصت من الجنين والفضيحة، لكن يظل يملأني بالخواء وبوأد عاطفة أمومة عميقة. وهذا ما تكرر بضعة مرات، فكل من كانت لي معهم حكايات من المتزوجين، لم أكن بالنسبة لهم نزوة عابرة مع فتاة مرحة وشهيّة يلهون بها، بل كنت في أشد لحظات ضعفهم أما لطفل تجاوز الخمسين. أربع سرقات صغيرة عاد فيها المسروق إلى زوجته، مثلما كان يزهد نزلاء خالتي هند في الغرفة الوردية المطلة على البحر. إلا أنى لم أكن أقرأ التعازيم مثلها لكي يعود الغائب، فقد كانت هذه هي أكثر الفترات التي أجد حياتي متسقة مع حماستي الإعلامية لرد حقوق النساء المسلوبة، لأني لم أكن أدري وأنا بداخل الحدوتة عن أية امرأة أدافع.. الأولى أم الثانية؟

لم أهرب من المكتب في المرة الأولى بحجة منحة الماجستير، ولا لأني أعي تماما أني كنت أستسلم فقط لرائحة "جورجيو أرماني" التي يسكبها الدكتور مرعي في كفيه، ثم يربت بهما على خديه، فيحملانني إلى ذكرى ملمس جلد ناصر مختار المعطر بالماركة نفسها. فلقد طرت إلى باريس هربا من خوف كان يلازمني كلما أغلق الدكتور مرعي علينا بابا. كانت عيني تمسح الحوائط والأركان والأسقف، وأتحسس المقعد والمكتب والأريكة، حين يغادر الغرفة أو ينشغل بالرد على الهاتف. شغفه بكل حرف ينطقه الموكل وكل همسة أو إيماءة، قد تكون دليل إدانة أو تعين على البراءة، جعلته يثبت في مكتبه عيونا إلكترونية وميكروفونات بحجم حشرة صغيرة، تقتنص الحوارات وتحولها إلى شرائط مسجلة ومصورة، تودَع في أرشيف المكتب. ومنذ أن قال مازحا إنهم في الغرب ابتكروا كاميرا ترى ما تحت الملابس، تمكّن مني رعب طفولي، بأن كل لقاءاتنا سوف تصير مستباحة وتباع على الأرصفة كأفلام واقعية بطلتها محامية عارية".

"ما أُخِذَ بسيف الحياء فهو حرام، فلا تعطوه حتى لا تعينوا الآخذ على الوقوع في المحذور شرعا". وهل تهتم "صمود" بنت خالتي فكرية، بأنها تأخذ ما تأخذه مني، وما كانت تأخذه أمها من خالتي هند، مثل من يمسك سيفا حقيقيا ويضعه على رقبة إنسان حتى يمنحها ما تطلب؟ غصةٌ يابسة في الحلق، هي وأمها وأخوها منذ وعيت على العالم، وعلى شقة عابدين المعتمة والمفعمة برائحة شعر القطط والسجائر المطفأة في الماء والرطوبة المختزنة في الحوائط المتشققة، وغرباء يتجولون في الصالة ويخلفون نقاطا صفراء على أرضية الحمام. يوم أصوم فيه عن الكلام والاستنشاق وتبديل المريلة والقميص الأبيض، مرة وحيدة في الشهر، حتى لا أترك طوال العام الدراسي حبيسة الإقامة الداخلية مثل راهبات الدير الملحق بالمدرسة.

العينان الواسعتان نفسيهما، اللتان تحتلان معظم وجه خالتي هند، كانتا تميزان وجه خالتي فكرية، لكن بجحوظ يتناسب وبروز فكها بأسنانه الذي حوله الشره في التدخين إلى اللون البني، مثلما بدل صوتها ليصير ذكوريا قويا، بعكس عضلة قلبها التي وهنت وتعطلت ثم توقفت تماما، لتلتقط خالتي هند أنفاسها قليلا بعد وفاة أختها فكرية، وترتاح من الإتاوات نصف الشهرية المصحوبة بإقامة كاملة في البنسيون ونظرات تطلق سهام غِلٍّ واستخسار للنعمة، ومزاح سخيف بأنه لا بيت لنا يؤوينا "مثل كل الناس"، في الوقت ذاته الذي تؤجر غرفة أولادها "صمود"و"صدّيق" لغريب ما، كلما جاد عليها سمسار عابدين بوافد يبحث عن مأوى رخيص.

ثقيلة كاسمها.. "صمود" المتدللة بـ"صاصا"، تتقرب إليّ عند كل عملية ابتزاز مادي وعاطفي، بإفشاء سر جديد، فتصير شهرزاد ومسرورا السياف معا. حين خفضت صوتها وضيّقتْ عينيها وهي تطالب بمقدم سيارة أجرة

تعين زوجها على إعالتها وطفليها، قالت إن خالتي هند، بعدما سافرتُ للدراسة، صارت تهوى الشباب الصغار، حتى تزوجت الأخير الذي "ملطها"، فباعت الغرفة تلو الغرفة لعم الضو، ثم إدريس، ثم حسنين، ثم نزلت إلى القاهرة لتقيم مع "صمود" و"صدّيق" في شقة عابدين. وحين كشفت "صاصا" عن ناب مدبب وصوت داعية تحذرني من ألا أعطيها "حسنة يتبعها أذى"، لأنها كانت تود أن تنجب طفلا صغيرا ثالثا يسليها، وتريد مصاريف الولادة في المستشفى الخاص، وزوجها بلا عمل منذ ترك وظيفته المرموقة كسائق للسفراء، ولن يقبل بعمل أقل أناقة. حكت أن خالتي هند صارت غريبة الأطوار قبل النهايات بقليل، فقد ضبطتها ذات ليلة تشوى الصراصير وتأكلها كمزة مع كأسين نبيذ. كانت "صاصا" تدرك بذكائها الغريزي أن إحداث صدمة لي، مع قليل من كسر العين لأنني ربيبة نعمة خالتي هند، سيجعلني أدفع "بالتي هي أحسن". أما حين أتت نافذة الصبر وقررت أن تجعلني أخصص لها شهرية ثابتة، هزت نبراتها برعشة حسرة مفتعلة حين أخبرتني أن أمها كانت قد أبلغتها أن خالتي هند في شبابها كانت عاشقة للعشق، وحين كانت تحلو في عيني شاب ويحلو في عينها، تبادله الهوى والغرام في مقابل أن يمنحها حفنة نقود، ولهذا قبل أن تلفظ نفسها الأخير بقليل، خلعت ملابسها ودخلت حمام شقة عابدين.. الذي وُجدت فيه جثة عارية.

الحبل الوثيق الذي ربطني في سنوات طفولتي بخالتي هند، كان قد اهترأ قليلا حين "عرتني" من السر الذي استأمنتها عليه عن علاقتي بناصر مختار، فقد فوجئت بخالتي فكرية، من أمقُت، في انتظار "ناصر" على باب شركته، وتطالبه بعون مالي كعربون محبة بعد أن أفشت لها خالتي هند سري العزيز.

كما أنه لا خير في آنية لا تحفظ ما فيها، صرت أغادر وأعود إلى خالتي هند، بإحساس يمزج بقايا امتنان بنظرة حسرة إلى "آنية لا خير فيها"، خاصة

بعدما فقد البنسيون طاقم الأنتريه الأثري وصالة الطعام والكاونتر المصنوع من خشب الورد، وزبائنه من بقايا الارستقراطية الزائلة، حتى اختفت مفرداته العتيقة وسط جحافل النزلاء من عمال الشركات الذين يأتون كأفواج في رحلات يتعاقد عليها "إدريس" و"أبنائه". حتى كريم اختفى منذ زمن وساح في أرض الله، كمطرب بوب في بلد، وشاعر في آخر، ومناضل أو رسام في بلد ثالث. أما ما جعل ماضينا معا بلا عنوان، فهو تغيير اسم البنسيون من "مونمارتر" إلى "فندق وادي النيل"، حتى يستسيغَ نطقَه الزبائنُ الجدُد.

العجيب أن حلم مفتاح الشقة الخاصة بي، وأمنية التجول بين الغرفات برداء النوم، لم تتحقق هي الأخرى، فما كان ممكننا أن أنهي دراساتي وأعيل نفسي، دون الاستغناء عن إيجار شقة سيدي جابر وشقة باب اللوق اللتين تركهما لي والدي. وظللت أتنقل بين بيوت الطالبات والفنادق الصغيرة ومشاركة آخرين في مقار الإقامة، حتى بعد زواجي من أشرف.

شقة سيدي جابر، أقرأ الفاتحة على روحها، في كل مرة تتهشم عمارة بالإسكندرية، وتتكوم كأنقاض فوق سكانها. أما شقة باب اللوق، فقد وجدت قوة خفية تحثني على أن ألحق حماما خاصا بالغرفة الأكبر، بعد أن زينتها بورق الحائط المنقوش بالزهور الوردية، ورصصت فيها كل ما غلا ثمنه من صوانات وكومودات مطعّمة بنفيس الأخشاب وبعض التحف المرصّعة بالفضة، حتى إن كتب لي أن أتزوج ثانية، ستكون بالنسبة لمن أعشقه غرفة مثل الجنة. وسأدهن المدخل بالطلاء الفستقي، وسأحرص على أن يتكلم موظف الاستقبال وباقي العاملين بصوت خفيض، حتى لا يزعجوا باقي النزلاء الذين سيقيمون معنا، في بيتي الجديد المسمى "بنسيون بارادايز". أسميته على اسم الجنة حيث ينسدل حرير السندس الأملس على أجساد المنعّمين فيها، ثم يلفهم حرير الإستبرق الأخضر الذي يلذ العين ويستر البدن".

وسكتت مدام ميرا عن الكلام المباح في تلك الظهيرة، لتتركني وتجرب للمرة الأولى تدريبات "الزومبا" الراقصة على إيقاعات موسيقى الصالصا والتشاتشا والمارينجي اللاتينية المبهجة.

" قالولي ياللا ع الجنة، قلتلهم الجنة بلادي". لم يكن فقط هذا المقطع من الأغنية التي صاحبت أحداث الثورة هو ما اعتصر قلب مدام "أميرة"، وجعلها تترقب قائمة الانتظار بشركة الطيران، لتترك عملها المؤقت في فرنسا، وتشارك بزرع وردة في الربيع المتفجر في شوارع بلدها، وان كانت صورة الملائكة التي ترفع الأرواح إلى الجنة هي ما ألهمتها أن تسمي بنسيون "باراديز" الذي ستقيمه في شقة باب اللوق، بعد أن تسلمت مفتاحها من آخر مستأجر.

مشاهد أخرى غمرتها بشجن يجاوره الأمل، وملأت فراغا خلفته سلسلة من هزات عاطفية وطلاق من زيجة تورطت بها لإغاظة حبيبها. أميرة الدائرة في شرنقة من الحكايات المتشابهة على مدار ثمانية وعشرين عاما، انفتحت أمام عينيها طاقات من ضياء، لم تشهد مثلها حتى وان ارتدت عدسات بكل ألوان الطيف. براويز مرصعة بصور وجوه مشرقة وعيون لامعة تتوسط دائرة من الشموع المضاءة على الأرض في حفل تأبين في قلب الميدان، ومانشيت عريض في الجريدة يزف صعودهم إلى السماء " *الورد اللي فتح في جناين مصر*". صورة الشاب ذو حقيبة الظهر المتصدي بمفرده لدبابة غاشمة. ألبومات الفتيات الباسمات ذوات الشعر الأملس الفاتح والمرسوم على وجناتهن ألوان العلم الثلاثة. لقطات تسجيلية قصيرة لسيدات راقيات في منتصف العمر، يرتدين الترينج

سووت والقفازات والأقنعة البيضاء، حتى لا يزكمهنّ تراب الشوارع التي ينظفنها برفقة بناتهن وأحفادهن.

رفعت مدام أميرة يديها بحذاء كتفيها في سعادة وترقّب، وهي تخضع لتحسّس كفوف الفتيات المكلفات بتفتيش كل من يدخل إلى ميدان التحرير، وسبيلها للوصول إلى شقتها. تنازلت راضية عن زجاجة العطر واسبراي الياسمين ماركة "كريستيان ديور"، ليوضعا على الرصيف مع المتعلقات التي تترك عند بوابة الميدان اتقاء للشبهات. سارت بخُطى حثيثة نحو الحلم باحثة عن الوجوه الناضرة التي طلت عليها في الصحف والشاشات وبروفايلات الفيسبوك. كانت قد سلكت مدخل عبد المنعم رياض. تحول جسدها إلى زورق صغير تتقاذفه شلالات من البشر، كتلا وفرادى. تدقق في الوجوه علها تتعرف على أي من شاهدتهم في الفضاءات الافتراضية. تتعثر قدماها في وتد خيمة رثة، تمارس بها عائلة ريفية طقوس حياتها من نوم وإعداد غداء وإرضاع طفل يبكي، تجاورها خيمة أكثر اتساعا تمتلئ عن آخرها برجال لهم ذقون بيضاء أو سوداء كثيفة أو محناة شعثاء. أطفال الإشارات المرورية ملح مرشوش في مفارق الخيام ومداخل الشوارع الجانبية. سيقان ممدودة لرجال ونساء أنهك أجسادهم النوم على الإسفلت. غريب يحمل طبقا به تمر، يقترب منها بشدة ويشير إلى لافتة ملتصقة بالتمر ومكتوب عليها بالإنجليزية "كنتكاكي". مجذوب يهتف "يسقط يسقط" وطابور من الرجال يردد خلفه.

الوجوه المصقولة والثياب الأنيقة لمفجري الثورة الذين يظهرون على الفضائيات ليست بين المشاهد التي تتابعت أمامها. الشلال البشري الذي يجرفها يهبط بها أمام المستشفى الميداني. خيمة متواضعة بداخلها أدوات إسعافات أولية. قمصان وتي شيرتات حال لونها من طيلة تعرضها للشمس منشورة على حبال وكأنه عمل سوريالي للفن الحديث، وبقع الدماء التي تلطخها، مازال بعضها

يحتفظ بلونه الطازج، وتحول بعضها إلى اللون البني الداكن. رائحة دماء من استشهدوا على الأسفلت اختلطت بعرق الأجساد التي تصطدم بكتفيها، وشقت قلبها بنفس حرقة مشاهدة العربات المجنونة وهي تهرس الأجساد على بعد أمتار من مكانها هذا. هنا استدارت وحفرت طريقا ضيقا إلى البوابة التي دخلت منها، حيث انتظرت قليلا حتى تنتهي المشادة الكلامية بين حفنة من النساء الشعبيات اللاتي رفضت بنات اللجنة الشعبية إدخالهن لعدم حيازتهن بطاقات هوية. استردت أنفاسها بعد أن استنشقت رشتين من قنينة العطر وزجاجة الاسبراي الـ"كريستيان ديور"، وقضت ما تبقى من أسبوع الأجازة في متابعة مشاهد الكر والفر والاشتباكات التي تسفر عن أعداد من القتلى والجرحى على القنوات الفضائية في غرفتها بالفندق المجاور لمطار القاهرة.

قيل لها بعد أن انفضّ الإعتصام، إنه كان عليها أن تدخل الميدان من ناحية كوبري قصر النيل، إن كانت ترغب بمخالطة من شاهدتهم على الشاشة. عزاؤها أنها لم تكن الوحيدة التي فتشت في الزحام عن وجوه وقابلت وجوها أخرى، وصفها بعض المتطرفين بأن أصحابها من البلطجية، ليرد عليهم الفريق الثوري بأن تلك هي أوصاف شعب ظل يتجرع المرض والظلم على مدار نصف قرن. هضمت التحليلات السياسية والاجتماعية التي طرحها متخصصون، وان ظلت مقتنعة بأن مدخل قصر النيل يشبه حياتها في بنسيون "مونمارتر"، مقارنة بالساعات القليلة التي كانت تقضيها ببيت خالتها في شقة عابدين، والتي ذكرها بها مدخل "عبد المنعم رياض" الذي ضلت طريقها إليه.

ومنذ ذلك الحين وهي تجوب بلاد الله، بعد أن رشحها القسم الحقوقي بمكتب الدكتور حسن مرعي، لتعتلي المنصات في المحافل الدولية، وهي تشرح للعالم حلاوة مذاق الثمانية عشر يوما التي قضتها في الميدان.

وقد تحولت شقة باب اللوق بعد شهور قليلة إلى أقسام ثلاثة؛ غرفة نوم مُرتّبة بسرير لفرد واحد، تختلس مدام أميرة لحظات متقطعة للنوم عليه، وبلكونة فسيحة استأجرتها محطة فضائية تنقل توابع الثورة لحظة بلحظة وتدفع لمدام أميرة خمسة آلاف جنيه يوميا، قابلة للزيادة في أيام الاشتباكات، وغرفتان وصالة لعمل الاجتماعات التي تمتد حتى منتصف الليل في مركز "الفردوس" لحقوق الإنسان، والذي كلما تذكرت صاحبته الغصة التي نقلتها من حلقها إلى حلق "كريم" حين صرح لها بحبه، استماتت في الدفاع عن حق أهل النوبة في مزيد من التقدير. ثم اجتذب مركز "الفردوس" الأضواء، بعد أن رفعت صاحبتها اللافتات أمام بوابات السفارات، تضامنا مع فتيات لم يجدن وسيلة لمناهضة العهر السياسي، أفضل من أن ينقشن عبارات احتجاجية فوق أجسادهن العارية.

أما ما أزاح شبهة الترويج المجاني للإباحية عن مركز "الفردوس" الحقوقي، فهو خلو وجه مديرته الدكتورة أميرة من أي مسحة تبرّج، بالإضافة إلى حرصها على أن تلفّ نفسها بملابس لا تصف ولا تشفّ، ولا يظهر من جسدها الممتلئ سوى الوجه والكفين.

سويسرا

من لم يحلم ندم

الإمام علي

- ينوء الفراش تحتي، وروح "فلاديمير نابوكوف" الهائمة في الغرفة، تربت على كتفي، وتهزني لأبدأ يوما من العمل. مازالت الساعة السادسة صباحا، والنهار الممتد حتى التاسعة والنصف مساء، بتوقيت سويسرا، يفتح ذراعيه باكرا. الفاكهة المحرمة تتراصّ بألوانها الأحمر والأخضر والأصفر في صحن عميق بالدور الأسفل بالمطبخ. تناديني فأستجيب، وأقضم واحدة، دون أدنى توجّس بأن الخروج من الجنة سيحل على مائدة العشاء ليلا، على الرغم من ثراء قائمة الطعام، احتفالا باكتمال سكان القصر. فالليلة سنحتفل بقدوم الشاعرة الروسية "أولجا بوكوفا"، وتصير لنا خريطة بشرية، تطل منها وجوه خمسة بألوان بلاد الأرض.

لليقظة اليوم حلاوة تغنيك عن التعلق بأهداب حلم، فالواقع كان سخيا في الشوارع الضيقة حول القصر، على الرغم من خلوها، إلا من بعض العربات المسرعة، والعجائز اللاتي يتنزهن بكلابهن، ويومئن لك برؤوسهن، وعلى وجوههن بسمة تفاؤل، لا تليق بأعمارهن، وهن يقلن لك برّقة: "بونجوور".

البيوت الصغيرة ذات الأسقف المائلة، بالقراميد الحمراء، والورود الصفراء والبنفسجية، التي تتدلى من شرفاتها، تشبه مدينة خيالية في فيلم للصغار، موسيقاه التصويرية زقزقة. والجارة التي تغسل حصانها الذهبي بفرشاة مكسوة

برغوة الصابون، لا تختلف كثيرا عن الفتيات اللاتي يتوقفن ليتبادلن حوارا، ثم ينطلقن بدراجاتهن الحديثة، في الشوارع الملتوية صعودا وهبوطا مع الجبال. تنتبه الحاسة الأولى لديّ، تشعرني بنكهة الحياة، حين يلهو ملاك السحاب، ويلملم بخار البحيرة البعيدة، المتصاعد نحو سمائنا الرمادية، ثم يعتصره بقوة، لينهمر أمطارا، أتحاشاها باللجوء سريعا إلى الحديقة الخلفية للقصر، فيصرخ العشب والحجر برائحة البلل البللوري الطازج، وأسحب منه نفسا عميقا.

ما يزال الجميع في غرفاتهم، نياما أو يكتبون في صمت، فأمر من غرفة السفرة العتيقة في هدوء، لأكتشف بأن لها عبق روائح أغلفة الكتب المتراصة على المنضدة، والتي تحمل أسماء كل من أمضوا أياما بهذا المكان، وتركوا فيه آثار روائحهم، مع كل خطوة، أو فتحة باب، أو صعود وهبوط للسلم الخشبي، ومع كل فكرة تأتيهم في سكون، وتتحول إلى عالم صاخب على الورق. أغمض عينيّ لأستنشق التاريخ، وأفتحهما على صوت سكّ باب المطبخ، ورائحة تتسرّب على استحياء من خلفه، حيث يعد "نيل" و"جون" إفطارهما، المكون من البيض الأومليت والسجق والبيكون. نفس السكة تُسمع وقت الغداء، تعقبها نكهات التسبيك التي تتصاعد من الوجبات التي يعدها الرجلان، ويحتجزان نفسيهما معها في المطبخ، حتى لا يجرحا الرائحة المحايدة للبيت.

يمر "جون" الكاتب الأمريكي مثل طير عابر، يطأطئ الرأس ويخفض الصوت، ويغضّ البصر مثل سلفي ملتزم، وهو يقول صباح الخير. يحمل صحن إفطاره إلى آخر ركن بالحديقة الفسيحة، حتى يكاد يلتصق بسور القصر المجاور. لا أظن أن "جون" يعاني من الإسلاموفوبيا، ويتحاشاني متعمدا، لأنه لا يتبادل سوى بضع كلمات مع "نيل" الإنجليزي أيضا. ربما يغار على لغته، ذات اللكنة المدغومة، والتي ينطقها "نيل" بترفّع وأناقة، تجعل منها حاجزا حدوديا، يفصل بين قارتي أوروبا وأمريكا.

يمكث "نيل" الإنجليزي لدقائق عشر، يتناول لقيمات من وجبته الدسمة هو الآخر، بينما يضع عينيه على المذكرات التي يدونها عن "فلوبير"، أثناء رحلته إلى مصر، ويرفع رأسه كل بضعة ثوان، ويلقي نظرة عليّ، وأنا جالسةٌ في المكان الذي اخترته موقعا دائما للكتابة الصباحية، بداخل الغرفة الزجاجية المطلة على الحديقة، والتي احتمي فيها من البرد والقيظ والريح والمطر، لأعايش الفصول الأربعة من داخل قوقعتي الشفافة.

أعود لدفتر مراسلات القصر، وأعاود التلصص على خطابات إرنست همنجواي إلى "هانز شميت"، صاحب مكاننا هذا، حين كان ينشر لهمنجواي رواياته. تصورت أني سأهيم في أجواء شاعرية، تحمل رائحة القواقع والرمال ورغوة الأمواج المتكسرة على الشاطئ، بين كلمات من دوّن رواية "العجوز والبحر"، إلا أني لم أشم سوى رائحة النقود، التي تهيمن على الخطابات، حين يطالب همنجواي "هانز شميت"، بدفعات مقدمة من مستحقاته، ليسدد الضرائب، في إلحاح لزج، تارة على لسانه، وتارة على لسان زوجته. ليست هذه صفحتي المفضلة، فأقلبها قبل أن أغلق الدفتر الضخم، وأشرع في تنسيق شخصيات الجيمنازيوم، فأجد ورقة بها بيتين من الشعر لكاتب لم يوقع بإسمه:

في قلب الصمت

تنهمر السحب الثلجية

حين ينسى الكاتب

بأية لغة يتحدث.

الإلمام بلغة أو اثنتين كان شرطا أساسيا للحصول على منحة الكتابة هذه، حتى يكون الكلام جسرا يذيب الجليد. لغتي الإنجليزية تحملها نبراتي المصرية، فتضيف إليها لكنة الضاد التي تخجلني، وما بيدي حيلة للقفز عليها. سلواني

في كلمات "كاترينا" المطوطة قليلا، والتي تعبث رغم إرادتها بإنجليزيتها، وتدمغها بختم أوروبا الشرقية.

في صفحة تالية، أجد وريقة، يعبث فيها كاتب ما بالحروف اليابانية والإنجليزية والعربية بلا هدف، فأجد حروف اسمي منثورة بلا ترتيب..د..ب..ا..ة..ي، فأوقن أن اليقظة أيضا تمنحنا الإشارات.

يتلاشى "نيل"، بينما ظننته يحمل أسئلة يجد إجاباتها في ملامحي، وسيطرحها بمودة، من كثرة ما تناوب النظر ما بين أوراقه وما بين وجهي عن بعد. وددت لو قفزت داخل رأسه، لأقرأ ماذا كان يدفعه لمطالعتي، وهو منغمس في طعامه، وأوراقه البحثية، قبل أن يصعد إلى غرفته، قد اتخذها مقرا للمطالعة والكتابة. "جوستاف فلوبير"، الروائي الفرنسي، هو حتى الآن، همزة الوصل الأكيدة بيننا، والتي بدأت منذ كتب خطاباته إلى صديقه، منذ قرن تقريبا، ليصف فيها رحلته إلى مصر، وتثير فضول "نيل"، مثلما أعسعس بلا هدف بدفتر مراسلات "هانز شميت"، كمفتتح لليوم، علني أعثر فيها على إلهام ما.

لم أكن أعرف عن "فلوبير" سوى أنه مؤلف رواية "مدام بوفاري"، ويشيد به كل من يظهرون في البرامج والندوات الثقافية. لم تكف هذه المعلومة السطحية كي أطرحها أمام "نيل"، وأترك لديه أثرا يحلُّ عقدة من لسانه. أنقّب بشكل حثيث في المواقع الإلكترونية لأجد معلومة مغايرة عن "فلوبير"، وأتوقف عند مقدمة "إدوارد سعيد"، التي كتبها لتحليل شعور "فلوبير" تجاه مصر. حوّلت البحث على الفور في رسالة الكترونية إلى "نيل"، ليبدو الأمر من الظاهر أنني أهتم، بينما تحمل الرسالة في باطنها عتابا صامتا يقول: أنا أعرف كيف تفكر. فقد حقّر إدوارد سعيد من نظرة "فلوبير" الاستعلائية إلى مصر، وقال إنه بعدما قابل فلوبير الغانية المصرية، وقضى معها لحظات حب ملتهبة، كانت بالنسبة إليه مجرد نموذج صارخ لامرأة شرقية، لم يتح لها التعبير عن

مشاعرها،أو التحدث عن ماضيها وحاضرها، بل تحدث عنها فلوبير بوصفه رجلا أوروبيا لا يرى في الشرق سوى مستعمرة صالحة للغزو.

بعد ساعتين، ظهر "نيل" بالدور الأرضي ليعد فنجان شاي. اللغو والثرثرة غير مصرح بهما قبل موعد العشاء، لكيلا ينقطع استرسال أهل القصر في الكتابة والتأمل. السؤال يجثم على صدري، فقذفته سريعا، وأنا أدعي المرور التلقائي أمام المطبخ. قلت له: "هل وصلك الإيميل؟"، فرد في سلاسة مستفزة: "لا أحب إدوارد سعيد".

لا أدري هل غضبت لأن الجسر الذي حاولت أن أمده، قد تكسر للتو، أم لأن فلوبير الذي يحبه "نيل" يحتقر الشرق، أم لأن "نيل" لا يحب إدوارد سعيد، المفكر الفلسطيني، الذي يكاد يقدم له مريدوه القرابين، كأيقونة للعرب في مناصرة حقوقهم المهضومة، في عقر دار الأمريكان؟

العشاء سمك بالصوص الأبيض، وأعشاب. والتحلية تورتة الـ"تشيزكيك" بالتوت البري، تقدمها بتأن، طاهية اليوم ذات الملامح الشرقية. حين تكتمل الوجبة وعلى رأسها التورتة، يبدأ التقسيم، وكذلك الخرائط.

"أولجا بوكوفا" الشاعرة الروسية تتمم العدد، لكنها في الآن ذاته، تمثل سكينا حادة تقطع التورتة. خطأ غير مقصود من "ناتالي" مديرة القصر، جعلها تغفل عن أن"أولجا" لا تتقن سوى اللغة الفرنسية، كلغة أجنبية، وأنه علينا أن نتعامل لشهر كامل مع الوافدة الجديدة، بروح الأسرة التي من المفترض أن تكون اللغة هي السائدة. تبلغ "أولجا" من العمر خمسة وسبعين عاما، وهذه هي المرة الثانية التي يستضيفها القصر. أعمالها الشعرية، وتاريخها الحافل بترجمات شعراء فرنسا، يمكنها من ارتقاء منازل عليا في بيوت وقصور الأدب.

تنقسم مائدة العشاء إلى نصفين، جزء يتحدث بالإنجليزية يشملني أنا و"جون" الأمريكي، وجزء ناطق بالفرنسية، ينفصل تلقائيا عنا لمجاملة أولجا، ويضم "كاترينا" و"نيل"اللذين كانا في جبهتي قبل حلول "أولجا". "ناتالي" وزوجها الدنماركي، يحاولان أن يرمما الخطأ الفادح، بأن يتحدثا مع هذا الفريق تارة، ويجاريا الآخر تارة. يرفع الجميع نخب "أولجا" واكتمال العدد، فيصب لي "نيل" كأسا من عصير التفاح. تتساءل "أولجا" إن كنت مريضة، ويتعذر عليّ شرب النبيذ، فيشرحون لها أني لا أشرب. يتبدل وجهها كثير التجاعيد، من مجرد عيون زرقاء، وفم ملون بالأحمر الداكن، وشعر خفيف مصبوغ بلون الحناء، إلى علامة استفهام كبيرة، تحتضن علامات تعجب صغرى. يرغب زوج ناتالي بتلطيف الجو، بأن يعرض عليّ أن يصب لي كأسا آخر من العصير، فأرفض شاكرة لأنني "أشرب" طوال اليوم. تصيبه عدوى الاستفهام، حين يترجم فعل "الشرب" حرفيا، على أنه احتساء الخمر، فيبادره "نيل" و"كاترينا" بأني أقصد "شرب القهوة".

تنحل عقدة من لسان "جون" الأمريكي، على الرغم من أنه لا يزال يهرب بعينيه بعيدا، خشية التلاقي مصادفة بعيون أيا منا، ويعلق على مسألة المنع والتحريم التي تفرضها الأديان على أنها مسألة لا يقبلها عقله. يوافقه "نيل" جزئيا، ويعلق بأنه، كابن للتنوير، لا يستوعب أمورا مثل قصة "إبراهيم"، وطاعته العمياء لربه، حين أمره بذبح ابنه "إسحق".

أحاول تذوق حلاوة القضمة الأخيرة من تورتة التشيزكيك، إلا أنها تنزلق رغما عني، وتستقر في منتصف حلقي، وأشير أثناء سعالي، بأني أريد ماء. هل جئت هنا لأتفرغ لكتابة حواديت نساء مصريات، يلجأن إلى صالة جيمنازيوم، هربا من مخاوف ووساوس، لأنتقل لمكانة أدبية عليا، أم أتيت لأخوض في جدال يهدف إلى تبديل عقيدة اولئك الرجال، الذين تجاوزوا الخامسة والأربعين، وشبّوا منذ نعومة أظفارهم على أن "إسحق" هو الابن المطيع لوالده، أبي الأنبياء "إبراهيم"؟ لن

ينقصني الآن سوى اللمسة الأخيرة التي ستضيفها "كاترينا"، لكي تستعرّ النار أكثر في رأسي وحلقومي المحتقن، ولن يداويه سوى الصيام عن الكلام.

المعسكر المتحدث بالفرنسية المطعّمة بقليل إنجليزية، على الجانب الآخر من المنضدة، يتبادل حوارا مع "كاترينا" البولندية عن روايتها الأشهر "جدران الخوف"، والتي رشحتها لنيل الجوائز. ألتقطُ كلمات مثل "الهولوكوست"، وفهمت بالكاد أن والدة "كاترينا" قضت أوقاتا رهيبة في محتشدات النازية، ثم تم تهريبها إلى أمريكا، حيث تزوجت وولدت كاترينا، التي نشأت حتى التاسعة عشر من عمرها، وهي لا تعرف أنها يهودية.

"نيل" الإنجليزي الجالس إلى جواري بحكم الموقع الذي اختاره في اليوم الأول، يعلن عن تذمر هامس من الموقف برمته في جمل مقتضبة لا يسمعها غيري، وتتداخل في رأسي مع الحكايات غير المترابطة التي تتداول بحروف يستعصي عليّ فهم أكثرها.

يزمجر نيل بصوته الخفيض، معلقا على جملة "كاترينا" بأنها ليست يهودية منذ الصغر قائلا: "لكن لابد أنك التقطت عاداتهم". ثم يضجر هو الآخر بالتقسيم الجغرافي الجديد للمنضدة ويهمس: "ليس لأني أتحدث الفرنسية، سأجبر على مجاراة "أولجا" الروسية طوال الأمسية. تتبادل "ناتالي" مديرة القصر، وزوجها أشياء في السياسة، أخمنها من تعبيرات وجهيهما المتجهمة، ومن كلمة "بوليتيك" التي تعني السياسة بالفرنسية، وهي ذاتها "بوليتيكس" بالإنجليزية، كما أنها "البولوتيكا" ذات الأصل الإيطالي، والتي يستخدمها المصريون، للتعبير مجازا عن الفهلوة.

يحتد النقاش بين "نيل" و"أولجا بوكوفا"، حول سياسة "بوتين" التي تتحمس لها، كمواطنة روسية تقليدية، ويمقته "نيل" كمتمرد "آناراكي"

إنجليزي، لا يقبل بالقمع. الكل هنا يعاني بشكل أو بآخر من الـ"زينوفوبيا"، كلمة عرفتها وأنا أدرس قائمة المخاوف التي تكدر حياة البشر، وأخشى أن تصيبني العدوى، لأني أتيت هنا أيضا بمناعة ضعيفة تجاه "الخوف من الغرباء"، المعروف علميا بال "زينوفوبيا".

كنت قد أحسنت الظن باليقظة في بداية هذا اليوم، فدخلت غرفتي لأنام على خذلان، وعدت إلى يقيني بأن روح الحياة، حلم.

أتمدد في الفراش، مسندة ظهري إلى وسادة "نابوكوف"، وعلى ساقي شاشة الكمبيوتر التي أتابع فيها البريد الإلكتروني الذي يصلني في السادسة صباحا، وأؤجله حتى الساعة الأخيرة قبل النوم.

حظك اليوم

إن كنت من عشاق الخيال أو الشعر، فسوف تكوني في حالة إبداعية عالية اليوم.
وإن كنت تفتشين عن الحب، فسوف تلتقين بشخص له نفس ميولك الشعرية.
إسحرا بعضكما البعض بأبيات منثورة، وستكتشفان أنكما ستتشاركان في أمر أعمق من مجرد الشغف بالشعر. وتذكري أن العصفور لا يغرد لأنه يمتلك الإجابات، بل يغرد لأن لديه أغنية.. يا بداية.

سأخطو ثانية نحو حلمي، لأمتلك أغنيتي، وأغرد. لن أدع سكين "أولجا" يقطعنا كتورتة التشيزكيك، ويمزقنا مثل الخرائط. فسكين "إبراهيم" لم تذبح ابنه، الذي أسميه "إسماعيل"، ويسميه "نيل"، "إسحق"، ولا تعرف "كاترينا" له اسما، لأن أمها خافت عليها، ولم تخبرها بوصايا "موسى" الذي لم يغرقه البحر.

سأدلف راضية مثل يونس إلى بطن الحوت، وأنا على يقين بأنه لن يلتهمني، وسأطفو لكي أمسك ببقايا الجسر الذي حاولت أن أمده بأول النهار نحو "نيل".

لماذا تركت رأسي لتحليل "إدوارد سعيد" بأن فلوبير، كان رجلا من الغرب، ينظر إلى الشرق في استعلاء، مع أن هناك عشرات الزوايا الأخرى، التي ترى أن"فلوبير" كان يتبنى الاستشراق المثالي الناعم، على الرغم من انغماسه في اللذات، وشغفه بالعاهرات. سؤال طرحته عليّ نفسي اللوّامة، بعدما شرعت نوافذ متسعة على المعرفة.

سأنعس رويدا رويدا وأنا أقرأ خطاب فلوبير إلى صاحبه، وهو يدخله في حلمه بشرق سرمدي غائم، حتى وإن كان مخالفا للواقع.

"أنظر وسترى مدنا من قباب ذهبية، مآذن من الخزف الصيني، قصورا شُيّدت من الحِمم، على قواعد أعمدة مرمرية. أحواض سباحة مؤطرة بالرخام، تأتيها السلطانات لغسل أجسادهن، ساعة يجعل القمر ظل البساتين أعمق زرقة، وماء النوافير الفضي أكثر صفاء وشفافية. ثمّة أغاني حب في أكواخ القصب هذه، وفي هذه القبور القديمة، يخلد ملوك الأزمان الغابرة المتوجون الساكنون. يمكنك سماع النسر يصرخ في السحب، وفي البعيد تقرع أجراس الأديرة. ترى القوافل تشرع في رحلاتها، الأصداف طافية على النهر، الغابات تزداد مساحة والبحر اتساعا، والأفق ينأى بعيدا لامسا السماء، ممسيا واحدا وإياها.

أيها المفكر، تنساب حياتك مثل حلم، لشعورك برحيل روحك صوب الضوء وتحليقها في المطلق".

كان آخر ماقلناه بالأمس، أنا و"نيل" و"كاترينا"، أننا سنذهب غدا لقضاء يوم في بلدة "مورج"، والتنزه حول البحيرة. رأيت تلك الجملة كحروف لها صدى في حلم، ومشتبكة مع صوت "نيل" وهو يقول "لا أحب "إدوارد سعيد"،

ثم تمر أمام جفوني آخر جملة قرأتها لفلوبير، محاطة بنجوم زرقاء، قبل أن تنقطع صلتي بعالم اليقظة تماما.

"كم أرجو أن أهجر نساء الدنيا جميعا، مقابل أن أضم إلى صدري مومياء كليوباترا".

القاهرة

"داليا – فنانة تشكيلية"

"كل أنثى يرقد بداخلها شيطان نائم، لا تزعجها.. فتوقظه"

1

المرآة التي تحتل صالة التدريب الكبرى، تعكس صورة اللاعبات وهن يقفن في وضع الاستعداد خلف سونيا المدربة، لتبدأ إشارة البدء بجملتها الحماسية "ياللاااا"، وليكررن حركات نصفيها العلوي والسفلي الناعمة والعنيفة وكأنهن الشخص نفسه. حدث هذا في الدقائق الأولى فقط من حصة "الزومبا"، حيث إنه بعد مرور عشر دقائق من الساعة المقررة، صارت أميرة غارقة في عرقها ولهاثها، وأيضا الفنانة التشكيلية داليا، التي اختنقت ضجرا من تتابع التعليمات والتنقل السريع من الرقص اللاتيني إلى الهيب هوب إلى الرقص الشرقي. سونيا المدربة حامل في شهرها التاسع، وتربط حزاما عريضا أسفل بطنها، تقفز وتتمايل وتلف بوسطها وتحرك صدرها بمهارة لاعبة أوليمبية، إلا أن وجود كتلة زائدة تحمل طفلا بأحشائها، تمنح انطباعا بأنها ذات احتياجات خاصة، تماما مثل من بترت ساقه أو فقد ذراعه، وإعاقتها هذه هي ما تُشعر "أميرة" و"داليا" أنهما ناقصات عزم ولين، حين خرجتا متذمرتين لعدم قدرتهما على مسايرة المجموعة.

"سأفعل أي شيء لأخسر وزني، إلا أن أحرم نفسي من الطعام، أو أمارس التدريبات الرياضية الشاقة "، قالتها مدام أميرة في سخرية أضحكت داليا، التي جاءت إلى الجيمنازيوم لتزيد إفراز هرمون السعادة، فتغطى البهجة التي ستكتسبها، على الرغبة العميقة في أن تأخذ بثأر مستحيل.

تكافئ الفنانة داليا نفسها بالجلوس في أي مقهى يحمل طابعا أوروبيا، تستنشق عبق الكافيين في انسجام، وتحرص على أن تجد منضدة في أمكنة المدخنين، حتى تشعل سيجارة نعناع رفيعة وتسرح في خيط دخانها الرشيق. الأسلوب نفسه الذي تتبعه أميرة في جراند كافيه المعادي. داليا الفنانة التشكيلية التي تتخذ نفسها كموديل للوحاتها، تنظر في مرآتها وتجد كل يوم وجها جديدا وفقا لما يحمله القلب، لذا حين خرجت أميرة معها من تدريب "الزومبا"، وأعربت عن رغبتها في "شيشا تفاح على النيل"، شعرت أنها تنظر في مرآتها وترى تنويعة أخرى لما ينوء به قلبها، خاصة بعدما أضافت مدام أميرة: "*وللا أكافئ نفسي على إيه؟ دي البت الحامل عمالة تتنطط زي اللهلوبة جوة*".

هذا الجزء من حكايات الجيمنازيوم يشعرني أننا في مرسم كبير وليس في صالة ألعاب. فقد كنت شاهدة على التكوين المركب للحكاية التي وضع اللمسات الأولى فيها ثلاثة من محترفي فن التشكيل. مرايا صالات التدريب لوحات ترى كل موديل فيها نفسها في ملامح الأخرى. وجوه داليا التي استوحتها من مرآتها كانت تتبدل كامرأة بدوية، أو فلاحة، أو نوبية، أو حتى كفينوس نصف عارية وبذراع مبتور، لكنها في كل الأحوال ترتدي عُقدا من الفضة، فريدا في صياغته وغرابة الفصوص التي تطعمه.

الأقرب إلى وجدان داليا في اللوحات التي رسمتها لنفسها هي لوحة فينوس، ليس لأنها ربة الجمال، بل لأن ذراعها المبتور يرمز إلى عدم قدرتها عن صد الطعنة واسترداد العُقد الذي زين صدرها في كل اللوحات، وكانت تمتلكه ذات يوم.

"بس حصة الزومبا دي طلعت زي الزومبة اللي الواحد واخدها ف الحياة".
قالتها داليا وهي ترفع الأثقال الملونة إلى اليمين وإلى اليسار لتصقل شكل ذراعيها، ولتحكي قصتها التي تحمل طعنتين، إحداهما غائرة والأخرى تبدو سطحية، لكن الثانية هي ما شكلت هوسها الفني، وصار العِقد الذي فقدته، سمة مميزة للوحاتها التي تشارك بها في معارض خاصة وجماعية، وجعلتها تلف كل بلاد الأرض بحثا عن نسخة طبق الأصل منه.

تجولتْ في الأسواق الأثرية ووصفته لأصحاب الورش التقليدية، وحين لم تجد له مثيلا، اقتنت أشباه له من الفضة اليمني المؤكسدة المطعّمة بالمرجان، والأفغاني الغنية باللازورد المعرّق بالذهب، والتركي المتلألئة بالزمرد والياقوت، حتى صارت خزانتها كمغارة علي بابا، لكن صدرها ظل مثل صحراء خاوية من العقد الذي أخذه منها حبيبها خدعة، ولم تجد عوضا في الصبر الجميل الذي يعدها بقصورفي الجنة، بلبناتها من الذهب والفضة وملاطها المسك وحصبائها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران، فألهمتها بصيرتها إلى الجيمنازيوم، حيث تسحب كل نسيم الكون وتبقيه في صدرها لثوان، ثم تزفر الغل المكتوم، وهي جالسة في وضع بوذي في جلسات الاسترخاء بتدريبات اليوجا.

"ميرا" أو الدكتورة أميرة خبيرة حقوق الإنسان، ونصيرة المهمشين والعاريات، تغمض عينيها وتشارك داليا سحب النسمات الايجابية على أرض صالة اليوجا، وحين تفتح عينيها ببطء، تشاهد في المرآة حسرة داليا على العِقد، فتسخر من خيبتها هي مع الخاتم البلاتيني ذي الفص العقيق المحاط بالفيروز، الذي سحبه منها حبيبها ناصر مختارعن قصد أو عن غير قصد. ما يهم هو أنها شاهدته يحتضن إصبع زوجة ابنه، ولم تحرك ساكنا في حينها. ستصير "أَميرة" مسكونة بروح ميكيافيللية تبرر لها وسيلة استرداد عُقد داليا، فتقرر أن تدرس القضية بإمعان، وتعيد إليها الجزء المبتور من روحها، على أن

تطبق حكمة ماكيافيللي "إذا أردت أن تصيب أحدهم، افعل بشرط ألا تخاف من انتقامه"، وهي تضمن أن من ستأخذ بثأرها منهم لن ينتقموا أبدا، لأنها ستكون حريصة على "عدم كفاية الأدلة".

كان الدليل الأول على رغبة أمجد في اقتناء داليا، هي تلك الرسالة القصيرة التي أرسلها لها على هاتفها، بها صورة زهرة تتفجر بالندى وجملة"صباح الورد على الوردة". وكان الدليل الأخير على زهده فيها هو اختلاس العُقد "النقرة الأمازيغي"، والذي جلبه لها من الجزائر في عيد حبهما الأول منذ عشر سنوات.

بدأت الحكاية ناعمة وجميلة مثل كل حواديت الحب. صالون لشباب البحر المتوسط يعرضون فيه تجلياتهم في معرض بأثينا. احتل تكوين داليا الفني حائطا بأكمله، وجوه لرجال غيروا العالم يتطلعون نحو شعاع يضئ ملامحهم وتتشابك أياديهم لتغطي الكرة الأرضية، غاندي ومانديلا وتشي جيفارا. كان هذا قبل أن تدخل مرحلة رسم وجهها وصدرها المستور بالعُقد. وأمجد قوميسير المعرض ورئيس لجنة التحكيم، يرسل لها تلك الوردة وهي تستند برأسها إلى الكرسي الوثير على الرمال، وزبد رقيق يتخلل أصابع قدميها، بينما تضع في أذنيها سماعتين صغيرتين يهدران بعزف للجيتار المصاحب لأغنية غجرية. " أنا أول ما شفتك قلت البت دي رومانسية قوي". فرحت داليا بالصفة الشفيفة التي منحها أمجد إياها، ولم تبال بأنه تجاهل تفرد تكوينها الفني المشارك في المسابقة ولم يمنحها جائزة كانت تستحقها، إلا أنه بعدما صار يهاتفها صباح مساء ويظهر فجأة في كل الأمكنة التي تحتويها، وبعد أول لمسة أنامل واحتضان كف وقبلة على الخد الأيمن تزحزحت إلى الشفة السفلى، اعترف أنه "أول ماشاف العينين المسحوبة دي، والشفة التحتانية اللي تجنن دي، قلت لنفسي أكيد البت دي هيبقى مالهاش حل لو اتقفلت علينا قاعة عرض". ابتلعت الجزء الثاني من الجملة كإهانة مستترة في صورة مدح،

وعزمت على انسحاب تدريجي، لكنها كلما وقعت عينها في مرآتها على شفتها السفلى، كانت تتساءل ما الذي لم يجذبه في الشفة العليا، وصارت تؤطرها بالقلم الأحمر المحدد للشفاه وتملؤها باللون الوردي. عام يمر مثل جدارية ضخمة مرسوم عليها خطوط رسم بياني.. صاعد هابط.. داليا ترحل، تتيه في رسومات وتشكيلات مبتكرة وتواسي نفسها بعبارات الثناء ونظرات الغزل من آخرين، حين لا تظهر على لوحة هاتفها حروف اسم "أمجد" ولو مرة طوال مدة سفرها. يرحل "أمجد" وتبقى داليا في مصر، يتلبسه جني اللهفة الوقتية، تسجل داليا رسائله التي تفيض عن كارت الذاكرة بهاتفها.. "وحشتيني.. وحشتيني.. وحشتيني". وبين الصعود والهبوط تستقر رغبة داليا في الانسحاب، لكن سخونة دموع "أمجد" تذيبها وتعطلها لوهلة.

لم تكن ذكرى مرور عام على لقائهما بالتوقيت المناسب لأن تعلنه داليا بانسحاب نهائي، إلا أنها قررت النطق بالحكم، بعد عودته من رحلة الجزائر، وفي اللحظة ذاتها التي همت فيها بأن تفتح فمها وهي تجلس على الأريكة التي يقف في مواجهتها، قذف بالكيس القطيفة ثقيل الوزن في حجرها. أخرجت منه الكردان الفضة المطعّم بالأحجار الزاهية، وفردته مجازيا على الهواء دون أن تغلقه على رقبتها أو تسمح له بأن يستريح على صدرها. ردته إلى مكانه في الكيس القطيفة مثلما أبقت لسانها في فمها بعدما ألجمه سخاء الهدية، واستقر العقد في ركن الدرج حتى تقرر هل تظهر به وتجرؤ على إعلان نفسها حبيبة ثم زوجة لأمجد، أم سيظل الكردان حبيسا، كما تُغلق عليهما أبواب قاعات العرض في مرسمه الخاص، أو ببيوت الفن التي يملك مفاتيحها.

داليا التي أحبت أن ترسم لنفسها مظهر الفنانة المتحررة بخصلات شعرها الفاحمة المتناثرة وسجائر النعناع الرفيعة ولوحات ثوار العالم، كانت تعقص شعرها قبل دخولها إلى البيت اتقاء لسخرية إخوتها، وتترك علبة السجائر في

تابلوه سيارتها، وتخفي العُقد الفريد الذي أهداه لها أمجد، لأن جزءأ ما من روحها يعلم أن تلك العلاقة لن تعرض تحت الضوء أبدا، خاصة بعدما تباعدت فترات التواصل، التي كانت تعِدها بخلاص أبدي من علاقة مستحيلة، ثم تعود وتسحبها إلى المرآة، لتتحسس في توتر شفتها السفلى ورموشها الناعسة وتتساءل إن كانا قد فقدا جاذبيتهما.

ستدخل داليا الحالة الفنية لـ"فريدا كاهلو"، الفنانة المكسيكية التي قيدها حادث سيارة في فراشها وألحق بها عاهات في الرحم وآلاما في الظهر، فصارت ترسم وجهها فقط، محاطا بأحلامها وخيباتها. صارت داليا صورة مستنسخة من "فريدا" التي تورطت في حب رجل وعدها حبا جارفا، لكن دون التزام بوفاء أبدي.

كانت غيبة طويلة قد أخذت أمجد ليطوف بلوحاته بعيدا. وحين امتلأت شاشة هاتفها بحروف اسمه، عاد قلبها يضخ الدماء والروح، لكن دقة زائدة كانت تنذرها بسوء محتمل. "فاكرة العُقد الفضة اللي جبتهولك؟ هاتيهولي النهاردة ف الأتيليه، عشان ارسمه وارجعهولك". حملت مع العُقد صندوقا أنيقا به ربطة عنق، وكارت مكتوب عليه بالإنجليزية "أحبك"، بينما كانت الحروف نفسها تنطق "الوداع"، وبعد أيام رنَّ هاتفها بجرس الرسائل: رسالة واردة من أمجد "أتشرف بدعوتكم لحضور عقد قراني في مسجد الحامدية الشاذلية يوم الجمعة 14 ديسمبر، والعاقبة عندكم في المسرات". كان هذا هو اليوم نفسه الذي حدده لها الطبيب لأخذ عينة من رحمها، لإجراء فحوصات لمعرفة سبب النغزات التي تؤلمها في الجانب الأيسر أسفل بطنها، ومن لطف الرحمن، أنها بعد صلاة العصر، حين سيزوج أمجد نفسه لأخرى، ستكون شبه مغيبة تحت تأثير بنج نصفي سيدغدغ رأسها بخدر لذيذ.

تقول الفتوى المالكية إنه إذا كان العدول عن الخطبة من جهة الخاطب، فعليه أن يترك هداياه حتى لا يكسر قلب المخطوبة مرتين. وداليا قد انخلع قلبها وتفتت

مرتين، لكن نظرا لأنها لم تكن "مخطوبة" شرعاً، فقد انتُزعت منها هديتُها وذهبت لامرأة أخرى، عروس أمجد التي عقدَ قرانه عليها منذ شهور، والتي لم يناسب العُقد طرازها، ولم تضعه على صدرها إلا عقب فسخ عقد زواجها منه بأيام لكي تكيده، وظهرت به في افتتاح سيمبوزيوم النحت في أسوان، ورفضها إعادة العُقد له مع باقي هدايا الخطبة، رغم أنها هي التي عدلت عن إتمام الزواج.

لم يُشفَ غليل داليا أن أمجد قد تجرع من الكأس نفسه، وقصّ عليها خيبته نادماً. جاهدت الغيظ بإتباع أحسن القول عن العفو والتسامح.. "من عفا ساد ومن حلم عظم.. إن الله يغفر ولا يعير، والناس يعيّرون ولا يغفرون".. لكنها لم تستطع أن تتحلى بصفات الآلهة. عشر سنوات حصدت فيها من الجوائز أفضلها، ومن الرجال أحسنهم، ومن الذرية أحلاها، إلا أنها كلما كانت تغوص في نوم عميق أو تغفو في نعاس قصير، لا ترى سوى تنويعات على الحلم نفسه.. كانت ترى نفسها كجارية حسناء، بيضاء ذات دلال، مكسوة بسلسلة عريضة على رأسها، تسمى في بلاد المغرب "تاعصبت"، وكردان فضي يخطف الأبصار وليس له مثيل في أي من الأسواق، وسوار في اليد يقال له "دحدوح".. وخلخال ذو جلاجل يلتف حول ساقيها معا، يعرقل سيرها ويؤلمها بشدة.

وبعدما حصلت الألفة بين أميرة نصيرة النساء وداليا الفنانة المحبطة، وتبادلا البوح بهزيمتها الصغيرة المتشابهة، طلبت ميرا من داليا كل معلومة تخص المرأة الأخرى التي تلفحت بالكردان. لم يكن التعرف عليها عسيرا، فقد كانت وجها مألوفا لكل من يشاهد البرامج.. أية برامج.

داليا الفنانة التي تؤمن بأحلامها، وصارت تعتقد في مهارة "أميرة" كجالبة لحقوق الإنسان، شاهدت فيما يرى النائم وجه أمجد يحتل مرآة كبيرة ذات إطار من فضة، وقصت الحلم على أميرة. نقّبا سويا عن التأويل وكان كالتالي: لو شوهد وجه الرجل في مرآة من فضة فإنه سوف ينال ما يكيده أو يكرهه.

امتطت"أميرة" والدكتورة نهلة صديقة طفولتها، متن الطائرة نفسها وجلستا في مقعدين متجاورين مرتين على مدار صداقتهما. كانت المرة الأولى مصادفة، ولم يكن مخططا لأن يجلسا بجانب بعضهما البعض، لولا أن توسلت الدكتورة نهلة للراكب الجالس بجوار ميرا وبدلت معه المقاعد، حيث تتمتم بالمعوذتين وآيات السفر طوال الرحلة. أقلعت الطائرة المتجهة إلى لندن في أول يونيو من العام 2011.

اشتركت الصديقتان في اتخاذهما لندن كمحطة وصول مؤقت، تنطلق بعدها كل منهما إلى وجهة وغاية مختلفة.. نهلة إلى بريستول، لتبيع طابقا من البيت الذي كانت تمتلكه حماتها الإنجليزية، بعد أن فقدت جزءا لا بأس به من إيرادها الشهري، بعدما تخلت عنها الشركات التي كانت تستعين بلقبها كعضوة في الحزب. أما أميرة، فقد كانت ستمكث في مطار هيثرو كترانزيت لساعتين، ثم تطير من هناك إلى فرانكفورت، لتلقى كلمة في مؤتمر نسوي، عن دور المرأة في الثورة المصرية. ارتفع أزيز الإقلاع، وشخصتا صامتتين تتفرجان على معالم الوطن من أعلى. كان لهما نفس الشعور المحايد حين تعرفتا على الصحراء المتاخمة لمطار القاهرة، والاستاد الرياضي، و"سيتي ستارز"، وحتى حين لمحتا القلعة وطرف الأهرامات. ما ضرب جسرا فاصلا بين مشاعرهما هو نهر النيل من ناحية مبنى الحزب الوطني المتفحم. الاثنتان زفرتا تنهيدتين في اللحظة ذاتها. أطلقت نهلة تنهيدة حسرة على القاعات الفاخرة التي كانت تضخ لها الإحساس بالحياة، وابتسمت ميرا مع تنهيدة ارتياح غير مصدقة انهيار هذا الكابوس الجاثم على صدر النهر. لم تنس ميرا أن نهلة لم تستجب لتحذيرها من التشبث بتلابيب فكرة زائفة، وأنها كانت مثلها مثل الآلاف تستشعر انفجار تلك البالونة الفارغة المسماه بالحزب واللجان ومحافل تقام

لأقنعة براقة تنطوي على لاشيء. سادت بينهما مساحة من الهدوء الحذر استمرت أكثر من عام، لم تشفع في كسر جليدها عشرة الطفولة وشقاوة المراهقة، وإلقاء كل منهما همومَها على عاتق الأخرى.

في المرة الثانية التي احتواهما مقعدان متجاوران على متن الطائرة نفسها، كان قد مر أكثر من عامين على المرة الأولى، حيث تبدلت المشاعر واختلف الغرض من الرحلة. كان الحنين المشوب بالشفقة قد بدأ يتسرب إلى قلب أميرة، واستأنفت حوارات بدأت منذ وعيت على الدنيا مع نهلة، خاصة وان السبب الذي من أجله انفصلا قد غام وتاه في خضم أحداث ملتهبة وحناجر مرتفعة وحروب شوارع. قررتا الهروب وقتيا لالتقاط أنفاسهما بقضاء أسبوع في برستول في بيت نهلة الريفي، بعد أن فشلت مفاوضات بيعه. كما قررتا ان يقضيا قبلها ليليتين في لندن، يتيهان فيهما وسط الأجساد المتحركة في تناغم تحت المطر في أكسفورد، أو يجلسا مشدوهتين قبالة أحداث مسرحيات شكسبيرية عتيقة، أو راقصة مبهجة في مسارح البيكاديللي، ويحملهما آخر مترو أنفاق إلى فندقهما الصغير في "ايرلز كورت"، حيث سيمضيان الليل في فراشين متقابلين، يتسليان بالحديث عن المقلب الذي أسقياه لــ"مازن" رفيق الطفولة، ولا يزال يتلذذ بتجرعه دون أن يدري إلى الآن.

الدّكة الخشبية بمنتصف الفصل تتكون دائما من ثلاثة مقاعد، وكانت تسع نهلة وميرا متلاصقتين وثالثهما مازن. كثيرا ما كان يندس بينهما خاصة في أيام الامتحانات، حيث كانت تنقل منه نهلة إجابات المسائل الرياضية، وكان ينقل هو من أميرة حلول تدريبات النحو. حتى في غير موسم الامتحانات، كان وجود مازن في المنتصف لا يسبب لهما أي ضيق، فقد كان يسليهما بنكاته اللاذعة وتبحّره في المعلومات التي يجلبها من الموسوعات والمجلات وأية وريقة تقع تحت يده. لم يشعرا أن مازن يمثل كتلة جسدية غريبة ملتصقة بفتاتين انتقلتا في المرحلة الثانوية إلى مدرسة مختلطة، بعد أن قضيتا عشر سنوات في

مدرسة البنات الفرنسية المنغلقة. المثير أن مازن هو من كان يتأرجح بعاطفته تارة ناحية اليمين وتارة ناحية اليسار، فيدق القلب دقة عند مشاهدة الاستدارات المتناسقة لجسد نهلة، ويستعذب عينيها وفمها المفتوح في دهشة وانبهار بكل كلمة يقولها، ثم يعود ويدق دقتين حين تسايره أميرة بتعليق ساخر أو تبهره بمعلومة لم تكن قد مرت عليه. ثقل الميزان عند كفة أميرة، حين ضمهما حرم جامعي واحد. أول حبة "هولز" تذوب في فم أميرة كانت هدية من مازن، وكان هو طبق الأصل من حبة النعناع الحلوة اللاذعة. تنظر لها في البداية بلامبالاة، ثم تضعها في فمك بتلقائية، ثم تستشعر حلاوة يعقبها مذاق لاذع، يترك محيطه معطرا بخواء عميق. دقة القلب الأولى هي الأكثر طفولية ونقاء، ومع ذلك تخلف فراغا داكن في القلب يصور لحامله أنه لن يبعث ثانية أبدا. كان هذا هو شعور أميرة، حين فاجأها مازن ذات صباح دراسي، بأنه عزم على الهجرة، وموعد السفر غدا. كما كان هذا قبل أن تلتقي أميرة وناصر مختار المحامي الذي يكبرها كثيرا، فتتعرف على مذاق وعطر آخر للرجولة، صار معه مازن نسيا منسيا. عملت أميرة بمقولة قرأتها ذات يوم بأن التسامح زينة الفاضل، أو هكذا تصورت، إلى أن التقت مازن في زفاف زميل لهما. كانت قد ذهبت برفقة ناصر مختار، الذي لم تلهها الرقصات والأغنيات ونظرات مازن المثبتة عليها، عن الإحساس بناصر. تراقص بندول قلب مازن، مثل دقات الساعات التي كانت معلقة على حائط دكان عم أميرة في طفولتها، وتقدم نحوها وفاجئها في تلقائية بطلب رقم هاتف نهلة، طالما أن أميرة ليست متفرغة لأن تكمل معه حدوته تركها وهو يرويها. هنا أدركت أميرة أنها لم تكن قد سامحته، ورأت أن أفضل وسيلة للانتقام هي أن تهديه رقم نهلة المحملة بمشكلاتها ومخاوفها ووساوسها القهرية ولعنات عائلتها المتلاحقة. كما كانت أفضل هدية تمنحها لرفيقة الطفولة، هي خبرة مازن وأذنه التي ستبثها كل نفايات حياتها، ولم تنس أن تحذرها من ألا تقبل منه أية حبة "هولز"، حتى لا

تقع في الهوة الداكنة. لم يعرف مازن أبدا بهذا الاتفاق الودي بين الصديقتين، برغم حنكته ومهاراته الاجتماعية، فالأسطورة تقول: "ذهب رجل في رحلة ليكتشف كيد النساء وإلى الآن لم يرجع".

صار مازن مصورا صحفيا ورئيس التحرير لعدة برامج تليفزيونية. بدأت أميرة تخطط من خلف الكواليس، حيث جعلت نهلة تطلب من مازن، أن يجمعها في حلقة مع تلك المرأة التي استباحت الكردان الذي يخص داليا الفنانة التشكيلية، لأن أميرة عقدت العزم على أن تسترد القطعة التي بترت من روح داليا، وهي من رسمت خطة في رأسها هي فقط، ولم يتطلع على تفاصيلها أي أحد، حتى من يساعدونها في تنفيذها. والخطة هي أن تقول الدكتورة نهلة لمازن أن يجمعها بالمرأة إياها في حلقة، لأنها معجبة بأناقتها ولباقتها وتأمل أن تضمها إلى محيطها. تعلم أميرة أن نهلة والمرأة التي أخذت العقد وجهان لعملة واحدة، من حيث الدوران حول الذات وعشق الظهور تحت الأضواء، لذا تعرف أن نهلة لن تحتاج إلى توصية في أن تثني على المرأة إياها وتستقطبها كصديقة. أما ما ستلقنه أميرة لنهلة، هو أنه بعد الثناء والإطراء، ستضيف كلمة صغيرة "بس خسارة إن شكلك ف التصوير طالع أتخن بكثير"، ثم تقنعها بالانضمام إلى الجيمنازيوم، الذي سيساعدها على التغلب على الخمسة كيلوجرامات الزائدة التي تضيفها الكاميرا إلى وزن من تصورهم، وسيكون الحل الأكيد في حصص الـ"زومبا"، فما أخذ بالقوة، يسترد بالزومبا.

تقنع أميرة ونهلة مدام أمينة صاحبة الجيمنازيوم، أن تقيم يوما شرقيا، ترتدي فيه الزبونات أحلى ما تمتلكن من الملابس والحلي الشرقية. سيقوم "مازن" المصور الصحفي الشهير بالتقاط صور مميزة لنشر الـ"ايفينت" في المجلات والمواقع الاجتماعية، وسيأخذون تصويت على الزي الشرقي الأميز، وستحصل صاحبته على اشتراك مجاني في الجيمنازيوم لمدة عام. سيكون

الحدث دعاية مجانية ستجذب عشرات المشتركات وتحرك السوق الراكدة. ستقنع الدكتورة نهلة المرأة التي استحوذت على الكردان أن تحضر حليها المميزة قبل يوم التصوير حتى يختارا سويا ما سترتديه وتتألق به تحت الأضواء. إلا أن نهلة تبدأ في استشعار الخطر من تنفيذ خطة أميرة، التي تحيكها لمصلحة صديقة لا تعرفها، بعد أن أخبرتها أميرة أن عزة عاملة الجاكوزي سيكون دورها أساسيا، بغيابها عن حراسة متعلقات الزبونات. نهلة الملبوسة بكل مخاوف العالم تتراجع قبل النهاية بقليل: "كله إلا السرقة يا ميرا، أنا مش هاكمل معاكي".

تطمئنها أميرة بجملة تحفظها عن ظهر قلب: "أقسم بالله العظيم أن أدافع عن الحق والعدل وأن أتخذ الأمانة والشرف مسلكا لي في عملي بمهنة المحاماة".." أنا ما نستنش القسم دة ولا دقيقة، من ساعة ما اشتغلت محامية.. ماتخافيش".

عزة عاملة الجاكوزي التي تقبل الاكراميات لتستر على الزبونات ثم تفضحهن، وافقت بكل يسر على ترك مكانها بغرفة الملابس، حين لوحت لها مدام أميرة بالمائة جنيه، بدل هدية لابنها الذي أتم عامه الأول، وطلبت منها أن تذهب بنفسها لتوصي على صينية سمك في المطعم المجاور.

داليا الفنانة التشكيلية، التي حيكت هذه الخطة من أجلها تتراجع أيضا، بعد أن تعبث في عصبية في كيس المرأة الأخرى، وتتلذذ بلمس جلاجل العقد الذي فقدته منذ أعوام عشرة، ثم تملأ قبضة يدها بثقله الغني، إلا أنها تعيده بحسرة مثلما أدخلته في الكيس القطيفة حين كان ملكا لها. "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم". "شفتي يا ميرا الفأل بيقول ايه؟ الآيات اللي شغالة ع التليفزيون دي بتنذرنا".

ببرود لا يليق بالعرق الذي يغطي جسد داليا والرعشة التي تعتريها، تُخرج أميرة الكردان من الكيس.

"مش هنسرقه.. انتى هتلبسيه دقيقة وهنرجعه تاني". كالمنومة مغناطيسيا تضعه على صدرها وتحكم إغلاق القفل على هيئة عاشق ومعشوق. تنفذ داليا أمر أميرة بأن تريها الابتسامة الحلوة، وهي تصوب نحوها فلاش عدسة هاتفها المحمول.

في الثانية التي تعود فيها عزة عاملة الجاكوزي من المهمة الوهمية، يكون العُقد قد عاد إلى مكانه في كيس المرأة الأخرى، وتكون داليا قد أرسلت الصورة إلى محمول أمجد، الذي اكتوى بنار اغتصاب المرأة الأخرى للكردان كحق لا تستحقه. وحين فتح هاتفه بعد ساعة واتصل بداليا لاهفا، وطلب منها أن تحضر له العُقد في الاتيليه لكي يملي عينيه منه ثم يعيده لها، اعتذرت بشدة لأنه لم يعد بحوزتها، واستكملت احتفالها الصغير مع أميرة في محل الآيس الكريم الذي كان يذوب مسكّرا ناعما على لسانها، ثم تسيل حلاوته في رقة إلى أسفل فيثلج صدرها. كانت هذه هي المرة الأولى التي يخالفان فيها طريقتهما المعتادة في الاحتفال باستنشاق أدخنة النرجيلة أو نكهة النعناع، إلا أنها لم تكن المرة الأولى التي يزوران فيها محل الحلويات هذا.

اختارا نفس المنضدة تحت اللافتة الملونة التي ألهمتهما، والمكتوب عليها بحروف لاتينية: "يقولون إن الانتقام طبق، يفضل أن يُقدّم باردا.. لكنهم أيضا يقولون إن الانتقام حلو الطعم.. الانتقام.. آيس كريم".

في المعرض المفتوح والمقام في ميدان عابدين، عرضت داليا الجدارية الضخمة التي تضم وجوه ثوار عشقتهم.. غاندي وجيفارا ومانديلا.. كانت أياديهم تتشابك لا لتحتضن الكرة الأرضية مثل تكوينها الفني القديم، بل لترفع

علما يرفرف فوق خريطة بلدها، وقد زينت الإطار بأجساد بشرية نبتت لها أجنحة، لوجوه مصرية صارت أليفة، من كثرة ما طالعناها في الجرائد وعلى الجدران والأسوار في الشوارع بعد رحيل أصحابها. وكان المعرض بداية دخول داليا في مرحلة الجرافيتي، والانتهاء تماما من مرحلة اللوحات الذاتية، التي تنظر فيها في مرآتها وتسجل خيباتها وهي ترتدي كردان عريض من الفضة الأمازيغي المطعمة بفصوص المرجان وطلاء المينا الملونة بحسرتها.

أعزكم الله في المنام

إن قُدّر لي أن أتنعّم في الفردوس الأعلى، وأخبرتني الملائكة بأن لي ما أشتهي، سأقول لها: "أريد أن أفتح عينيّ، وأملأهما برؤية رفيقكم الملاك الذي كان يأتيني في الحياة الدنيا، ويزورني ليلا، بينما جسدي مُسجى بلا حول في الفراش، وروحي سواحة في ملكوت الله، فيرتب لي أمنياتي، ويأتي لي بأحبائي، ويمسك فرشاة من نور، ويلون لي بها أحلاما تضئ حلكة الليل، وتحملني إلى نهاري راضية مستبشرة".

حُلمي اليوم نهاري، سأعايشه في اليقظة، حيث تجتمع الروح والجسد فيحافلة ركاب، ستغادر مدينتنا الجبلية الصغيرة في الثانية عشر ظهرا، لتصل إلى بلدة "مورج" في ثلث الساعة، بصحبة "نيل" و"كاترينا"، إذ غالبا ما ستحاول كاترينا أن تتوسطنا، لتجد حلولا لمسائل تخصها، جملة تختتم بها نصا، أو سترة تحميها من البرد، أو قارورة عطر تستعيرها لتنعش روحها. اليوم هو السبت، موعد السوق والكرنفال الأسبوعي، الذي نصحتنا "ناتالي" مديرة القصر بأن نذهب إليه. لكن هل لي أن أسأل ملك الأحلام أن يمنح كاترينا قليلا من النعاس والرغبة في الراحة، بعدما تيقنتُ أن يوم السبت، لا يعني بالنسبة لها "سباتا"، مثلما حثها تلمودها، وأخبرني قرآني؟

يا ملك الأحلام الحبيب، يا من تجعل الطير ينطق الكلمات، والحي يجالس الميت، والمرء يفوت في مكانين أو زمانين بعيدين دون أن تعتريه الدهشة، رتب لي

يوما كالحلم، نظفه من كل سوء، وانزع عنه الثرثرة والصخب، وعطره بشذا الزهور، ولوِّنه بزرقة البحيرة، وبياض السحاب، ولا تزد شخوصه عن اثنين، رجل وامرأة، كانا في شتات واجتمعا في قصر كالخيال، ليدلفا في حقيقة كالحلم، ولكنها ليست بحلم. وحين يرنّ جرسُ الإفاقة، هادني بمنحة جديدة تبقيني هائمة في المدارات.

أربع طرقات على باب غرفتي، تنتزعني من هواجسي، وصوت "نيل"في الخارج يصيح: "لن ينتظرك الباص مدى الحياة.. أمامك سبع دقائق"، واندفع نحو المطبخ، ليتأكد من جدول قدوم وقيام الأوتوبيسات. لم تكن "كاترينا في انتظارنا كيفما اتفق، بل كانت مسترخية في الحديقة، تحت بقعة من شمس، تتناثر حولها أوراق وصور فوتوغرافية، لامرأة بولندية، كانت حبيبة للرسام "أولاف ترومسكي"، وحين مات فجأة، لم تتزوج بعده، وآثرت أن تعيش خمسين عاما داخل شقتها، بلا زواج، على الرغم من أنه خانها أثناء فترة خطوبتهما أكثر من مرة.

سألتها "ألن تأتي معنا إلى "مورج؟".

ردت: "سأنغلق على نفسي حتى أفسر لغز تلك المرأة، وأخمن ماذا كانت تفعل منفردة، خلف بابها المغلق".

تملكني رعب من رجائي إلى ملك الأحلام، بأن يمنحني وقتا هادئا قد يلهم بترتيب أحداث رواية، خططت فصولها في رأسي، حين تخلت "كاترينا" عن تشبثها بالبقاء إلى جوار "نيل" ومشاكسته في دلال، وآثرتْ البقاء في البيت. ارتبتُ في أن يكون ما قلته في سري لم يكن إلا تعويذة، ستُنفذ بالحرف، وتبقيني كما تمنيت، مقيدة على جناح حلم، لا أفيق منه أبدا.

تشبه حافلتنا الأنيقة أرجوحة ضخمة، يصعد إليها أناس طيبون، يلقون التحية على سائقها البشوش، يمكثون لمحطة أو اثنتين، ثم يشكرون السائق ويغادرون. أما نحن، "نيل" وأنا، فنتشبث بمقاعدنا منفردين حتى المحطة الأخيرة، كأصحاب الأرجوحة وأبطال الحلم، فندور بسرعة في الشوارع الضيقة، المحاطة بمنازل حجرية عتيقة، ثم ننفتح على طرق فسيحة، يملأ اتساعها أعيننا بتلال متدرجة، وسهول مزارع الكروم وجبال ناصعة، تتلألأ قممُها الصغيرة تحت خيوط الشمس. حينها يخطر لي، ماذا لو كانت هذه هي احدى جنات الخُلد، فبها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لكنها خاوية بلا أناس سواه، فهل كنت سأتغزل بحنان في هذا التيه الملون، لو لم يكن معي "نيل"، يشير يسارا ويمينا، ويملأ فراغ الصمت بالحكايات؟ تناثرت أصداء من ماضيه لأب متوفى في سن صغيرة، وأم عجوز مازالت على قيد التحكم والسيطرة، وأطفال ثلاثة بشعور شقراء وأعمار متباينة، أكاد أسمع حواراتهم معه، وزوجة سابقة أو حالية، يبتر الكلام عند دنو سيرتها، وأنا بصفتي غائصة في أحداث حلم حي، لا أملك حق التعليق، أو بمعنى أدق لا أرغب إلا في تناول مشاهد مختارة تليق بحدوته تسبق نوم مريح.

توقفنا أمام قلعة "مورج"، أثرٌ شامخ يحتضن معرضا للنحت الحديث، ليضيف حواديت تقولها وجوه وكفوف وأجساد من حجر. مررنا من أمامها كسابحين في الهواء، لنجد أنفسنا في مواجهة مرفأ حقيقي، بحيرة "ليما"، ماء المحيا لعدة مدن سويسرية، تدور وتطوف لتجد نفسك مع كل مدينة جديدة على جانب من شواطئها. وهنا في بلدة الـ"مورج"، عاصمة العالم لزهرة التيوليب، نفتح أعيننا على أكثر من ثلاثمائة نوع ولون في مهرجان التيوليب السنوي. الزهرة التي تصمت أنت، لتقول لك كلاما بكل لغات الأرض، فإهداء زهرة تيوليب حمراء بالفرنسية يعادل جملة "حبك لا يقاوم"، واقتناء البنفسجية يشي بالانبهار

والفخامة، وحيازة الصفراء، تنعي بأسى وفاة قصة غرام. كنت مأخوذة بتشكيلات الزهور البرتقالية مع الأبيض والأخضر، أمام خلفية البحيرة ذات اللون السماوي الهادئ، والجبال ونُدف السحب البيضاء، حين كان يروي لي "نيل" حكايات ولغات التيوليب تلك، إلا أنني على مرمى ناصيتين، لمحت جسدا ووجها اسمر أليفا، يعبر الطريق مثل سهم موجه، ويشتبك به قلبي، مثلما كان يفعل في طفولتنا، وفي شبابنا، حين كنت أجاهد لكي أجاريه في السير، لكنه كان يشطح بعيدا، على كورنيش النيل، وفي شوارع وسط البلد والدقي والزمالك، حتى تباعدت الخطوات والسنوات لأكثر من عشرين عاما. هل دفعت بي الكاتبة الكبيرة "بداية الألفي" إلى تلك البلدة في النصف الآخر من الكرة الأرضية، عن عمد منها، لكي ألاقي ابنها الأصغر، الذي غادر الوطن بلا رجعة أو بصيص من حنين، فربما أيقظتُ "نوستالجيا" دفينة في جزء من روحه، وأعدته إلى موطنه الأصلي، ليلتم شملها معه؟ هززت رأسي لأفيق من تلك الغفوة، وغمغمت " ليس من رأيته هو "سمير"، وإنما شُبه لي"، ثم استدرت ناحية "نيل"، كمن يتقلب على الجهة اليمنى حين ينتابه كابوس أثناء النوم.

في اللقطة التالية، كنا نقف في مكتبة، حيث ينتظر"نيل" أمام الكاشير، ويدفع ثمن دفتر ورق خطابات، وكارت عليه صورة تيوليب بنفسجية، ليرسلها إلى أبيه الروحي، البالغ من العمر تسعين عاما، ولا يدري كيف سيواجه العالم بمفرده، إن انتقل الرجل المسن إلى جوار ربه. قال "نيل": "سأكتب له الخطاب السبعين بعد المائة، بخط فرنسي مائل بالحبر الأسود، ليضمه إلى دفتره، كما أقتني في دفتري مائتي خطاب منه، تصلح قصائد شعر، ومقالات نقد أدبي، وجولات في بلاد الأرض على هيئة حروف منثورة".

هل أعترف له أنني أنا الأخرى أدور كتابعة في فلك الأديبة الكبيرة، وأنني هنا بناء على إيحاء أرسلته لي كتعويذة عن بُعد بأن "ارتحلي وتحايلي واكتبي الحكايات،

فأنت مرصودة لتكملي ما بدأته، وقررت التوقف عنه، لالتقاط الأنفاس؟ هل أقول له إنني أتطلع أن أكون هي، وانني أصبو أن يستبدل إسم"بداية الألفي" بـ"بداية مهران"؟ قلت له في هدوء: "أنا أيضا لي أم روحية.. وكانت تحب الكتابة!". أجابني ساهما: "ليت لي والدة روحية تتفهمني، وتتيح لي مساحة من الحرية، فأنا أغادر لندن متعللا بالندوات والمحاضرات، لأتخفف قليلا من محاولات أمي الدائبة لتجبرني على الدوران في فلكها".

نحن الآن في شارع حجري، لا يحتضن سوى المارة السائرين، وقطار بالأبيض والأحمر، احتوانا كطفلين يلهوان في مدينة ملاهي، لنتفرج على الأكشاك الملونة، التي تعرض مأكولات وفطائر من صنع ربات البيوت، وأطقم شاي وملاعق فضية وأوانٍ خزفية استغنى عنها أصحابها، وأثواب هندية زاهية، وأدوات بحر، وساعات وسكاكين متعددة الأغراض. جلسنا بجوار نافورة تقليدية، تشبه طست الاستحمام، وعلى ألسنتنا مذاق ومرارة قهوة نحتسيها، وحلاوة كلمات نتبادلها، تتوافق وطعم الشوكولاتة المحشو بها فطائر الكريب التي صنعتها امرأة في مطبخ سويسري، لتصبح من نصيب امرأة من مصر، ورجل من انجلترا، وعصفورة صغيرة تتمشى على سور البحيرة، فتت لها "نيل"بعض فطيرته، ومال عليها وسألها هامسا: "هل تعرفين إنك حلوة؟".

فاتنا الأتوبيس العائد إلى بلدتنا، لنجد أنفسنا في مقهى قديم بداخل أقدم محطة قطار، نراقب وصول الباص، وبداخلي رغبة في ألا يأتي أبدا. قال "نيل": "لماذا تكون مقاهي المحطات فقيرة دائما؟" قلت: "لكنها أكثر حميمية من كافيتيريات المطارات". أومأ وهو ينظر في عيني: "فعلا، في المطار تسلمين نفسك وكل أشيائك لشركة الطيران، أما القطار فيحتويك أنت وما تعتزين به جنبا إلى جنب".

بدأ الجو الربيعي يتحول إلى خريفي ماطر، فقررنا أن نظل بداخل المحطة ليحتوينا القطار القادم بعد نصف الساعة.

في إحدى الصباحات التي تلصصت فيها على خطابات صاحب بيت إقامتنا، اطلعت على الخطاب الذي ألقى في جنازته، واعتبره المعزون محظوظا لأنه صعد كما كان يأمل، فقد لفظ النفس الأخير أثناء ندوة أدبية في نيودلهي. سألت رفاق القصر في تلك الليلة، كيف وأين يحبون أن تكون إغفاءتهم الأخيرة. قالت "كاترينا": "في المطار"، وأجمع "جون" وأولجا و"نيل" على شاطئ البحر، أما أنا فقد كنت أرغب أن تكون نظرة النهاية على فتيات رشيقات يتهادين ويموجن أيديَّهن مثل بجعات، على نغمات كلاسيكية، تعزفها اوركسترا أسفل مسرح الأوبرا الذي تتقافز بخفة عليه تلك الراقصات، وحين تمتزج الموسيقى بجمال اللوحة، أغلق عيني وأهمس "الله، فأبعث على ما مت عليه". رحلة اليوم منحتني خيارات جديدة لنومتي الكبرى؛ محطة قطار عريقة، بحيرة تزور مدنا وتحكي حكايات، أو جبلا متعدد الألوان، ليست به وعورة ورهبة الجبل "الذكر"، بل دفء وحنان الهضبة الأنثى، فتستشعره وسادة ناعمة، تسحبك إلى عمق سحيق.

"بداية.. بداية.. أنا سمير.. فاكراني؟".

يتركب الصوت الأليف على الصورة التي خلتها لقطة في حلم، حين كان "سمير" يعبر الطريق، وأنا أتمشى بجوار "نيل". كيف تمر سنوات عشرون، دون أن تترك أثرا على ملامحه، سوى بعض الشعيرات الفضية على جانبي رأسه، التي لو صبغها بلونها الأصلي، لتوقف الزمن عند اللقطة التي غادر فيها فجرا، دون كلمة وداع؟

تختلط الأزمنة، فأحكى لـ"نيل" عن جارنا الذي شهد بئر السلم ألعابنا معا، وشقاوته المنفردة مع كلبه الحبيب، ورحيله في ظروف غامضة، وأحكي لـ"سمير" عن "نيل" الذي يشاركني سكني الفخم في القصر القلعة الذي يحتوينا، لنكتب الحكايات، وأنني هنا لأكمل ما بدأته أمه، ثم وقفتُ صامتة أنصت لحديث الرجلين معا، مثل نائمة اختلط حلمها الأول بحلمها الثاني، فغامت الأحداث، ولم تتذكر حين استيقظت سوى أنها شاهدت نفسها كطفلة وامرأة في آن معا، تلهو ويتعلق قلبها بطفل صغير، لأنها تود أن تعيش معه في البيت نفسه الذي يضم أمه، وتحذرها نساء وفتيات ألا تتمادى في مشاعرها.

تبادل "سمير" و"نيل" حوارات عن الحيوانات الأليفة، فحكى نيل عن قطته التي كانت تصدر صوتا ليلا يشبه كلمة "نيل"، فيستيقظ ليكتب فصلا من رواية، وحين كتب كلمة النهاية، كفت القطة عن المواء باسمه، ثم ماتت في سلام، وتكلم سمير عن كلبه الذي يملأ غربته، وقال انه يغنيه عن المرأة والولد، كلما رحلت عائلته، كما تبادلا أرقام الهواتف، واتفقا على أن يزورنا سمير في قصرنا الحلم، ثم يأخذنا في جولة في مدينة "لوزان" حيث يعيش منذ ربع قرن.

كانت هذه هي الليلة الأولى التي لم أدر فيها ظهري لفترينة الكلاب المحدقة في، فلقد رأيت فيما ترى المستيقظة، "نيل" وهو يغازل عصفورة البحيرة، وقطته التي كانت تتلبسها روح ليلية وتناديه لكي يكتب روايته، وسمير حين كان يتقافز على رصيف العمارة وبجواره كلبه "دريم"، وحين كان يقتطع من وجبته، ليطعمه بما لذ، في مقابل مسحة حنونة على فرائه. تذكرت مقولة قرأتها ذات يوم بان حياة الإنسان تظل ناقصة ما لم يمسد على ظهر حيوان، لهذا لم يقرر الحبيب الأول للكاتبة الكبيرة أن يقضي ما تبقى من عمره معها، في منفاها الاختياري بالإسكندرية، إلا بعدما مات كلبه الأثير، وأن ما كان يجمع بين كل

أزواجها السابقين، غير افتتناهم بها، هو أنهم كانوا يقتنون أنواعا مختلفة من الحيوانات الأليفة.

لاحظت تراكم أغصان رفيعة ومتكسرة على طرف شباك غرفتي، ظلت تتكاثف وتستدير يوما بعد يوم، حتى صارت عُشا يؤوي يمامة ويغويها بالمكوث الهادئ، الذي يتخلله رفرفة جناحيها، التي تمنيت للمرة الأولى لو لامستها وضممتها إلى صدري. روح "فلاديمير نوبوكوف" تزورني الآن في غرفته، وتسعد بتخلصي من فوبيا لمس الكائنات غير الآدمية، فقد عشق الفراشات وصار عالما بكل أنواعها، وحين استقر هنا في سويسرا، عثر على فراشة غريبة، أسماها باسمه. تمازجت أرواح الكائنات الهائمة في الغرفة، حتى آلت إلى كمال، فالروح تظل ناقصة..ما..لم.. تقع في.. غرام.. حيوان..

ضغطت الليلة الأولى على زرّ الأباجورة، ليعمّ الغرفة ظلام آمن، وتنهدت بارتياح لأن أيا من الرجلين "سمير" أو "نيل"، لم يصرّ على الغوص في تفاصيل تخصني، وكان حلم الليلة مكونا من شتلات بألوان عديدة من أزهار التيوليب. لم يكن بالحلم أية كلمات، سوى الحروف المكتوبة التي شهدتها في الصباح، على البطاقات المتناثرة في حديقة الحرية المطلة على البحيرة بمدينة "مورج"، وتؤرخ للزهرة البهيجة:

"لزهرة التيوليب حياتان: حياة فوق الأرض، تنتهي بالأزهار ذات الألوان الجميلة، وحياة أخرى خفية، تنتهي بتكوين الأبصال الجديدة. تلتف التيوليب حول نفسها، وتبقى منغلقة كالمرأة التي تحيط نفسها بهالة من الغموض، خوفا من انفضاح مشاعرها حياء وخجلا".

القاهرة

ابتهال – موظفة الاستقبال

مدام أمينة – صاحبة الجيمنازيوم

"كان أهل اسبرطة في اليونان القديمة يحتقرون الضعف، وقد تعلمت الفتيات الاسبرطيات كل التخصصات الرياضية، بما في ذلك المصارعة، فكن مفتولات العضلات وذوات بنية جسدية عفيّة. لم يكن لديهن خيار، فمهمة الفتيات هي قهر المحاربين".

على الحال التي أكونها، أرى العالم بأسره، فاليوم الذي أخطو فيه إلى الجيمنازيوم بثياب غير جذابة ونفسية هابطة، لا أرى سوى البدينات المحبطات، وقبح البنات وهن يلهثن في عرقهن بدون زينة الوجه، وتحوّل أشكالهن إلى الأسوأ حين يستبدلن الملابس الرياضية العصرية، بالعباءات السوداء وأغطية الرأس وهن يغادرن المكان. تسير الأمور اليوم على عكس المعتاد، فلقد دخلت الجيمنازيوم بعقل مزدحم بالأفكار وقلب ينوء بالمتاعب، تاركة خلف البوابة تكدسا مروريا يليق، مثل كل عام، بوقفة العيد الصغير. صالة الأجهزة فارغة من اللاعبات ومناضد الكافيتيريا خالية من روادها، فلا تسكع ولا ثرثرة خلا أصوات بعض القنوات التليفزيونية المفتوحة في الشاشات التي تعلو الأجهزة، وكأنها آلات موسيقية تعزف بلا عازفين في بيت للأشباح. حتى مدام أمينة صاحبة الجيمنازيوم

التي تحوم بأرجاء المكان مثل شرطي دورية تلاشت هي الأخرى. العيد مبرر معقول لتغيّب الجميع، لكنه غريب بعض الشيء بالنسبة لهذا الكم من الملصقات على حوائط صالة الاستقبال، التي تعلوها لافتة مكتوب عليها: "بمناسبة العيد". رسومات كاريكاتير لفتيات بملابس متنوعة، أسفلها تعليق "ماتقولش أصل لبسها.. قول جريمة اللي حصللها". ملصق آخر لذئب يرتدي فانلة وبنطال مخطط، يضع ساقا فوق الأخرى ويكشف عن أسنان حادة وهو يقول: "خدمة 24 ساعة.. انزلي في أي وقت ستجدي ما يضرك". وأسفل الصورة تعليق "ماتقولش أصلها نزلت متأخر.. قول حقها تمشي ف أي وقت بأمان"، وتعليقات أخرى مثل "ماتقولش أصل مشيتها.. قول مش هسكت على إهانتها". صوت الخلّاط الكهربائي وهو يمزج كوكتيل الفواكه يلفت انتباهي إلى أن عاملة البوفيه تمارس مهامها في صمت.

"هو النهاردة أجازة ولا إيه؟" أسألها.

"لأ.. أصل فيه مدرب جوة للدفاع عن النفس، تبع حملة ضد التحرش. العيد بكرة، كل سنة وأنت طيبة يا دكتورة".

لست من المتنزهات في الأعياد على ضفاف الكورنيش، ولا من الذاهلات أمام تخفيضات العيد بفترينات محال وسط البلد، حيث يبلغ الاحتكاك الجسدي العفوي والمتعمد ذروته، ولا أظن أن من تترددن على هذا الجيمنازيوم بحاجة إلى النزهات رخيصة التكاليف، التي تكبد في النهاية خسائر لا تعوّض، ومع ذلك أبدل ملابسي بسرعة لألحق محاضرة الدفاع عن النفس، فاتتني منها دقائق خمس فقط.

لا تعكس المرآة العريضة في صالة التدريب الحركات المتشابهة للنساء والفتيات مثل كل اللعبات الأخرى. هي فقط صالة ممتلئة عن آخرها بفتيات يرتدين ملابس رياضية وفساتين وسراويل والنقاب، بعضهن لسن عضوات،

أتين كزائرات للاستفادة من المحاضرة. كلهن ينتعلن الأحذية الرياضية، وينظرن بتركيز شديد إلى المدرب الذي يتوسطهن، ويكاد يهرب بعينيه من نيران نظراتهن التي توشك أن تميته حرقا، بتهمة أنه رجل.

كأنه يتحاشى خطرا يُحدق به، يقنع المدرب الفتيات بأن لا يتمادين في الدفاع عن النفس، وإلا تحولن من ضحايا إلى جناة، لو قمن بإيذاء المتحرش بإصابة بالغة، وإنه هنا فقط لنشر رسالة سلام. تخرج مدام أمينة صاحبة الجيمنازيوم عن هدوئها المعتاد، وتوجه له أمرا في حدّة: "شوف يا كابتن. إحنا مش هنقف نضرب رجالة ف الشوارع. قل لنا مواطن الضعف اللي نستهدفها ونخلص.. النهاردة وقفة العيد وفاضل ساعة ونقفل". تغادر داليا، الفنانة التشكيلية القاعة لتدخن، إلا أنها لا تعود إلى القاعة، وكأنها توصلت إلى حل مع نفسها بعيدا عن التدريبات. "شوفوا، أنا هروح البيت بلبس الرياضة ده، واللي هيقوللي لبسك عريان، هضربه على قفاه، وأقول له أصل قفاك عريان وعجبني". تعمّ حالة من الهرج القاعة، خاصة بعد أن تسري عدوى المغادرة. يتيه صوت المدرب وسط صيحاتهن وضحكاتهن وهن يطلبن الملصقات ونشرات التوعية بطرق الدفاع والوقاية وأرقام الخط الساخن لإدارة جرائم العنف ضد المرأة بوزارة الداخلية. وحين تسحب داليا نفسها بعيدا عن بؤرة الصخب، يزورها كالعادة، ملاك الإبداع، يصب جماله في رأسها وينفخ بلسما يلين أصابعها ويطوّع فرشاتها لأفكارها. تستلهم داليا الحالة كموضوع لمعرض الجرافيتي الذي ستقيمه في ميدان عابدين، بعد أسابيع ثلاثة.

راوغت أميرة كثيرا في قبول دعوات الفنانة داليا إلى معارضها المتكررة في ميدان عابدين، كما تجاهلت دعوات تأتيها على الحائط الافتراضي للفيسبوك لمعارض حُلي وكتب وأغنيات شبابية وقصائد شعر تلقى في المكان نفسه، لأنهم مهما تفننوا في ابتكار وجه جمالي يوازي الخيبات التي تصاحب الثورات، فإن حي عابدين بأكمله

يمثل لأميرة شقة "صمود" و"صدّيق" المعتمة، أولاد خالتها فكرية، المتحرشة الأولى بخالتها هند، والتي حمّلتها هذا الميراث من التحرش النفسي بواسطة "صمود" المدللة بـ"صاصا". ولأن من يخشى العفريت، يظهر له، ظلت أشباح "صاصا" تطاردها بأشكال مختلفة، لكن هذه المرة على هيئة "ابتهال" زوجة صدّيق، والمقيمة معه بشقة عابدين، مع بنتيهما. انتقلت "ابتهال" زوجة "صدّيق" للعمل مؤخرا في الجيمنازيوم كموظفة استقبال، بعدما توسلت إلى أميرة أن تتوسط لها عند صاحبة الجيمنازيوم. اعتبرت أميرة أن هذا هو آخر الخدمات التي يمكن أن تمنحها ل "ابتهال"، بعدما ظلت تفرغ في رأسها حثالة حياتها اليومية مع زوجها "صدّيق" وأخته "صاصا"، وكان على أميرة أن تضع سلة المهملات هذه عند الباب. وقد كنت أنا هذا الباب، نظرا للصفة التي انتحلتها، ولم أعد قادرة على التراجع والاعتراف بكوني لست مرشدة نفسية، فالحكايات تصب بسلاسة في أذني، وأقوم بتدوينها ورقيا والكترونيا، علّي أصبح بفضلها روائية. وهذا هو عزائي الوحيد، لأن الحكاية المثقلة بالهموم بدأت تعبث في قلبي وتأكل أجزاء من روحي.

قبل أن نغادر صالة الألعاب، ظهرت كاميرا فيديو احترافية ضخمة، وخلفها مخرج يسألنا أن ندلي بكلمات مختصرة عن ما استفدناه من المحاضرة، لرفع هذا الفيديو على الصفحة الرسمية للحملة. هرعت "ابتهال" خارج القاعة وهي تضع منشورا على وجهها لإخفاء هويتها، ففرص أن يشاهد "صدّيق" هذا الفيديو كبيرة، خاصة بعد أن صار ناشطا سياسيا، من مقره الدائم طوال اليوم على فراشه، محدقا في شاشة الكمبيوتر، مالئا صفحته على الفيسبوك بالمشاركات والسباب واللعنات. وإن أخذ حذره من احتمال أن تتسلح "ابتهال" بآليات الدفاع عن النفس، قد يتخذ هو الخطوة الاستباقية، كما علمته السياسة التي انتسب إليها مؤخرا.

"محاضرة ايه اللي استفدت منها دي؟ يعني هاحط ف بؤي صفارة وأصفّر كل مايقرب منّي في السرير، ولا كل مايسيبني ويروح للست التانية؟!!! قالت "ابتهال" قبل أن تفرغ إنفعالاتها أمامي حتى تستريح، بناء على نصيحة "أميرة".

تمتلك ابتهال كما محترما من أنواع المخاوف، أبرزها فوبيا الفقد، التي حين تشتد عليها تصيبها بنوبات هلع ينخلع معها قلبها. في المرة الأولى التي لجأت لي ابتهال، مدت لي يدها بروشتة مكتوب عليها اسم أقراص مهدئة وسألتني هل تخفف الجرعة أم لا؟ الغريب انها في بداية ترددها على الأطباء النفسيين كانت تريد مهدئا لزوجها "صدّيق"، لكي يكف قليلا عن لكزها واهانتها ثم مضاجعتها. والآن بعد أن توقف عن ذلك كله، صارت تتناول هي المهدئ، لأنه اتجه بطاقته إلى ناحية أخرى، فتعاظم شبح الفقد الذي يأتيها في كوابيسها، لترى نفسها كل ليلة بلا بيت أو أبناء أو زوج. تدس ابتهال يدها داخل حقيبتها وتخرج صورة حديثة لزوجها "صدّيق" قائلة: "عشان بس تعرفي الهبل اللي انا فيه"!! هذا المسخ الذي تكتسي عظامه بالجلد، ويرتدي ملابس مهلهلة، ويطلق لحية عن عدم رغبة في بذل الجهد لحلقها، هو الشخص نفسه الذي تتصارع عليه امرأتان، أنا ليؤويني والأخرى لا أعرف لأي سبب. تزوجت صدّيق بعد انفصال أبي وأمي وارتباط كل منهما بشريك غريب عني. لصدّيق وجهان.. وجه حمَل يراه الناس جميعا، ووجه ثور هائج لا يعرفه سواي وأخته "صمود"، وبالرغم من ذلك لا ترحمني، وتؤكد لي في كل مناسبة أنني ضيفة على شقة أخيها، وتحرص على قضاء يومين أو ثلاثة كل أسبوع في بيتنا، بيت أمها، في عابدين.

كما يرى الناس جميعا وجه الحمل، رأته المرأة الأخرى، رفيقة البيت القماش الذي أسّساه سويا في ساعة واحدة، خيمة الاعتصام أمام وزارة الدفاع. فرحتُ في البداية، فقد بدأ يترك البيت باليوم واليومين، وحين يعود، يتسمّر من أول الليل حتى مطلع النهار أمام صفحته على الفيس بووك. حلق لحيته وهذّب

شاربه واشترى بنطال جينز وثلاثة قمصان. قلت لنفسي "لم أكن له يوما صديقة، لذا لم أستطع أن أقنعه أن يعود لوظيفته في البنك، وأخذه اجازة مرضية تلو الأخرى، بسبب تمزق أربطة قدمه اليسرى. وحين فاجأني بأنه قرر العودة إلى العمل بعد أن ينتهوا من الاعتصام، لم أكن أدري انه رمى لي الخبر كطعم لقبول زيارة رفيقة الكفاح وزميلة الخيمة، لتناول الإفطار لدينا في رمضان. كان يصفها أنها امرأة بمائة رجل، تستوقف السيارات وتوزع المنشورات المناهضة لحكومة الإخوان، وفي الهتاف، يعلو صوتها على صوت الرجال والأبواق التي تتزايد حين يضيق السواق بقطعنا للطريق.

لم أقدر أن أؤمن بـ"صدّيق" كمناضل نبيل مهما اتهمني بالتخاذل والسلبية، وابتلعت فكرة الرفيقة المناضلة، امتنانا لها على تحويله من عاطل مشاكس لي ولبناته، إلى رجل عادي مثل باقي الرجال.

قبل آذان العصر بقليل، سمعت صوت "صدّيق" خارج باب الشقة وبصحبته رفيقة الخيمة ذات الهتاف الجهوري. فهمت كيف كان صوتها يغطي على أصوات الرجال، فقد أطلقت ضحكة مجلجلة، امتدت داخل الشقة وصعدت حتى آخر دور من بئر سلم العمارة. قبّلتني واحتضنت البنتين ثم ارتمت على أريكة الصالة وخلعت حجابها بسلاسة، ثم سألتني بتلقائية عن مكان الحمّام لأن الحر سيقتلها وتريد أن تأخذ "دوش". من تحت المياه صاحت باسم ابنتي الكبرى واستأذنتها في جلباب مريح لكي تنام حتى آذان المغرب. على السرير المقابل في غرفة البنات، استلقيت أنا الأخرى، لعلي استشفّ أبعاد العلاقة، لكنها ظلت واضعة هاتفها المحمول على أذنها، وهي تهمس بكلمات مبهمة، مصدّرة لي ظهرها.

شكلت تلك الزيارة نقطة تحول في سلوك أهل البيت، فلقد تحولت بناتي إلى مخبرات سريات تحت قيادتي، حيث نراقب الصادر والوارد من البريد

الالكتروني والرسائل المتبادلة التي يقضي زوجي الليل بطوله في كتابتها على الكمبيوتر، فالـ"باسورد" كان بحوزة ابنتاي.

"عايزة عباية زي بتاعة "ريهام سعيد" اللي طلعت بيها امبارح في التليفزيون"(رسالة واردة من المرأة).

"هلف القاهرة كلها وأجيبهالك"(رد صدّيق الذي رفض أن يعطيني مائة جنيه لشراء بلوزات للعيد، بحجة انه مفلس تماما).

توقف صدّيق عن دفع أية مصروفات بالبيت، على الرغم من انه قد انتظم في عمله، كما وعد الأخرى، وترك لي أمر تدبير الأموال من السلفيات الصغيرة فوق المرتب من مدام أميرة ابنة خالته، ومدام أمينة صاحبة الجيمنازيوم. أما مالم يتوقف أبدا فهي الحوارات المسهبة على الكمبيوتر بينه وبين الأخرى، وقيامي أنا والبنتين بقراءتها فور نزوله إلى العمل".

أثناء وقوفي عند كاونتر الاستقبال حيث تعمل "ابتهال"، كانت مدام أمينة قد أعطت أوامر للعاملات بلصق أكبر كم من تعليمات الحماية ضد المتحرش.

اللافتة الأولى:

"الضرب في المناطق الضعيفة (الوجه بشكل عام والعينين بشكل خاص). خلف الراس على جانبي الرقبة. الضرب بقوة في منطقة الحجاب الحاجز. الضرب أسفل المعدة بين الفخذين. الضرب في الركبة. الضرب على أطراف اصابع القدم ثم ضربة سريعة بالكوع في المعدة".

تُمعِن مدام أمينة النظر في الملصقات، وتقترب منا هامسة في أذني "ممكن تشربي معايا الشاي فوق ف شقتي؟".

اللافتة الثانية:

"أي شيء ساخن موجود أمامك، إذا هوجمت في بيتك، واقذفيه في الوجه مباشرة، خاصة العينين، لذا يكون لديك وقت للتصرف أثناء انهماك الخصم في تحسين الرؤية".

للخديعة مبررات محدودة أبرزها الحرب على الأعداء، وليس من بينها إيجاد موضوعات صالحة للكتابة على ما أظن، إلا أن قوى سحرية تدفعني دفعًا نحو فعل أي شيء لإكمال ما بدأته. نصعد أنا ومدام أمينة إلى الدور الخامس بالعمارة التي يحتل فيها الجيمنازيوم الدور الأرضي، ومركز التجميل التابع له، الدور الأول. ماذا لو كانت مدام أمينة دون ما تبدو عليه من جدية، وتخفي خلف قناع الصرامة امرأة فاتها قطار الخلاعة، فقررت أن تدير شقتها بالدور الخامس للدعارة؟ هل تعتبر فضيحة القبض عليّ في تلك الشقة المشبوهة، ثمنا

منطقيا لكل ما اقترفه منذ شرعت في كتابة هذه الرواية، لمجرد أن أثبت أنني كاتبة؟ ألا يكفي ما يحدث مع هدى عاملة الباديكير، لكي يمدني بالقدر الكافي من المعلومات؟

"اتفضلي، البيت بيتك"..

تُفسح لي مدام أمينة الطريق نحو غرفة الصالون، وتستأذنني لدقيقة ريثما تعد الشاي بنفسها، شغالتها ذهبت في أجازة ولم تعد، وهدى التي كانت تساعدها أحيانًا اختفت للمرة الثانية، ولا يعرف لها أحد طريقا.

يشبه البيت صاحبته، نظيف الى حد الهوس، به كل ما يلزم، وليس له ملامح مميزة. مجرد سيراميك لامع وحوائط مطلاه بعناية، وأطقم صالونات مذهبة حديثة الصنع، من نفس لون الستائر ذات الثنيات الكثيرة المتداخلة، ولوحات من القطيفة مشغول عليها آيات قرآنية بالخيوط الذهبية. لا شيء له تاريخ؛ قطعة موروثة من الفضة، أو صورة بالأبيض والأسود المائل للاصفرار لجد يرتدي طربوش، أو سجادة شيرازي تآكلت من الحواف فتزايدت قيمتها. يسود هدوء راكد مثل مسجد في غير مواقيت الصلاة، ولا يكدّر هذا السلام سوى أصوات من رأسي تحثني على المغادرة، وأصوات أخرى تصيح بأن أبقى، فقد تحمل الدقائق القادمة ملامح حكاية تصلح لأن تكون فصلا أو حتى جزء مكمل لفصل في الرواية. يخرس رنين الملعقة في كوب الشاي الحرب الدائرة في رأسي.

"إيه رأيك ف محاضرة ضد التحرش دي؟" تسألني مدام أمينة.

"آه.. كويسة قوي". أردّ متعجلة لسماع الموضوع الأصلي الذي استدعتني من أجله.

"هدى بتاعة الباديكير كانت قالتلي أن حضرتك دكتورة نفسية، وأنها مش بترتاح إلا أما تتكلم معاكي". أتوجس من ذكرها لسيرة هدى. لابد أنها قد استدرجتني للانفراد بي في شقتها، لتعرف معلومات عن هدى. ألتزم الصمت.

"أنا خايفة تكون هربت مع إيرين صاحبتها واتلمت على واد مسيحي من قرايبها واتجوزته". تستطرد مدام أمينة، بينما أفتعل انهماكا في وضع قطعة سكر إضافية في الشاي.

"أنا قلت للأستاذة أميرة تدوّر عليها تبع الحملات اللي بيعملوها دي للبحث عن المفقودين ف الثورة، ولا اللي بيجيبوا فيها البنات اللي بيتخطفوا أو يهربوا عشان يغيروا ديانتهم!!

شوفي بأة يادكتورة.. من غير لف ولا دوران كدة.. أنا عايزاكي عشاني أنا".

على الرغم من أن التعبير الذي استخدمَته لا يطمئن، إلا أني قد تخففت من مخاوفي بأن يكون أمري قد انكشف، وأترقب القادم من الحدوتة في شغف. من قلب السكون ينفتح باب الغرفة الداخلية وتخرج فتاة تشبه مدام أمينة في ملامح الوجه فقط، أما الملابس العصرية والشعر الكثيف المتموج والعطر الذي يفوح منها وعبق الصالة بأريجها، فلا يشي بأن هذه الشابة تنتمي لمدام أمينة، ذات الحجاب الكلاسيكي الخالي من التميز.

"أول ما تركبي التاكسي، تتصلي بيا وتمليني نمرته بصوت عالي، عشان السواق يسمع أننا عرفنا انكِ راكبة معاه، وإذا حاول يعمل أي حركة ولا خدك على طريق تاني، تجيبيه من رقبته بإيد شنطتك، أو ترشي السبراي ف عينه.. ربنا يستر على كل البنات. الواحد هيلاحقها ع اللي برة ولا اللي جوة!!"هكذا أنهت مدام أمينة تعليماتها لابنتها، وبدأت في التحدث إليّ مباشرة:

أخجل يا دكتورة مما سأحكيه لك، فهو لا يليق بامرأة تجاوزت الخمسين مثلي. كل ليلة أحلم أنى في شارع مظلم، أو شارع سد، أو شارع به سلال قمامة ضخمة تقفز منها أو إليها القطط الجائعة، أحاول أن أجرى مبتعدة لأصل إلى النور أو الهواء، لكن هذا لا يحدث أبدًا. أستيقظ في منتصف الليل وأنا ألهث من الرعب. أستعيذ بالله من الشيطان وأنقلب على جانبي الأيمن، وأنام هادئة حتى الصباح. مثل هذه الأحلام تزعجني أثناء الليل فقط، وأنساها بمجرد أن أستيقظ. المشكلة في الأحلام التي تمتعني وأنا نائمة، وتعذبني بعد أن أستيقظ. لا تفهميني خطأ، فلقد قرأت في فقه المرأة أن النساء يشاهدن أحلاما إباحية أثناء نومهن مثلهن مثل الرجال. ما أراه أنا تنويعة أخرى، لا تليق إلا بمراهقة لم تتجاوز الرابعة عشر، رأيت مثلا فيما ترى النائمة، أني أنتظر زوجي في الشارع، لكي يوصل الأولاد إلى المدرسة، لكنه لم يحضر وعرفت بشكل ما أنه قد نسي الموعد وانصرف كعادته إلى العمل. رأيتني أجلس على النجيلة، وتنفرد تحت ساقي تنورة بها ورود زاهية، وإلى جواري يجلس سائق تملأ وجهه ابتسامة. كان وسيما وروحه لطيفة. قال لي بالحرف: "الحسابة بتحسب" لكني سآخذ منك قرش صاغ واحد على هذا المشوار. لا أعرف أي مشوار، لكني صممت على أن أمنحه خمسة وعشرين جنيها. وصل زوجي بسيارة فارهة ومعه الأولاد. ركبت بجانبه وعيني معلقة على سائق التاكسي، الذي كلما أخذتني السيارة بعيدا عنه، كلما شعرت أن روحي تنسحب مني.. وهنا انتهى الحلم.

ظللت لأيام أستعيد مشهد الفراق الذي رأيته أثناء نومي، وأنا أتلذذ باجترار المرارة التي انسالت في حلقي مجازيا، وتركت مذاقا لاذعا حقيقيا في فمي لأيام. أخشى أن تكون حكايات البنات في الجيمنازيوم التي يسردنها ليل نهار قد أثرت عليّ. وأخشى أن يكون هذا الحلم هو ما دفعني إلى أن أشجع هدى على التمادي في علاقتها بإيهاب سائق التاكسي، الذي ربما يكون قد ألحق بها مكروها، ولا أدري كيف أدفع عنها الضرر. ليت كانت هناك دورات تدريبية ضد التحرش المنزلي. كل من يتحدثون عن التحرش يتكلمون عن ذكور يمدون أياديهم على فتيات، أو صبيان مراهقين يؤذون نساء كبيرات باللفظ أو الفعل. أنظري إلى تلك النصيحة المكتوبة في إرشادات التوعية: "يفضل عدم السير فرادى، خاصة في الليل، وعلى السيدات تجنب الأماكن المظلمة والخالية من المارة". كيف أتجنب غرفة نومي المظلمة الخالية إلا من "الحاج"، وهي المكان الوحيد الذي يشاركني فيه أي شيء على مدار ثلاثين عاما؟ فلا مناسبات سعيدة تجذبه، ولا واجبات عزاء يشارك بها. حتى أثناء مرضي لم يرافقني إلى عيادة طبيب، أو سهر ليلة يضع كمّادة على رأسي. فقط يفتح حافظته ويسلمني حفنة مئات أمنحها من أموال الزكاة لمن يهمه الأمر، أو لأصحاب الحزن والفرح نيابة عنه. في تلك اللحظات ألمح سهام الحسد تصوّب نحوي لأني فزت بالحاج وبحافظة نقوده، مع أنه هو الشخص نفسه الذي لفظته بنات حينا الشعبي، لأنهن كن يرغبن في مكسب سريع، يحققه لهن رجل ذو حرفة يدوية أو صنعة، سباك أو كهربائي، وليس مدرس تربية رياضية. أنا فقط من كنت أدرك أني كخريجة معهد التربية، وابنة الحارة الضيقة. ما كان يمكن أن أطمح في زميل يعيره أهله بالشق الرفيع الذي يؤيني أنا وإخوتي الأربعة. كان لابد أن يكون العريس سليل السرداب نفسه. كانت لي أحلام أن أهز العالم على النغمات والإيقاع وأصلح بال الصغير قبل الكبير، وكان لزوجي حلم أن يصعد رأسيا ونشق لنفسينا طريقا فسيحا، خارج حدود السرداب الضيق. غادر العمل الحكومي

بلا رجعة، جاب بلاد الله، باع جرائد، غسل صحونا، عجن فطائر، باع واشترى ثم باع واشترى، حتى عاد وفتح مكتبا لاستيراد الأدوات الرياضية. حقق بأمواله حلمي في امتلاك الصالة الرياضية المثالية، لأطبق ما سعيت من أجله في رسالة الماجستير؛ تأثير الرقص العلاجي على الطفل المحروم أسريا، وتأثير العلاج الحركي على الشعور بالوحدة النفسية للسيدات بعد سن اليأس، لكنني تحولت تحت إلحاحه إلى جابية، حريصة على ابتكار طرائق وأساليب لجمع الأموال كل شهر من الزبونات، أدور بين القاعات لأقنعهن بمزيد من دفع النقود في مقابل النحافة أو اللياقة أو السعادة، وبدلا من أن أكون معالجة متطوعة بالرقص، صرت امرأة تشعر بالوحدة النفسية، وكأن الأموال التي أدخلها خزينتي آخر كل نهار، هي ثمن العهر الذي أمارسه ليلا منذ أكثر من عشرين عام، مع الذي حقق لي حلمي وملأ خزانتي. دعارة شرعية، يباركها الدين ويحسدني عليها المساكين وذوي القربى. الغرفة الضيقة التي سكنها زوجي في طفولته مع إخوته الخمسة، في بئر سلم البيت المجاور لبيت أهلي، جعله يضيق بالأماكن الصغيرة والأبواب المغلقة، حتى وهو يؤدي أكثر الحركات حميمية أو إباحية. انتقلنا من بيت إلى بيت أكثر رحابة، وهو يجهزه بما غلا ثمنه، إلا إنه يبخل في كل مرة بقفل لغرفة النوم. أغادرها أحيانا إلى المطبخ أو الصالة هربا من فضيحة محتملة قد تحدث في وجود الأولاد، إلا أني أجدني أدفعه بقوة وضراوة حين يتبعني ويلاصقني مثل غريب يتحرش بامرأة في أتوبيس. أود أحيانا أن أصرخ، لكن البيت الممتلئ بالأولاد والشغالة يجعلني أشعر كمن يفقد صوته في كابوس، وهو يرغب بأن يستغيث من ملاحقة الشرير. المشكلة هي أنى انتهيت من مرحلة أحلام الفتاة المراهقة التي تتمنى نظرة عميقة من عين حبيب، أو وردة بيضاء تتخلل أصابعها المتشابكة، إلى الأحلام المخجلة بأن زوجي يبول على نفسه في الفراش نفسه الذي يضمنا. اتصلت بمفسر للأحلام دون أن أذكر

أن زوجي هو الذي يفعلها في الحلم، وقال لي أن من يبول على نفسه بجوارك، شخص يثقل عليك بعبء نفسي وعاطفي، فتدبري أمرك".

أفتعل اهتماما بما ترويه مدام أمينة، بينما عقلي يتفرق في اتجاهات شتى، عما تريده هذه المرأة أن أنصحها به؟ هل تريد دواء مهدئا لها أم لزوجها؟ هل تتوقع أن أخصص لها وقتا لجلسات إرشاد نفسي، أم أن أعطيها رقية شرعية تقيها شر الفضيحة وتجملها بالستر؟

يرتفع آذان العصر من المسجد المجاور، فيطغي صوت المؤذن على حكايتها، ويغلف لحظة الصمت المريبة التي تلت آخر جملة قالتها.

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أنا دوشتك يا دكتورة. أحلفك بإيه تنسي اللي قلتهولك؟ ستات كتير تحسدني أن الحاج مش شايف قصاده غيري، وبيفتكروني عاملاله عمل. وحياة أغلى حاجة عندك ما تقولي لحد. أستغفر الله العظيم".

صارت ساعة صلاة الجمعة من كل أسبوع تمثل موعدا ثابتا لمكالمة من ابتهال زوجة صدّيق لي، حيث تضمن مغادرة طويلة منه للبيت، في مليونية أو ألفية أو اعتصام، أو تخمن لقاء خاصا يجمعه برفيقة الخيمة التي يفترض أن تقلب نظام الحكم، فقلبت مبدئيا البيت رأسا على عقب. المريح أن ابتهال كانت تشعر براحة حين تبثني همومها بترتيب الأحداث مثل نشرة إخبارية، لمجرد إحساسها أنها توفر مائتين وخمسين جنيها، ثمن التكلم لثلث ساعة مع الطبيب النفسي. فلقد اختلت ميزانية البيت تماما على الرغم من أن "صدّيق" قد أخذ سلفة من العمل، وعلى الرغم من أن المرأة الأخرى تقنعه بالارتباط بها، وهو

يراوغ، وفقا للتقارير التي تقدمها ابنتا ابتهال لها، بعد عمل مراقبة يومية لكل حوارات والدهما مع المرأة بغرف الدردشة الالكترونية.

تعذر ذهاب الكثيرات من زبونات الجيمنازيوم إلى معرض الجرافيتي الذي ستقيمه الفنانة التشكيلية داليا بميدان عابدين إلا ابتهال، التي وضعت عباءة سوداء على ملابس البيت ونزلت إلى المعرض المقام تحت بيتها مباشرة، وهي توصي بناتها أن يعطونها إشارة على الهاتف إن جدّ جديد. وقفت تتأمل التشكيلات الفنية المعبرة عن التحرش، الذي ظل يكدرها لسنوات، حتى ظهرت امرأة الاعتصام، وسحبت "صدّيق" إلى مصير غير معلوم. حتى داليا صاحبة المعرض، تغيبت لساعات حيث كانت تتعرض للمساءلة، عن استيقاظها بعد الفجر بقليل، ووشم الأسوار والحوائط بوسط القاهرة والضواحي برسوماتها، حيث تم تحذيرها من أن عقوبة رسم الجرافيتي قد صارت أربع سنوات سجن وإحدى عشر ألف جنيه غرامة. لذا لم تتعرض لأية حوائط بذلك اليوم، ودشنت حملة الكترونية لمساواة عقوبة التحرش بالنساء بعقوبة التحرش بالحوائط.

معظم النساء اللاتي حصلن على التعليمات والملصقات في المحاضرة التي دفعن أجرا إضافيا لدخولها في الجيمنازيوم ضد التحرش لم يكنّ من ثائرات الميادين أو اللاتي يتنقلن سيرا، ليضعن مصر على رأس الدول الغنية بالتحرش. وجودي بينهن كأذن تتلقف الشكاوى وتخرجها من الأذن الأخرى، قد وفّر لي معلومة أنهن ممن يتعرضن للعنف على أيدي أزواجهن ويبتلعن المرارة في صمت، وبالرغم من ذلك، جهّزن جميعُهن"سبراي الغضب" بكل مهارة، وأبقينه في متناول أيديهن بالبيت فقط، حيث لم تفكر أيًا منهن في وضعه في حقيبتها أثناء الخروج. ولما زادت الثرثرة حول المقادير وطريقة التحضير بأرجاء صالات اللعب وعطلت التدريبات، أعطت مدام أميرة أمرًا بتعليق طريقة عمل "سبراي الغضب" عند المدخل الرئيسي، وبجوار باب كل صالة لعب.

ضعي الفلفل الأحمر والأسود المطحون في ربع كوب.

ضعي الكحول الإثيلي في الكوب ليغطي الفلفل بحوالي 2 سم.

قلبي المزيج جيدا.

ضعي 1 سم من زيت الأطفال بيبي جونسون وقلبي المزيج لدقيقتين.

ضعي ورق نشاف في كوب نظيف واسكبي فيه محتويات الخليط لتصفيته من الشوائب.

ضعيه في بخاخة أو مسدس أطفال.

**من المهم جدا أنك تجربي البخاخة بعد تحضيرها، بمعنى أنك تقومي بالبخ مثلا على شيء معين، لتتأكدي أن البخاخة تعمل بكفاءة.*

الخطوة الأخيرة هي ما كانت تكض مضاجعهن، فقد كن يشعرن برغبة ملحة، في النهوض فجأة أثناء النوم، وتجربة البخاخة على شيء ما أو أحد ما يغط في نوم عميق على فراشهن.

سويسرا

"اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون،

فإهد ليلي، وأنم عيني"

ما كل حكاية مثيرة ووقعت منذ زمن بعيد، تصلح حدوتة لما قبل النوم، حتى وإن صارت قصة منشورة في كتاب أدبي حقق لصاحبته المجد والمكانة. تبدأ الحكاية هكذا:

"ولدت إستر في وارصوفيا عام 1924. كانت طفلة وحيدة لأسرة يهودية من الطبقة المتوسطة، لكنها نشأت في حيرة لاختلاطها بين المسيحيين واليهود في العاصمة البولندية. كان أبوها تاجرا للمجوهرات وضابطا في الجيش البولندي، وأمها ربة منزل. كانت إستر تحلم بأن تحصل على شهادة عليا من السوربون أو هارفارد، وتصير وزيرة في بلدها. لكنها حين بلغت الخامسة عشر وذهبت إلى المدرسة الثانوية، صارت تتعرض للمضايقات، وتنعتها زميلاتها بأنها يهودية قذرة. قام أبوها بتقديم التماس لدخولها المدرسة الثانوية الكاثوليكية الراقية، وتم إعفاؤها من دروس السبت، لكنها كانت تجلس منفصلة عن زملائها، بينما يتعمدون أن يدفعوها في الأروقة وعلى السلالم. وبعد وقت قليل غادرت هذه المدرسة، والتحقت بمدرسة ثانوية يهودية، إلى أن قامت القوات الألمانية بإغلاقها في سبتمبر عام 1939. وفي عام 1940، أجبر الألمان اليهود على الدخول إلى "حي اليهود"، وأصبحت إستر مجرد عاملة في مصنع بالإجبار. وبعد أعوام ثلاثة، كان كل أفراد أسرتها قد ماتوا، واشتعلت الثورة في حي اليهود من شدة

الغضب، واختبأت في المصنع، حتى جاء الألمان ليأخذوها. أمسكت إستر بمقص حاد، ورفعته في وجه الجندي، الذي هجم عليها، لكنه ضربها بعنف على رأسها بطرف بندقيته، وتوالت الضربات وهو يدفعها نحو الخارج. وعندما أفاقت في اليوم التالي، وجدت نفسها في عربة مواشي مظلمة، ومكدسة بالبشر. نجت "إستر" من محتشدات "ميدانيك" كعاملة للسُّخرة، قبل إطلاق سراحها في بلدة "شيستكوفا" عام 1944، وبعد ذلك هاجرت إلى أمريكا عام 1950".

كانت هذه هي مقدمة الكتاب الذي قامت بتأليفه "كاترينا"، جارتي في القصر، عن قصة حياة والدتها. أما التفاصيل، فقد كانت تتلذذ الأم "إستر" ذاتُها بسردها على كاترينا منذ أن بلغت عامها التاسع عشر، حين قررت فجأة أن تصارحها بأنها يهودية، وبإنها ظلت تخفي عنها هذا الأمر، حتى لا ترى البؤس الذي شهدته هي في شبابها. الأعوام التسعة عشر التي كبحت فيها الأم إستر جماح الحكي، لتجتر بمفردها مرار ماضيها، ظلت تجرعه لكاترينا قطرات من سموم على هيئة حواديت ليلية، وأثناء الوجبات، وفي وقفاتهما للطهي في المطبخ، وعند مرورهما على الأحياء القديمة في بولندا، وعند ذكر والديها، أو ظهور ضابط في الجيش، أي جيش على التلفاز. تلذذت "كاترينا" أيضا بالاستماع في البداية، وأظهرت الامتنان والشفقة والتعاطف تجاه والدتها، وحين نبتت بداخلها بذرة الإبداع صاغت الحدوتة كأجمل ما يكون، على هيئة كتاب بغلاف مصقول ويحمل عنوان "جدران الخوف". ولأن أحداث الكتاب انتهت عند العام 1950، حين هاجرت إستر إلى الولايات المتحدة، لم تتضمن الأحداث أن الزمن قد صالح "إستر"، حين قابلت حبيبها في بيت للشباب في كاليفورنيا، وتزوجته ودفعته للأمام حتى يحقق حلمها هي، وينهي دراسته بهارفارد، ويصير أستاذا للآداب الشرقية، وينجبا "كاترينا" وأخاها، ويعودا

بهما إلى بولندا، كأبناء للطبقة الراقية، التي غادرتها "إستر" حين زجّ بها الألمان في أحياء اليهود. كما لم يتضمن الكتاب أن الألمان أنفسهم قد تولوا ترجمة الكتاب إلى الألمانية والفرنسية والعبرية؛ كنوع من التكفير عن ذنب اقترفه أجدادهم، ومنحوا "كاترينا" الجوائز الأدبية والشهادات الفخرية، وأقاموا على شرفها المؤتمرات التي كانوا يفتتحونها على أنغام أغنية "هافا ناجيلا"، التي يرقص عليها اليهود في احتفالاتهم. ولكن البؤس القابع في ذاكرة الأم، ظل ينخر عظام الابنة "كاترينا"، وكأن أمها تعاقبها على السنوات التي رحمتها فيها من شقاء التفاصيل، بأن تسردها عليها ليل نهار مثل اسطوانة مشروخة، خاصة بعد أن توفي زوج "كاترينا" فجأة، واضطرت للانتقال للعيش في بيت والدتها. ظنت "كاترينا" أنها ستتخلص من العبء النفسي لتلك الأحداث القديمة، وستخلص والدتها منها، حين تكتبها على الورق كما نصحها الطبيب النفسي، لكن ما أفادها حقا لم تكن الكتابة في حد ذاتها، بل السفر والترحال الذي تحققه لها الكتابة. أدمنت كاترينا على الحصول على منح إبداعية للإقامة في قصور الثقافة وبيوت التفرغ للإبداع، بدلا من أن تضع يديها على أذنيها وتصرخ في أمها كلما رددت عليها مآسي ماضيها، بالإضافة إلى معايرتها بفضل تلك الحدوتة عليها في تحقيق مكانة على أنقاض الإحباط والشتات الذي شهدته. وعلى الرغم من أن كاترينا تغلق هاتفها المحمول، وتقطع صلتها بعالمها الأصلي؛ لتعيش في شتاتها الخاص، وتهرب داخل حكايات الآخرين، إلا أنها كانت تستيقظ كل صباح،وبحكم العادة بمذاق المرارة نفسه، الذي كانت تستشعره في حلقها في بيت أمها، ويخف تدريجيا مع أحداث النهار، إلى أن يحل المساء، وتقرر الاحتفاء بانقضاء يوم ناجح من حياتها فتحتسي جرعات متتالية من النبيذ الأبيض، الذي يجعلها تغوص إلى داخلها، وتفتش عما ينقصها، كالزوج الذي غادر الحياة وتركها للفراغ والوحدة، و"نيل" الكاتب الإنجليزي الذي لا يتحمل تلك الجرعات العالية من الدراما المسائية، وينصرف إلى غرفته وهي في

أوج الاحتياج إلى لمسة أو حضن ذكوري. تصعد "كاترينا" بدورها إلى غرفتها، بعد أن نتناول العشاء الجماعي، وندخل الأطباق إلى غسالة الصحون، وأتأكد من أن باب القصر قد تم غلقه بالقفل، فقد اخترت أن أقوم بهذه المهمة، حتى أضمن عدم تسلل اللصوص، بناء على تحذير "ناتالي".

في بداية دهليز الدور العلوي، تقع غرفة "كاترينا" الفسيحة التي كانت محل إقامة صاحب القصر، والمكونة من أجزاء ثلاثة: نوم واستقبال ومكتب، وحمام خاص مزدان بأكثر من مرآة من البللور والكريستال. تبدأ كاترينا في النهنهة، والتي تتصاعد، حتى تصير بكاء عنيفا. الوحيد الذي يسمع هذا النحيب هو "جون" الأمريكي، الذي يفصل غرفته عن غرفة "كاترينا" جدار خشبي، يسمح باختراق الصوت، فيهرع كل ليلة إليها، ويمسد على كتفها وشعرها حتى تهدأ، وتمسح دموعها، وتعده بأنها ستأوي إلى الفراش. لكنها في الصباح الباكر، تعد قهوتها في المطبخ بعينين متورمتين، وقلب مجهد من أثر البكاء. المثير للدهشة هو أن "كاترينا" تعترف لنا بلا مواربة، أنه أثناء تربيت "جون" على ظهرها، تراه مجرد صورة مهزوزة، تحمل ملامح زوجها الراحل تارة، وملامح "نيل"، الذي يتحاشاها في الغرفة المقابلة تارة أخرى. الأغرب إن "جون" لا يتمكن من منع نفسه من الإسراع نحو غرفة "كاترينا" فور سماع نحيبها، وكأنه ورث هو الآخر، موقف بلاده في احتضان حالة تاريخية، لم يعد لأبطالها الحقيقيين وجود. وعلى الرغم من أني أتأكد من إحكام مزلاج باب القصر كل ليلة، إلا أن أرواح من سكنوه لا تغادر أبدا، فغرفة "جون" مسكونة بروح الكاتب الفرنسي "ألبير كامو"، المكتوب اسمه على بابها، لأنه كان يعشقها دون الغرفات الأخرى، وفي صدر مكتبتها، تجد طبعات بلغات عدة لكتابه "أسطورة سيزيف". فقد انخرط "ألبير كامو" في المقاومة الفرنسية أثناء الاحتلال الألماني، مثله مثل والد "كاترينا" البولندي. أما "سيزيف" الفتى

الإغريقي الذي يرمز لوضع الإنسان، حين قُدر له أن يصعد بصخرة إلى قمة الجبل، ولكنها ما تلبث أن تسقط متدحرجة إلى السفح، فيضطر إلى إصعادها من جديد، وهكذا للأبد، فهو نفس ما يفعله "جون"، ويعيد فعلته كل ليلة في مواساة "كاترينا" بلا طائل.

أستطيع أن أعرف كل صباح من الذي استيقظ قبلي حتى ولو لم أره شخصيا. "نيل" له خطوات خفيفة وسريعة، يعقبها إعداد للطعام خلف الباب المغلق، ومطبخ نظيف تماما. "كاترينا" تتنحنح أثناء السير، وكأنها تعلن طوال الوقت عن وجودها. "أولجا" تمضي وقتا طويلا بالمطبخ، كيفما يتفق مع امرأة يزيد عمرها على السبعين عاما. أما "جون" فيترك المطبخ في حالة فوضى عارمة، علبة الأجبان خارج الثلاجة، والأطباق متسخة على المنضدة والفلتر الورقي، مكدس بالقهوة التي تقطر بقايا السائل البني بداخل الحوض. في تلك الأثناء تعرف انه يتناول إفطاره في الحديقة، وسيأتي لينظف مخلفاته مرة واحدة وإلى الأبد. ونظرا لأن "جون" هو أصغرنا سنا وشكلا، أمنحه دائما عذر الأخ الأصغر الذي تدلله شقيقته الكبرى، ولا يرضى عن أفعاله "نيل"، ولا تبالي "كاترينا" أصلا بأمر عبثه بالمطبخ، لأنه لا يمثل لها سوى محطة عابرة قبل أن تستقر تماما في أفضل مكان بالحديقة، تحت التندة وفوق الشيزلونج، وتتناول شخصياتها الروائية بالبحث والتحليل. أما "أولجا" الروسية فالحرب الباردة بينها وبين "جون" لا تتوقف. لم يكن للأمر علاقة بالتوتر والصراع على التسابق الفضائي والتسلح والتقدم الصناعي، القائم بين الولايات المتحدة وروسيا، بل كانت حربا غير معلنة للفوز بأكبر كمية من الشوكولاتة التي تضع "ناتالي" أصنافا عديدة منها بجوار علبة الخبز في آخر المطبخ. ولقد عرفت بهذا السر، بعدما اشتكت "أولجا" لـ"نيل" أن "جون" يأخذ قالب الشوكولاتة الغامقة كله إلى غرفته قبل النوم، وأنها تفضل الشوكولاتة الغامقة، لأنها تفيدها

في تحسين ضغطها، كما أنها تساعدها في تقوية الذاكرة والقدرة على الانتباه، وتتساءل لماذا لا يأكل هذا الشاب الصغير الأنواع الأخرى بالحليب والبندق والفواكه؟ كنت أظن أن حالة الشد والجذب التي بين "أولجا" و"جون" تعود إلى أن أولجا قد قسمتنا بسيف ناعم، إلى فريقين لعدم إلمامها التام باللغة الإنجليزية، وعدم إتقانه للغة الفرنسية، إلى أن همس لي "نيل" بهذا السر، وهو يكتم ضحكه، ويذكرني باليوم الذي قضيناه معا في بلدة "مورج"، حين تجاوزنا عرض "الكوميديا" المقام في الشارع، وفضلنا أن نحتسي القهوة في مقهى المحطة، لأن الحياة بها من الفكاهة السوداء والملونة ما يغني عن الكوميديا الصناعية.

كان "جون" قد انتهز فرصة أن الجو صحو، ولا احتمال لسقوط أمطار، وأخذ الدراجة التي في المرأب ليتنزه بها في الشوارع الضيقة خلف القصر، والتي ترى مشهدا بانوراميا للجبال. لم يستمتع "جون" بالمناظر الخلابة، ولا بخرير المياه المنساب من أفواه الأسواد بالأحواض والنوافير الحجرية المنتشرة بالشوارع، فقد كان جل همه، هو الشمس التي سطعت بافتراء، وأكسبت بشرته البيضاء حمرة شديدة، فعاد أدراجه وعلى وجهه رعب وهوس من أن يكون قد أصابه سرطان الجلد. حاولنا الترويح عنه على منضدة العشاء، بأن اثنينا على شكل بشرته الجديد، بعد أن أكسبتها أشعة الشمس لونا برونزيا، زاده رجولة وبهاء، إلا أن "أولجا" لم تفوّت الفرصة، وعلقت بأن شكله صار هنديا، وراحت تحرك رأسها بنعومة كالهنود، فتوترت الأجواء أكثر بينهما.

وضعت لنا الطاهية الجديدة صحون ال "ريزوتو" والدواجن التي أعجبت "نيل"، وقالت كلمتين بصوت مبحوح وابتسامة مغرية وانصرفت. قال "نيل": "هذه هي الطاهية الأمهر". فردت كاترينا وهي ترسم علامة على صدرها، إشارة إلى صدر الطاهية المكشوف، وقالت له: "هكذا تقيّم النساء؟". ساد جو

من الدعابة المتوترة، حيث تمادت "كاترينا" في إلقاء تلميحات تدل على إعجاب "نيل" بجسد الطاهية. وجدتني بدون إرادتي أنخرط معها في مزاح عصبي وأنا أقول له بأننا نحب له كل الخير، طالما يرى أنها الأفضل. رد في تلقائية: " أنت لا تعرفين ماذا أقول من خلف ظهرك. أنت أروع امرأة مصرية قابلتها، بعكس تلك البولندية التي تشاكسني". قلت: "تشاكسك لأنها تحبك، ألست كاتبا وتقرأ جيدا ما بين السطور؟" كنت قد قصدت أن آتي بسيرة السطور والكتب، حيث كنا قد وضعنا كتبنا جميعا على منضدة السفرة منذ يومين، إلا أني وجدت كتابيه يحيطان بالوريقات المطبوع فيها قصتي القصيرة والوحيدة عن الخوف، ولم يكن قد استيقظ أحد قبلي سواه. تساءلت بيني وبين نفسي إن كان هو الذي بدّل مكان كتابيه، ثم خجلت أن أستفسر عن تلك الخاطرة الطفولية، فبدلت الموضوع بأن قلت إنه علينا أن نستغل تحسن الأحوال الجوية هذا الأسبوع ونقضي أوقاتا أكثر خارج البيت، فالأسبوع التالي سيمتلئ بالرعد والأمطار، وسوف ننحبس هاهنا شئنا أم أبينا. تنحنحت مثل "كاترينا" وهي تعلن عن قدومها أثناء السير، وأبلغتهم بأن "سمير" صديق الطفولة، سيحضر مساء بعد يومين، وسيدعونا جميعا إلى نزهة في مدينة لوزان.

لم تكن الأجواء المشحونة سرا، والضغائن غير المعلنة تنبئ بقضاء ليلة سعيدة في لوزان. فشرارة الصراعات الصغرى كانت بدأت تشتعل في النفوس. "أولجا" ضد "جون". "كاترينا" و"نيل". أنا و"كاترينا" ضد الطاهية اللعوب. والأهم من هذا وذاك، همي الشخصي المخبوء في صدري لأكثر من ثلاثين عاما، بيني وبين صاحب الدعوة.. سمير.

صدقت مقولة "ألبير كامو" التي رددها "جون" هذا الصباح بأن "لا أحد يعرف أن البعض يبذلون جهودا جبارة، لكي يكونوا مجرد أناس عاديين".

القاهرة

مجدي المحاسب

"سبحان اللّه، أمان اللّه على الخائفين، يا كافئ يا سميع، يا اللّه، روحي لروحك منتصبة على إرادتك"

اليوم الذي تتحاشاه معظم زبونات الجيمنازيوم هو الجمعة الثالث من كل شهر، ليس لأنه يوم "جمعة"، حيث احتمال إغلاق ميدان التحرير أمام السيارات، تحسبا للميونية أو مسيرة غير مرغوب فيها، أو حدوث إشتباكات تعقبها طلقات خرطوش وسحابات من الغاز الخانق، بل لأنه اليوم المسموح فيه بدخول الرجال إلى صالات اللعب لعمل صيانة الأجهزة، وربما فلتت نظرة من أحدهم أربكت اللاعبات وسربت إحساسا بعدم الارتياح. الجمعة الثالث من الشهر هو اليوم الذي اخترته لأكون من المترددات على الجيمنازيوم، لرصد تلك الساعات الاستثنائية. موسيقى الصالصا وصيحات المدربات وهمهمات الزبونات الضاحكة، حل محلها تلاوة قرآنية، من شاشة قناة المجد المفتوحة أعلى الأجهزة، وطنين ودبدبة خفيفة من تحركات النساء الحذرة على الأوربيتراك والآب جيم والعجلة الثابتة. النظرات الحارقة كالشرر كانت نابعة من المدربات وموجهة نحو "مجدي" المحاسب، وهو يسير مطأطئ الرأس، حاملا دفتره الضخم نحو مكتب مدام أمينة، تعقبها "برطمة" أو سبة تقال بوضوح حتى تصل إلى مسامعه. وكل هذا لأنه قد طلق "نعمة"، وكأنه قد رفس "نعمة" منحها الله إياه بعد طول حرمان. انبرت الفتيات في وصف وشرح مفاتن

ومكارم نعمة، موظفة الاستقبال، التي تركت العمل بعدما طلقها مجدي غدرا، وحتى لا تلمح أو تشم ما يذكرها بيوم من أيامهما معا، خاصة أنه ابن خالة مدام أمينة صاحبة الجيمنازيوم. قلن كانت لها عينان خضراوان كالبرسيم، وفم أحمر كالفراولة، وخد وردي، وجسد أبيض ملفوف. وقلن، كان لها صوت نسيم وابتسامة ملاك وشهامة فارس، وكأني طفلة يقصون عليها وصف أميرة طيبة في إحدى حواديت ألف ليلة وليلة، ثم استرسلن في لعن مجدي والدعاء عليه ليس لأنه هجرها غدرا في يوم عيد ميلادها؛ بل لأن أمها قد طردتهن بلباقة حين ذهبن لمواساتها بعد الطلاق، وألمحت إلى أن وجودهن في حياتها سيتسبب في إيذائها نفسيا، وأنها قررت أن تنقطع عن كل ما يربطها بمجدي، العمل والأصدقاء المشتركين وحتى رقم الهاتف الذي ستغيره.

حين يصرخ الرجل كالنساء، فاعلم أنه قد رأى شيطانا، أو أن أمرا جللا سيعقب الصرخة. مجدي يطلق آهة غليظة ومرتفعة من غرفة المكتب، تعقبها استغاثة من مدام أمينة. قالت: "عايزين دكتور. مجدي أُغمى عليه. أنا كمان شديت عليه جامد. يقطعني!!".

لم أكن بحاجة إلى مهارات خاصة لإفاقة مجدي، فكل ما طلبته هو قطعة قماش مبللة بالكولونيا، وبصلة أتت بها الشغالة من شقة مدام أمينة. مجدي يرتجف وهو يغادر غفوته. يشعر بأناملي وأنا أتحسس نبضه، وبلسان ثقيل يرجوني أن أقول لمدام أمينة، ابنة خالته أن ترحمه، فقد أخبره الطبيب النفسي أنه منذ سنوات، يعاني من الأبوتمنو فوبيا، يعني الخوف المرضي من الأعضاء المبتورة. استرسل مجدي في الحكي، دون أن أطالبه بذلك، وكأنه يعلم أني أسعى إلى حكاية، أية حكاية:

"أن تقبلك ست الحسن والجمال زوجا، وأن ترى استكثار النعمة عليك في عيون الأحباء قبل الأعداء، لحمل ثقيل، تضطر لإثبات أنك كفؤ له ويزيد، فتقبل أن

تشيح نعمة بوجهها حين تشم رائحتك العادية، وتهرب للحمام لشعور مفاجئ بالغثيان، فتفرح وتستبشر، لابد أن بطنها قد امتلأ بنطفة من صلبك، لكنها تخذلك شهرا تلو شهر، فتبكتك أخواتك البنات، وتلمح نظرات حسرة على رجولتك المنقوصة من أزواجهن الممتلئين غيرة منك. شهور ونحن نفقد كل دخلنا على أطباء النساء وفي معامل التحاليل، حتى تشابهت النتائج تقريبا: لا تشوبنا شائبة، أنا أو هي، نحتاج فقط إلى الصبر، ثم دلتنا أمينة ابنة خالتي على "صلاح"، شقيق هدى عاملة الباديكير، الذي لا تستعصي عليه مشكلة، لكنه كاد يطيّر برجا من عقلي. كتب لنا بلغة الجن "مزجل"، ومعناه بالعربية "يا قيوم"، ومن خواصه أن من كتبه في فنجان أو طبق سبع مرات، وكتب عليه أسماء الطهاطيل الثمانية ومحاه، وسقاه للمرأة المتعسرة عن الحبل، سبع مرات في سبعة أيام بعد طهرها من الحيض، وجامعها زوجها، حملت بإذن الله. لكن نعمة لم تحمل، وظل يرن في أذني تلك الأسماء البرهتية التي تثير الرعب، مع إنها أسماء الله الحسنى..للطهطيل، مهطهطيل، قه، نه، جهلط، لخهطيل، لمقفنجل..

مالي أنا ونعمة بتلك التعازيم والإحراقات التي كان يحكم بها سيدنا سليمان على الجن المارد؟ استفتيت شيخ المسجد بعد صلاة الجمعة فأفتاني: "هذه الأسماء اتبعها اليهود فقال الله عنهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق، وإنها شرك بالله، وتحل على قائلها لعنة الله في الدنيا والآخرة".

نعمة تنظر في عيني وتقسم بأنها ما أحبت مخلوقا مثلما أحبتني، وحين نبدأ في الذوبان في بعضنا البعض، تنتزع نفسها مني وتنخرط في غثيانها الذي تحول إلى نوبات قيئ، وإرهاق دائم وتوتر وصعوبة في التنفس وحكة جلدية. وبعد الكشوفات والتحاليل والأشعة، أثبتت الفحوصات أنها مريضة منذ سنوات بتلف في وظائف الكلى. نصح الأطباء بأن نسيّر الأمور بالعلاج والوقاية، إلى أن نجد من يقتطع جزءا من جسده، ويمنح نعمة كليته راضيا أو غير راض.

ملأ الغل قلوب أخواتي البنات، كلما شاهدنني وأنا لا أغادر حضن نعمة في البيت، وأرافقها حتى عند دخولها الحمام، بعد أن علمت بمرضها العضال، وحسدتها رفيقاتها على زوجها المتيم كحبيب ملهوف. فأعضاء نعمة المقبلة على الفناء ظلت سرنا وسر الطبيب. أما سري الأعظم هو رؤيتي لنعمة كمشروع عصفور ميت، أو كفترينة جواهر ممتلئة بالأقراص الملونة: أدوية خافضة للضغط، هرمون الأريثروبيوتن الذي ينشط نخاع العظم لتصنيع خلايا الدم الحمراء، الكالسيوم لمعالجة نقصه وارتفاع الفوسفات، الديجوكسين لاحتقان وفشل عضلة القلب والرئتين.

أنا السكندري العاشق للبوري المشوي والمياس والبلطي، المتيم في طواجن الجمبري وقزقزة الكابوريا وأم الخلول. أنا من يقض مضجعه ليلا حين يحلم ببيضتين يتراقص صفارهما الذائب في الزبدة، ولا يهدأ له بال إلا حين يصير الحلم حقيقة مؤكدة تملأ البيت بعد الثانية صباحا برائحة البيض الطازج المقلي بالزبدة والمغمس بالعيش البلدي الساخن. أنا المتلذذ بطراوة الأرز الأبيض بالسمن البلدي، وحين يختلط بألوان الطماطم والبقدونس واللحم الأحمر ويختبئ بداخل فلفلة محشية. أنا الرجل الذي يقدر الأكلة الحلوة ويتذوق كل ما لذّ، أتنازل عن كل هذا، وأتناول المسلوق قليل الملح، بناء على تعليمات الطبيب من أجل نعمة: الحد من الأسماك لاحتوائها على الفوسفات، الكربوهيدرات والدهون ترفع الجلوكوز وتزيد العبء على البنكرياس وقد ترفع الضغط وتصيب بالسكتة الدماغية.

وأخيرا هاتفنا الطبيب وأخبرنا أن معاناتنا قد انتهت، فالمستشفى يرقد بها رجل متوفى دماغيا لكن كليته مطابقة لكلى نعمة التالفة. وبدلا من طفل يحمل ملامحي وميولي، تحتل بطن نعمة كلى رجل متوفى دماغيا، والذي ذهبنا لاحقا في تقديم واجب العزاء لزوجته وبناته، بعد أن فارق الحياة فعليا.

لم أدقق في ملامح الرجل حين كان يرقد كنصف جثة في المستشفى، لكنني استشعرتها في ملامح نعمة. لم أعد أرى"الشفايف الكريز ولا الخدود الوردي ولا العينين الخضرا"، فقط وجه الرجل وبطنه المبقور والخالي من كليته، وبطن نعمة الخالي من كليتها. أنا الذي صرت أتقن الجري نحو الحمّام وإفراغ ما في جوفي، حين تضع نعمة إصبعا عليّ، مع تتابع الرجفة ثم العرق ثم الإغماء. أذابت أم نعمة كميات من الملح في الماء ونثرته في أركان البيت لفك أي عمل. حرقت البخور والكزبرة واللبان الدكر والمستكة في مبخرة ومررتها فوق رأسي قائلة: "بسم الله أرقيك، من كل شر يؤذيك ومن كل حاسد وعين باسم الله يشفيك".وحين تمددت على السرير المعدني بمستشفى الهيئة التي أعمل بها، حولني الطبيب إلى قسم الطب النفسي، وكأن المرشد الذي تولاني ساحرا يعلم الغيب. كيف أدخل إبرة رفيعة في ذراعي ليقلب في تاريخي مثل حفار للقبور، ويعرف مني موضوع ساق أبي المبتورة، والذي كنت قد نسيته أو تناسيته منذ زمن بعيد؟ حملت ساق أبي الملفوفة في كفنها يوما بليلة، بعد أن غسلناها وقرأنا عليها القرآن والدعاء للمتوفى، بينما أبي حيّ يرزق، ويتجول مرتكزا على عصاه الخشبية بأرجاء البيت؟ كان ذلك قبل سنوات عشر، حين كنت مبتهجا بعملي الجديد كمشرف على القرية السياحية التي تنشأ في العلمين. كنت مقيدا على حب فتاة أخرى غير نعمة، اسمها هند، وكان العائق في إتمام الزيجة هو وجود بيت يأوينا، حتى حصلت على العمل والبيت معا؛ شاليه صغير في القرية نفسها يخصص للعاملين وزوجاتهم. لم أستطع أن أنتظر حتى تهدأ النوّة العفية التي جاءت بآخر موجة في البحر، وكادت تغطي كل الأساسات في القرية، لكي أدعو والدي ليفرح ببيت ابنه الوحيد على ثلاثة بنات. وقبل أن يخطو خطوة واحدة إلى الداخل ونحن نقاوم الرياح، صاح "مدكور" رئيس العمّال فرحا، وهو يمسك في يده شيئا لم نستطع أن نتبينه: "لقيت قنبلة، لقيت قنبلة"! وقبل أن أهمّ بنصحه أن يلقيها بعيدا، حتى تحوّل مدكور إلى صوت

زلزال وأشلاء متناثرة، حتى أن ساقه المنفصلة عن جسده اندفعت نحو بطني وآلمتني، وحين أفقت من الصدمة، وجدت أبي ملقى بعيدا، بساق واحدة.

تزوجت هند التي لم تسألني أبدا عن المكان الذي وقع فيه الانفجار، حتى لا تتخيل شبح مدكور الذي عبث بالقنبلة. صارت فقط تتحاشى السير ليلا بعيدا عن الشاليه، وكانت تسكه أربع سكات قبل أن ننام، إلا أنها كانت تستيقظ فزعة كل ليلة، وهي تمسك قلبها وتتحسس ذراعيها وساقيها وهي تقول: "حاسة إن أبوك واقف برة وف إيده سكينة عايز يقطع بيها رجلي". هجرتني "هند" إلى بيت أهلها، ثم جاءني مرسال من طرف والدها ومعه الكلام الأخير "خلاص مفيش نصيب. هند طالبة الطلاق".

خلعتني هند من حياتها لأن أبي قد فقد ساقا عند عتبة بيتنا، مع أنها لم تكن تعلم أين فقدها؟! وأنا الذي وقفت على غُسل ساقه وحملتها إلى "سعيد" التُربيّ ليدسّها بين جثامين الموتى في مدفن العائلة، شعرت أني مجرم يطوف بجثة تتقطر دما في جوال ويسعى لإخفاء معالم جريمته. كان واجبي أن أحمل ساق أبي وأرممها وأهديها إليه، فقد عاش مثله مثل هند مع ساق شبح تؤلمه وتصيبها الحكة وتتقلص عضلاتها حين يبذل جهدا، مع أنها مخبأة هناك في المقبرة. قال له الأطباء إن هذه حالة طبيعية تصيب من يفقد عضوا، كما قال لي الطبيب أن الدوار والغثيان الذي يصيبني كلما تخيلت عضوا ناقصا، نظرا لما شهدته، يعتبر أمرا طبيعيا ويسمونه "الأبوتمنو فوبيا"، وسيستغرق علاجها بعض الوقت والجهد والكلام الكثير".

لم أقابل مجدي بعد هذا اليوم، لا لأني لم أعد أتردد على الجيمنازيوم أيام الجمعة الثالثة من كل شهر، بل لأن مجدي نفسه قد ترك العمل كمحاسب،

بعدما فقد عينه اليسرى. فأثناء مغادرته لبيته ذات مساء، واختراقه للجدار الذي يسد شارع الشيخ ريحان، للسير عبر طريق مختصر نحو حي عابدين، متجاهلا الاشتباكات بالحجارة والشماريخ والخرطوش التي تقع بين الشباب الذين يملأون الشارع ورجال الداخلية، أصابت عينه التي كان ذاهبا لعمل كشف نظارة لها عدة كريات صغيرة انطلقت من مسدس ما.

أثارت العين المفقودة والمغطاة بشاش أبيض عدة ردود أفعال لدى من كانوا يقابلون مجدي، فقد اعتبره البعض بطلا قوميا، كما حصل على رثاء نساء الجيران، وشماتة أهل نعمة والعاملات في الجيمنازيوم. أما ابنة خالته مدام أمينة، فقد أخذته مرة أخرى إلى صلاح شقيق هدى ليكتب له تسبيح إبراهيم عليه السلام، ومن خواصه أن من ضاع له ضائع فيكتبه في ورقة ويكتب حوله "برهيولا" سبع مرات، ويعلقه في البيت الذي ضاع منه الضائع، يعود إليه بإذن الله. وقد علّق التعزيمة في البيت، على الرغم من تحذير شيخ المسجد له من استخدام تلك التعازيم البرهتية:

"سبحان الله، أمان الله على الخائفين، يا كافئ يا سميع، يا الله، روحي لروحك منتصبة على إرادتك".

برهيولا برهيولا برهيولا برهيولا برهيولا برهيولا برهيولا.

سويسرا

"تركت الفؤاد عليلا يعاد..وشردت نومي فمالي رقاد"

الشاعر سمنون المحب

بقدر ما تحتجب، بقدر ما تطغى حين تظهر. تلك الشمس الدافئة التي أعلنت عن قدومها بأن غزت أشعتها عيوننا ونحن في فراشنا ما نزال، فبدلت أرواحنا بحنان قسوتها. نكشف جميعا عن أذرعنا، من تحت الملابس القطنية، وكأننا نعلن عن رغبة في أن نمد أيادينا إلى السماء لنسلم عليها. أما "جون" الأمريكي فقد كان الوحيد الذي كشف عن ساقيه، وصار يتجول في الحديقة حافي القدمين، وهو يرتدي شورت كاروهات بألوان زاهية، ليضيف بهجة حياة يومية لأسرة تقضي الصيف في شاليه على الشاطئ. مأخوذة بتلك الحالة الفريدة، لم أشعر بعدم وجود "نيل" في البيت، وظننته معتكفا، يكتب كالعادة في غرفته، إلا أنه جعل حضوره قويا وساطعا على مائدة العشاء في المساء. كان وجهه ورديا، وبياض عينيه أيضا، وشعره شبه مبلل، وكأنه قد أخذ حماما لتوه، بعد أن قضى يومه بحوض السباحة في النادي العمومي للقرية. لم يكفّ يحكي عن روعة الحياة خارج أسوار القصر، وكيف يعجّ المكان الآخر بالنساء اللاتي يصطحبن أطفالهن، ويرتدين ملابس العوم، والفساتين الملونة، ويحتسين البيرة والمثلجات. لم يترك لي "نيل" أية مساحة لتخيل نفسي بصحبته في هذا الجو المزركش، حين لامس ذراعي، وسألني برقة: "هل يمكن أن تعتني بي هناك ذات يوم مثل تلك الأمهات؟". كانت لمسة عفوية وشديدة الخفة، لكنها خلفت أثرا، مثل سوط شعاع شمس ملتهب.

لم يستمع "جون" ليلة أمس إلى نحيب "كاترينا" في الغرفة المجاورة لغرفته، ولم يضطر "نيل" إلى ترك المطبخ قبلها بشكل مفاجئ، لكي يهرب من الدراما التي تبدأ فيه، لأن "كاترينا" قد قضت الليلة الماضية في فندق فاخر بجنيف، وسهرت حتى مطلع الصباح مع أصدقاء قدامى بعد حفل التكريم، الذي أقامه نادي القلم على شرفها، فصارعشاؤنا الليلة بمثابة احتفالية صغرى بعودتها. علمتها كلمة "بحبك" بالعربية وقالت لي "كوهام تشي"، بمعنى أحبك بالبولندية. قال لها "نيل": "افتقدنا شغبك"، واحتضنها بتحفظ، فاقتربت أكثر ولاصقته، حتى كادت تقبله، وأخذت تقول له "بخبك" وأنا أكرر على نفسي "كوهام تشي" وأضحك، مثل تلميذ يردد ما حفظه حتى لا ينساه، فصرنا كالمخمورتين، على الرغم من أن "كاترينا" هي التي تناولت جرعتها الزائدة من النبيذ الأبيض. في إحدى أمسياتنا السابقة، تراهنوا جميعا على أنهم في نهاية الشهر سيكونوا قد تمكنوا من إقناعي بتناول كأس نبيذ، لكني أبطلت حجتهم بأن كنت أول من تبدو كالمخمورة، حين تطرب قلبي كلمة جديدة، أو دعابة لذيذة، وتستبد بي نشوة روحية، فيتمنوا هم لو كانوا مثلي، يتمتعون بإفاقتهم الرائقة المتجلية. تجذب "كاترينا" "نيل" من ذراعه، لكي ترتكن عليه، ونحن نحمل الأطباق إلى المطبخ، مرورا بغرفة السفرة الرسمية، التي تستخدم كمعرض لكتب كل من مروا بها، وترقد على منضدتها قصتي الصغيرة بين كتابي "نيل" العظيمين. لا تسمح الإضاءة الخافتة لأي صوت بأن يعلو عن طبقة الهمس، فهمست لـ"نيل": "أنت محظوظ لأنك لن تضطر أن تترك الطاهية التي تحبها غدا، فلقد اتصل "سمير"، وقال إنه سيأخذنا إلى مدينة لوزان بعد العشاء. كانت "كاترينا قد دفعت بـ"نيل" خارج غرفة السفرة، وأنا أقف تحت الإضاءة الخافتة،بعد. جاءني صوته من الدهليز وهو ينظر إلى الخلف نحوي " أنا لا أحب الطاهية"!!

سككت قفل باب القصر، حتى لا تهرب أرواحنا خارجه، وفي طريق الصعود، رأيت "جون" الأمريكي، و"أولجا" الروسية يقفان في المطبخ ويتجهان نحو صندوق الشوكولاتة. كان آخر ما لمحته أثناء مروري، هي تلك النظرة المتحفزة التي يصوبانها تجاه بعضهما البعض، مثل قطين يستعدان للانقضاض على فريسة.

على الرغم من حالتي التي تؤرجحني بين الصحو والسُكر، وتؤهلني لنوم فوري، فتحت بريدي الإلكتروني في الفراش، لأمارس لعبتي اليومية مع الكواكب السابحة في الفضاء، والتي تقرر لي ما سيأتي، لكنني أحاسبها على دقة وصفها لما قد مضى.

"إن كنت بين حفنة من الندامى، عزيزتي"بداية"، وتجدين نفسك تتأرجحين بين الراحة والشقاء، فهذا لأنك في أعماق نفسك، تودين أن تدُسّي سموم الغيرة في قلب أحدهم، لأن هناك غيرة ما تستبد بروحك أنت. عطّري الأجواء بنسيم الصراحة، ولتبدئي بتصفية ذاتك، ومصارحة نفسك".

حين أطبقت الجفن على الحدقة، كان يهتز بينهما سائل قرمزي، كالنبيذ الذي يحتسونه على العشاء، لكن "نيل" كان يسبح فيه، ويشير لي بذراعه بأن آتي. وحين هممت بالغوص، تراءى لي "سمير"، وهو يتبارى مع "نيل" على الوصول لطرف الحوض الهائل، الممتلئ بالخمر.

في صباح اليوم التالي، امتلأت الحديقة بالشمس، ودعتني "كاترينا" إلى الجلوس بجوارها في ركنها المتميز، حتى نناقش أمر المرأة التي تحاول أن تكتب عنها. تلك المرأة التي ظلت على عهد الوفاء لحبيبها الرسام، واعتكفت في دارها كراهبة خمسين عاما. سلمتني "كاترينا" ثلاث صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود للمرأة التي تحيّرها. الصورة الأولى كانت بفرشاة حبيبها. امرأة من زمن مضى، ترتدي تايير كلاسيكي وقبعة كبيرة تخفي شعرها. انتابني إحساس بأننا لو استبدلنا القبعة ذات الوردة التي ترتديها بأخرى ذكورية، وبدلنا التايير ببدلة تاكسيدو، ستبدو تلك المرأة مثل رجل له نظرة محايدة. الصورة الثانية فوتوغرافية، تعقص فيها شعرها وترتدي تايير كلاسيكي يشبه الأول، إلا أنها تفتح أزراره العلوية وتكشف عن صدرها، ورغم ذلك تبدو كامرأة متحفظة تماما. أما في الصورة الثالثة، فتضع رداء أسود بحمّالات رفيعة، وتضع وردة في شعرها المتموج، وتجلس بميل يظهر فخذها وتنظر إلى العدسة في جرأة مغوية.

أمسكت بالصور الثلاث مثل عرافة تقرأ الطالع في أوراق التاروت، مستعينة بخبرة القراءات التي قمت بها، لتعينني على خداع نساء الجيمنازيوم. قلت لـ"كاترينا"، وأنا آخذ منها السيجارة المشتعلة التي ناولتني إياها: صاحبتك هذه هي النساء الثلاثة معا، لكنها تصارع نفسها بنفسها، الصورة الأولى هي الأنا العليا لها، ضميرها الحي الذي يجبرها على الالتزام. والصورة الثانية هي الأنا الوسطي، حرصها على التماشي مع منظومة القيم التي يفرضها المجتمع. أما الصورة الثالثة المغوية فهي الأنا السفلى، هي كما تحب أن تكون، بلا قيم أو قيود، لكن الاثنتين الأخريين يحرمان عليها الشعور باللذة. بطلتك يا "كاترينا" لم تعش مثل راهبة منفردة في بيتها. لابد أنها مرت بعلاقات سرية عديدة، لكن أحدا من رجالها لم يملأ عينيها مثل حبيبها الفنان، الذي كان يراها أشبه برجل، مثلما رسمها في اللوحة

الأولى، ولم تملأ بدورها عينيه كامرأة، مثل موديلاته العاريات، والعاهرات اللاتي كان يدفع لهن الأموال مقابل ليال ساخنة ولوحات رائعة.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أناقش فيها "كاترينا" عن هذه الحكاية، وحين مر "نيل" بجوارنا، ووصلته أطراف حواراتنا المكررة، ألقى إحدى جمله الساخرة ومضى: "إنكما تكتبان بطريقة القرن التاسع عشر!".

امتصتني قصة الرسام وامرأته، ولم أقو على مقاومة الأقلام الفلوماستر السميكة بألوان الأحمر والأخضر والأزرق الموضوعة في ركن في المطبخ، وأخذت أرسم حروفا بالعربية بأسماء نزلاء البيت، كل في ورقة فولسكاب بيضاء، وزركشتها بزخارف نباتية، تلتف مثل أفاعي مغوية حول الحروف. بدأت ب "نيل"، وفي طريقي إلى غرفتي وجدت بابه مواربا، وهو يجلس منكفئا على مكتبه ومستغرقا في كتابته. لوحت له بالورقة، التي تحمل حروف اسمه، والتي كان قد ألهمني فكرتها، حين قال انه يحب شكل الحروف العربية. تركتها على مكتبه وانصرفت سريعا. وحين وصلت إلى الباب، ناداني وسألني كيف يقرؤها، فعلمته مثل طفل يتلقى أول درس وعلى وجهه ابتسامة صافية، لا تعكرها سخريته المألوفة. وحين ارتميت على فراشي قبل العصر بقليل، واجهت نفسي مثلما أمرتني رسالة "حظك اليوم" ليلة أمس، فاعترفت أني أختبئ في حكايات "كاترينا"، وحروف اسم "نيل"، التي استغرقت ساعة في رسمها، لأني لم أمتلك القدرة على التركيز في الكتابة. فقد كان ذهني شاردا تماما فيما سأفعله الليلة، حين يمر علينا "سمير" ويقضي السهرة معنا في أرض جديدة.

ليس ضروريا أن يكون الرداء عاري الكتفين، كاشفا عن الفخذ ليغوي، مثل فستان بطلة قصة "كاترينا". يكفي أن يكون بلون أسود، وأن تضع صاحبته طلاء شفاه باللون الأحمر القاني، لتجمع بين لوني الحزن والغموض والغواية والخمر، وليشعل الغيرة في قلب "نيل"، لأني سوف أذهب مع "سمير" هكذا

وبمفردي في سيارته، بعدما فاجأتنا "ناتالي" مديرة الدار، بأنها ستحمل الآخرين في سيارتها الكبيرة، وتتركني لأعيش ذكريات الطفولة مع "سمير" ونتحدث العربية كما يحلو لنا. تراصّ الجميع في عربة "ناتالي" ووقفت بمفردي في انتظار سمير الذي هاتفني على تليفون البيت وقال انه سيتأخر خمس دقائق. أخرج "نيل" رأسه من شباك السيارة وقال بصوت مرتفع: "ستنتظرين إلى الأبد. المصريون لا يلتزمون بالمواعيد!"، وقبل أن ينته من دعابته الساخرة، وبعد انقضاء الدقيقة الرابعة، كان "سمير" يجلس خلف عجلة القيادة في سيارة سوداء فارهة، وعلى وجهه الابتسامة الطفولية نفسها، التي كانت تزين صورته الموضوعة في إطار من الفضة، على منضدة في صالون بيت والدته، الكاتبة "بداية الألفي".

هل نسيت تلك الفقرة الهامة من طفولتي، وكنت بحاجة إلى أن ألتقي مصادفة بـ"سمير" في مقهى محطة قطار مدينة "مورج" السويسرية، أم أني أسقطتها عمدا، لأنها لم تزد عن كونها أمنيات قديمة، من طرف واحد، للتشبث بحلم مستحيل؟

"اربطي حزام الأمان"،هي أول كلمة قالها لي سمير، وأنا أنفذ ما يقول في آلية، وأضبط وجهي تلبّس بضحكة عريضة، لم يصادفها منذ كنت تلك الطفلة التي تركض خلف "سمير" لتمسك به في لعبة "عسكر وحرامية ". كان بعكس الأطفال جميعا، يعشق أن يأخذ دور "الحرامي"، لأنه لا يحب أن يكون "عسكريا" يخيف الغير، بالإضافة إلى شغفه بالمغامرة، واللذة التي تصاحب الاختباء. في اللحظة التي استقر جلوسي تماما إلى جواره على مقعد سيارته، ناولني قالبا من الشوكولاتة، يليق بفرحة الطفلين اللذين يجلسان في العربة التي ستنطلق بهما في الطرق الصاعدة والهابطة بين الجبال، وكأنهما يلهوان فوق أرجوحة في مدينة للملاهي.

"على فكرة، الشوكولاتة دي من المصنع بتاعي". قالها "سمير" وهو يشير إلى قالب الشوكولاتة الذي لم أفتحه، وينتبه تماما إلى الطريق. قلت في الحال: " إنت لسه فشّار؟ دي شوكولاتة نسلة زي اللي كنت باجيبهالك من الكُشك!! "لم أعد أرى المروج ولا حقول الكروم ولا القصور الشامخة على جانبي الطريق. أرى فقط الكشك الذي كنت أهرع إليه، وآتي بقطعة شوكولاتة لأعطيها لـ"سمير" وهو عائد من مدرسته الثانوية. كانت أمي في كل مرة ترمي بجملة تفسد الحالة، مثل "الواد دة دمه تقيل قوي، ومالوش عزيز"، مع إن كل شباب المنطقة كانوا يلتفون حوله للضحك على نكاته، حتى وإن سخر منهم، مثلما كان يسخر من اسمي ونحن نلعب، على الرغم من إنه نفس اسم والدته. كان يقول لأي وارد جديد علينا: "دي اسمها بداية ونهاية"، مع أني لم أكن الـ"بداية" الوحيدة في المنطقة، التي سميت على اسم والدته، فقد كانت هناك "بداية" ابنة أبو المعاطي "السائس"، و"بداية" ابنة صاحب محل البقالة. وكان يغني لي أغنية حلاوة شمسنا، ويصفق كراقصات فرقة رضا، "بداية شمسنا، وخفة ضلنا"، كما كان يشدو مزهوا بنفسه "يا سمير يا سمير يا سمير"، ويشكل وجهه على هيئة فريد الأطرش، ويبدل صوته ليجعله عريضا، بعكس صوته الأصلي الناعم، الذي كان يغني به الأغنيات الأجنبية وهو يحمل الجيتار، وتذوب فيه بنات الجيران، وزميلاته الجميلات اللاتي كن يترددن على البيت.

أفيق على صوته: "موضوع الشوكولاتة ده موضوع كبير قوي. يعني مش سهل تقرري تفتحي مصنع. لازم تكوني تابعة لشركة كبيرة، وتدمجي خط إنتاجك تحت اسمها، ولو حاول حد إنه يخالف أعراف السوق، هينتهي قبل ما يبتدي".

كلما عرفت أمي أن "سمير" في شقتهم، كانت تضبط لي موعد النزول من عند والدته، بالدقيقة والثانية، وكأنه محكوم عليّ ألا يهنأ لي بال في مكان تواجده، كما كنت ألمح تلك النظرة الجانبية من عيني أمه، وكأنها تقول لي: "أعرف أنك هنا من أجله، وليس لترتيب المكتبة، أو لاستعارة كتاب كما تدعين".

"في الواقع مصنع الشوكولاتة كان يملكه حماي، لكن إياك أن تسيئي الظن بي وتعتقدي أني تزوجت ابنة صاحب المصنع الثرية لكي أحصل على الإقامة. لقد أحببت "إيريكا"، وكنت أظنها مجرد موظفة مثلي في قسم الإحصاءات في الشركة، وحين صارحتها برغبتي في الزواج منها، كانت تحرج بشدة وهي تخبرني بأن والدها رأسمالي، وإنه يمتلك المؤسسة التي نعمل بها، لأنها تؤمن بالمبادئ الاشتراكية، وتناصر العمال. لا أخفيك سرا، لقد كانت مفاجأة سارة أن أتحول إلى مساهم في الشركة، على الرغم من أني كنت متميزا في قسم دراسة السوق في الشرق الأوسط، لإتقاني العربية والفرنسية معا".

"ياريت إيريكا كانت هنا، كنت عرفتها بيكي، بس سافرت للأولاد بمصر. أصل أول ما الثورة قامت صممنا نبعتهم مصر عشان يعيشوا الأحداث وينزلوا التحرير، ومانحرمهمش من حقهم في إنهم يجربوا الحياة، في بلدهم الأصلية، فاختاروا يدخلوا الجامعة هناك، وهما كده كده معاهم الجنسية السويسري. لو حبوا يرجعوا.. يرجعوا. وأحسن حاجة إن سويسرا مش مهتمة بموضوع الجيش دة ومش بتحارب حد".

كان نهار "لم تطلع له شمس" كما يقولون، حين صعدت إلى شقة الكاتبة والدة سمير، بحجة أن أرى إن كانت تريد شيئا، لكني في الواقع كنت أريد أن أودع سمير قبل أن يذهب إلى التجنيد، لكن والدته أخبرتني بأن والده أوجد له مخرجا، بعمل إعفاء مؤقت، وتم تهريبه إلى الخارج، فلقد قرر سمير نهائيا أنه لن يدخل الجيش، حتى وإن تطلب الأمر أن يظل مغتربا ماتبقى من عمره.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي سمعت فيها هذه الجملة، لكني لم أكن أصدق أنه سينفذ كلامه. فلا يعقل أن يحاول سمير الإفلات من التجنيد، لمجرد سماعه

حكايات مبالغ فيها من أخيه الأكبر، عن ويلات الأربعين يوما الأولى، وأبشعها بالنسبة لسمير، هي الاستيقاظ في موعد مبكر والنوم بنظام صارم، وهاهو يعيش في بلد يضبط أهله خطواتهم على دقات الساعة. كما لم أصدق أن القشة التي قصمت ظهر سمير، وجعلته يحسم أمره، كانت ليلة التكدير التي حكى أخوه عنها، بأنه قضى الليل زاحفا على وجهه في الوحل المبلل بماء المطر، حين سمعهم الضابط النوبتجي يغنون الأغنية التي ألفها شقيقه عن سخافات المعسكر: "دهشور لا مية ولا نور..والأكل بالطابور..والإجازة بالنط فوق السور..ده لو في الصحرا سور".

- "فاكره الأغنية دي يا بداية؟ أهي دي اللي خليتني أسيب مصر!".

للمرة الثانية أفيق على صوته، لأكتشف أنه كان يتحدث فيما كنت مستغرقة في التفكير فيه. "هيافة عيال، وأنا اللي كنت فاكّر نفسي هاطلع مغني".

وصلنا إلى لوزان، مدينة الطالع والنازل كما يسمونها. يشير سمير إلى كنيسة كبرى، تسمى كاتدرائية "نوتردام"، وهو يقول أن بها "أورغن" استغرق عشر سنوات في تصميمه، ولا يوجد له مثيل في العالم.

تُرى هل وصل "نيل" والمجموعة إلى المطعم الذي وصفه سمير ل ناتالي؟

أضاف سمير أن الـ"أورغن" يمكن أن يعزف الموسيقى الكلاسيكية وموسيقى الباروك، والسيمفونيات الفرنسية، والموسيقى الرومانسية الألمانية.

تساءلت بيني وبين نفسي هل أعجب "نيل" ردائي الأسود الجديد، وطلاء الشفاه الأحمر؟

قال سمير إن بالكاتدرائية سبعة أجراس يعود تاريخها للقرن الخامس عشر.

تمنيت ألا تكون "كاترينا" قد بدأت في الشرب، ويكون"جون" قد شرع في تصويب نظرات طفولية تستفز "أولجا" فتتوتر الأجواء قبل أن نلحق بهم.

يشير سمير إلى البحيرة، دون أن يلتفت لي وهو يقول: "تستطيعين أن تري فرنسا من هنا"، وما أن أبدأ في تخيل فرنسا، حتى يباغتني بالسؤال عما فعلته طيلة الثلاثين عاما، فأبدأ بحكاية القصة القصيرة التي كتبتها وأهلتني للفوز بهذه المنحة، كما حكيت له حكايات نزلاء البيت القصر الذي يؤوينا، فصار مشدوها مثل شهريار بالحواديت القصيرة المتتالية، التي ألهته عن الحكاية الأصلية التي طلبها.

مثل شهبندر التجار، توسط سمير المنضدة المستطيلة التي احتوتنا، وملأها على نفقته بما لذ، كل حسب رغبته، وأمسك بخيط الحكي، عن مشوار حياته في عالم الشوكولاتة، التي حبست أنفاس الجالسين، خاصة حين طعّم حدوتته بمعلومات مثيرة، فاجتمعنا للمرة الأولى على الشعور نفسه تجاه أمر محدد. لم يفت سمير أن يهدي كل الحاضرين صندوقا فاخرا يحمل أنواعا وأشكال من الشوكولاتة البيضاء والغامقة والمحشوة بالبندق والفواكه والممزوجة باللبن، ليحتضن كل منا علبته الضخمة، مثل طفل حصل على جائزة، ونحن نثرثر ونضحك قبل أن نصعد إلى غرفنا. كانت هذه هي الليلة الأولى، التي يتصالح فيها المعسكر الأمريكي والمعسكر الروسي، حين ربتت "أولجا" على ظهر"جون" وهي تقول له إنها اكتشفت للتو إنه يشبه حفيدها.

هل كان منامي الليلة السابقة صادقا، حين رأيت "نيل" و"سمير" يسبحان في حوض من الخمر؟ أم إنه كان عليّ أن أتدخل بأقلامي الملونة، وأبدل اللون القرمزي للنبيذ بلون الشوكولاتة التي أذابت الضغائن، مثلما تذوب قطعة الشوكولاتة في الفم بنعومة؟ فقد قال سمير ونحن نحتسي حديثه بشغف، أنه على الرغم من أن الشوكولاتة اشتقت معناها من كلمة "زوكولات"، بمعنى الماء المُر، فإنه يوصى بها كوصفة لمحو الكدر والكآبة وإذابة المرارة التي تعلق بالنفوس. ولاعجب إذن أن "أولجا" التي تبلغ الخامسة والسبعين، وتدمن على الشوكولاتة الداكنة، التي تمنح الطاقة، تقوى على السير بين الجبال، حتى تصل إلى البلدة المجاورة في غضون عشرين دقيقة، وإن "كاترينا" التي تتعالى على ألواح الشوكولاتة التي بالمطبخ، تتوق إلى حضن أو لمسة ذكورية، مع إنها لو عبثت بلسانها مع قطعة صغيرة من الشوكولاتة، ستحصل على اللذة والدغدغة التي تخلفها آثار قبلة رومانسية عميقة.

أدركت تأويل حلم الليلة الماضية، وأنا على حافة الانزلاق في هاوية حلم آخر، حين كدت أسمع صوت سمير يصعد من وسادتي، وكأنه يعيد ما قاله منذ ساعات بأن الكنيسة الكاثوليكية في عصور ماضية قرنت الشوكولاتة بالسحر والإغواء والهرطقة، شأنها شأن الخمر المُسكر. لكن حروف سمير أخذت تتقطع وتبتعد وتخفت، حتى تبخرت تماما، لتحل محلها أصداء صوت "نيل" حين انتهى حديث الشوكولاتة على منضدة المطعم في مدينة لوزان، وسألنا بعضنا عن "الأصوات"، التي تتردد في آذان كل منا أثناء اليقظة، فقال "جون" إنه يسمع صوت بكاء"كاترينا" في الصباح، وصوت ضحكها وشغبها في المساء، عكس ما يحدث في الواقع. وقلت أنا إن تعليمات "ناتالي" لاتفارق رأسي، لذا أحرص على سك باب القصر، حتى وان كنت أترنح بين اليقظة والنوم. أما "نيل"، فقد قال إنه يسمع صوتي يردد كلمات وحكايات في رأسه، ثم عدّل جملته بأن قال إن

نبرات صوتي تصلح لأن تكون الصوت السارد ليومياته، إن قرر يوما أن يخلدها في كتاب، فلا تفارق الأوراق أو صاحبَها. وقد كان لتلك الجملة الأخيرة وقعا أحلى من رحيق الشوكولاتة، ونشوة غشت روحي وجعلتها أهلا لاحتضان إشراقة نور حلم جديد.

القاهرة

مدام سناء وجمالات

بدء الحكمة مخافة الله

داوود النبي- سفر المزامير 111-15

من العسير أن يصفو ذهنك وتكتب أو تبدع، بينما عظامك في حالة تيبس، وعضلاتك متشنجة، حتى أن أنينها يكاد يغطي على الصوت الرتيب المنبعث من أجهزة الجيمنازيوم. أنام وأصحو على آلام الظهر والرقبة والساقين، لخُيل إليّ أني صرت في التسعين من عمري، ولعنت يوم قررت أن أتلصص على زبونات الصالة الرياضية لأكتب حكاياتهن. فشلت كل النصائح بأخذ دش ساخن يتلوه دش بارد لكي تتدفق الدماء وتتفكك العضلات، كما سئمت تعاطي حبات المُسكّن قبل كل خطوة أو مشوار. وكما كان الإلهام على يد هدى، التي قابلتها في اعتصام أهالي الدويقة بماسبيرو، وأرشدتني إلى الجيمنازيوم، كان العتق من التمرينات المرهقة بنظرة ترجٍّي وشعيرات دموية تنبئ بانفجار بكائي من مقلتيها، إلا أنها تظل على هذه الحال طوال مدة الحوار الهامس بينها ومدام أمينة صاحبة الجيمنازيوم، الذي استغرق عشر دقائق تقريبا، دعتني بعده هدى بصوت مرتعش، للصعود إلى البيوتي سنتر، لأجربها كخبيرة بيديكير، وكيف ستجعل قدميّ لينتين وكعبيّ ملساوين مثل طفل وليد. كان هذا بعد الاختفاء الأول لهدى الذي ظل يتحدث عنه الجميع، وعادت بعده إلى البيت

والمحل كسيرة الخاطر، لتدخل في الاختفاء الثاني قصير الأمد، يتلوه اختفائها الثالث المثير للأقاويل.

قرار مفاجئ اتخذتُه بالتوقف مؤقتا وربما إلى الأبد عن مشروع الكتابة، والاستسلام الفوري لطست المياه الدافئة، المعطرة بالرغوة السخية، الذي أتت به هدى، وتغطيس قدمي المنهكتين فيه وإرخاء جفوني، وكأني أغلقت فوهة مفتوحة على انفجار بركاني. هدى التي تتداخل أناملها والرغوة الدافئة وتتخلل أصابع قدمي، وتلوي كاحلي، وتضغط عليه بقسوة رحيمة، فتولد شعورا بالألم والراحة معا، تقوم بمهمتها بصمت تام، يتوافق وعدم رغبتي في تلقى أية حوارات، وكأننا قد تواطأنا على غلق منافذ روحينا المنفتحة إلا على ما يعتمل في صدورنا. الآن يرتفع ساقي فوق مقعد صغير وتتوسط قدمي حجر هدى. تتناوله بكفيها في دوائر صغيرة وتبرمه بنعومة الكريم المعطر بنكهة التوت البري، ثم تحك الكعب بالحجر الخفاف وتملسه بتركيبة الدهان التي أعدتها لزبوناتها، والتي تترك الكعب مُحَنّى أياما بلون دم الغزال. أفتح عيني ببطء مصاحب بتنهيدة ارتياح خفيضة، تتعارض والعرق النافر في جبهة هدى وعينيها المحمرتين وصوتها الذي لا يكاد يبين وكأن ثعبانا يلتف حول رقبتها ويخرج روحها من فمها. تتأجج الرغبة التي انطفأت منذ نصف ساعة فقط في تتبع حواديت الغير، واجتاحني فضول لمعاودة الكرّة، لكن ليس مع زبونات البيوتي سنتر، بل بالتفرغ لهدى، إلا انها تلاشت من أمامي مثل سحابة، بعد أن حملت الطست الممتلئ بالمياه التي امتصت طاقاتي السلبية. لذا كان لابد من العودة إلى البيوتي سنتر، خاصة وان الإغراءات المزعومة كانت وفيرة. عمل كيراتين لتنعيم الشعر بسعر مذهل، عمل تاتو بالحنة للحواجب، تركيب رموش دائمة، صبغة، هايلاتس، لو لايتس..

تلحظ مدام سناء، مديرة البيوتي سنتر، شرودي في الصورة المنقسمة إلى نصفين، نصفٌ به ظهرُ امرأة ذات شعر أكرت هائش، مكتوب تحتها "قبل"،

والنصف الثاني به ظهر المرأة نفسها، بعد أن صار شعرها كثيفا لامعا أملسَ ينساب إلى منتصف ظهرها، ومكتوب تحتها "بعد". علاج سحري يحول "أمنا الغولة" إلى "ست الحسن والجمال" اسمه "الكيراتين".

حين تُغلق أمام أية امرأة الأبواب وتجد نفسها في مفترق طرق، أول ما تعبث به هو شعرها، تقصّه، تصبغه، تضع عليه الحجاب، أو تخلعه. ففي الغرب يطلقون على اليوم السيء مقولة: "إنه يوم الشعر الردئ"، فلو انصلح الشعر، انصلح الحال كله.

انضمت "جمالات" المشرفة على العاملات إلى مدام سناء، وقرأت ما يدور في بالي هي الأخرى. بادرتني قائلة: "الكيراتين في كل حتة بألف ومائتين جنيه. إحنا بنعمله بثماني مائة جنيه بس.. وبالتقسيط لو تحبي". تهمّ مدام سناء بأن تقول شيئا، إلا أن جمالات تباغتها " خلاص يافندم منتظرين حضرتك بكرة. حنعملك أحلى كيراتين". أسأل عن هدى لأمنحها بقشيشها، فتأتيني مستندة إلى ذراع "رضا" الكوافيرة. أناولها الجنيهات الخمسة وورقة مخبأة بها رقم هاتفي المحمول. تمتلك هدى أنامل حساسة، تجعلها تتعرف على الورقة التي بها رقم هاتفي، فتنظر إليها في ذبول، وتومئ إليّ برأسها، وكأنها إشارة تواطؤ جديدة، لكنها على الكلام والبوح هذه المرة.

في الأسبوع التالي، حين تحوّل رأسي إلى إناء لوضع طبقات من كريم ذي رائحة نفاذة، تعقبها ضربات متتالية من مكواة الفرد وتعتم المكان بشبورة الدخان الممتزج بالكيراتين، تكون هدى مثل "فص ملح وذاب". تفشل كل عمليات البحث التي تمت بواسطة أخويها، واتصالات مدام أميرة المحامية بمنظمات البحث عن مفقودي الثورة، وجمعيات الدفاع عن الفتيات اللاتي يختفين قسريا. نمى إلى مسامعي كل ذلك بينما تزكم رائحة الأمونيا أنفي وتملأ عيناي بدموع مصحوبة باحمرار حارق. أعلق عرضا بأني قرأت أن الكيراتين البرازيلي ليست به أمونيا أو

فورمالين، لكن "جمالات" التي تراقب العملية عن بعد، تجزم بأنه لا يوجد أي أثر لرائحة أمونيا، وان ما أشمه هو الرائحة العادية لهذا المستحضر.

تنتهي العملية بعد ساعتين بالتمام، حيث أبدو وكأني فردت شعري بمكواة منزلية بدائية، إلا أن "رضا" الكوافيرة، تعدني بأني سأصير مثل المرأة التي في الصورة وتدير لنا ظهرا مكسوا بشعر كثيف أملسَ، شريطة أن لا أجعل الماء يطول رأسي لأيام ثلاثة، وأن آتي كل يوم لعمل مراجعة على الكيّ. تظهر فجأة مدام سناء المديرة على الكاونتر لتقبض الثمانينمائة جنيه. يزيغ بصرها قليلا وهي تخبرني في تأدب أنها ستمنحني عرضا بأن آتي لعمل شعري لمدة ستة أشهر مجانا، ثم تهمس لي بأنها عرفت من هدى أنى مستشارة نفسية، وأنها تحتاجني بشدة.

يقع الكاونتر في مركز التجميل في الزاوية نفسها التي تحتوي الكاونتر في الجيمنازيوم، كما تتخذ مدام سناء الوضعية نفسها التي تتخذها مدام أمينة، وكأنهما استنسختا من طينة واحدة. الفارق الوحيد هي لحظة المغادرة، حيث تلف مدام أمينة إيشاربا حريريا حول رأسها وتثبته بدبوسين، أما مدام سناء، فتنطلق نحو الباب مباشرة، بعد أن تهندم هيئتها، وتلف قفل السلسلة التي برقبتها نحو الخلف، حيث يتدحرج دائما من مكانه، ويلتصق بالصليب. لم يكن غريبا أن يتشابها في نفس طريقة الجلوس، حتى عن بعد، فلقد اعتادتا أن يتجاورا في الدكة نفسها في الفصل الدراسي طوال مدة الإعدادي والثانوي، وتدخلان الفصل معا وتغادرانه معا، إلا أنهما عند المغادرة الأخيرة للمدرسة، التحقت أمينة بمعهد التربية الرياضية، وقبعت سناء في بيت الزوجية. وحين تقلبت الأحوال على سناء، منحتها صديقة العمر فرصة لإثبات الذات، بإدارة مركز التجميل الملحق بالجيمنازيوم، كما أعطتها حرية تعيين مساعديها، لذا جلبت معها جمالات، خادمتها وصندوق أسرارها.

تحافظ سناء على الصلوات السبع على مدار اليوم، وتستمتع بشكل خاص حين تفتتح نهارها بـ"أبانا الذي في السماوات"، وتشعر أنها أدت ما عليها من عرفان بالجميل حين تتلو صلاة الشكر، والابتهالات و"قدوس قدوس الله". أما حين تسجد جمالات أمامها في الركعة الثالثة من صلاة المغرب، يتحرك في صدرها شيء يذكرها بأن عليها هي الأخرى أن تؤدي صلاة الغروب، لكي تشكر الرب وتقر بين يديه بخطاياها.

تقدس سناء جميع أسرار الكنيسة منذ بواكير طفولتها كما علمتها أمها، إلا سر واحد، الاعتراف. حجر يجثم على صدرها حين ترتكب إثما، ليس فقط لأنها اقترفته، بل لأنها لن تقدر على البوح به للقس الذي يعرف والديها وأخواتها وأهل الحي، فتشعر أنها لا تتحرر أبدا من الخطية. إلا أنها وجدت في التفسير الحرفي لوصية يعقوب الرسول، التي سمعتها في قداس الجمعة، شفاء لداء روحها: "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات، وصلو بعضكم لأجل بعض"، فصارت هي وجمالات أوان حافظة زلات بعضهما البعض، وإن كانت خطيتهما الكبرى في الطفولة هي تمجيد تاج المرأة، شعرهما الكثيف الذي كانتا تهتمان به في الخفاء، وتسكبان عليه الجاز والزيوت قبل الاستحمام مباشرة، ورفعه إلى أعلى في شنيون، أوإسداله على الظهر، في فترات غياب أم سناء في زيارة أو سفرية قصيرة إلى البلد، ثم تبرمانه وتكومانه في كعكة مدسوسة بالبنس، حين تباغتهما الوالدة الملتزمة دينيا وأخلاقيا، التي تتلفح بالسواد منذ أن فقدت زوجها، وتضرب حول شعرها الذي تخلله المشيب قبل الأوان طرحة من الفوال القاتم، حتى إنك لا تكاد تفرقها عن نساء المسلمات.

حين نصح جار والد سناء أن يأتي بجمالات من بلدتهم، منذ أعوام عديدة، لكي تساعد زوجته في الأعمال المنزلية وشراء الحاجيات من السوق، لم يكن يعلم أن تلك الطفلة ذات السنوات العشر، تحمل هذا الكم من الأمراض

المستعصية، إلا أنها قهرتها جميعا ببركة دعاء والديها، وبفضل الصلوات التي كانت تتلوها أم سناء على فراشها.

وُلدت جمالات شاكرة حامدة بالفطرة، فلم تصبها عقدة لأن بطنها مبقور بالطول ومشقوق بغرز كثيرة بالعرض، من أثر العملية التي أجريت لها، وقال الطبيب انه هو شخصيا اندهش من نجاحها. كانت جمالات تتباهى بالجرح وطبقات القطن والشاش المرقطة بدمائها، وتفرجها للضيوف، ثم تحمد الله أنها لا تزال على قيد الحياة. ظلت جمالات تنام قريرة العين، لأنها كانت لا تأوي إلى فراشها إلا وهي على وضوء، فلقد سمعت في برنامج إذاعي أنها لو فعلت ذلك، ستموت شهيدة وتُحشر مع القديسين الذين يمجدهم أهل البيت الذي تربت فيه. تعرف جمالات جيدا أنها على غير مِلتهم، لكن محافظتهم على الصلوات ومخافة الرب، جعلتها تخاف ربها، وتقرأ قرآنه، وتصوم رمضان، وتذهب كل ليلة إلى سيدتها، وترجوها أن تضربها، مع أنها لم تكن تعرف شيئا عن التوبة أو النفس اللوامة. وحين فار جسدها وزادت الزيوت من لمعة شعرها، لفت حوله قماشا عريضا، كان محط أنظار أهل "الضاهر"، في زمن لم تكن النساء يخفين شعورهن إلا لحمايتها من الأتربة. كما فرحت بها سيدتها التي كانت تودّ لو تشبّهت بالسيدة العذراء في لباسها.

حين تذهب جمالات لحضور عرس في البلد، كانت تأتي محملة بالحكايات لسناء وأخواتها، حواديت عن الجنية ذات شعر مجنون يصل حتى كعبيها، وتنادي الرجال ليلا، قبل أن يختفوا، أو يعثر على جثثهم الغرقى عند الهاويس. أما حكايات العروسة فلم تتجاوز وصف فستانها، وزينة الدار وأغنيات الفلاحات، وحين تبتلع سناء وأخواتها ريقهن عند الحصول على الجزء الأهم من الحدوتة، ليلة الدخلة، تحول جمالات دفة الحوار، أو تدّعي نسيانها لعمل هام، وتقوم فورا للقيام به. حتى بعدما صارت جمالات هي العروسة وبطلة

الحكاية، كانت تراوغ وتتملص من مهمة الفراش المقدسة على قدر طاقتها، حتى تواظب على العادة التي شبت عليها، النوم على وضوء. وفي الليالي التي خذلتها الحيَل من التملص، حملت ورزقت تسعة أبناء، مات منهم الأربعة الأوائل بعد بلوغهم العام أو العامين أو الثلاثة أعوام. لم تشعر جمالات بتأنيب الضمير حين نصحها المقربون بالتردد على الست "بتاعة ربنا"، التي منحتها الوصفة السحرية التي ستجعل أطفالها يعيشون. قالت لها المرأة "ابنك مقلوب في القبر.. إعدليه". ذهبا سويا ليلا، بصحبة حفار القبور الذي سيفتح لها المكان لكي تعدل الطفل. شعرت جمالات بأن الله كان يرافقها في رحلتها السرية، بأن أنار السماء، ولم يستعينوا بكشاف الإضاءة إلا قليلا. كما لم تكن هناك أية جنازات أو زوار للقبور يمكن أن يتساءلوا عن سر فتح المقبرة بلا ميت. وفي اللحظة التي وطأت فيها قدم جمالات تربة طاقة الأطفال، وقعت عيناها على أربعة أكفان خضراء، أدارت ظهرها وهمّت بالصعود، لكن المرأة التي ترافقها دفعتها وأمسكت بظهرها،فقلبت جثمان أول طفل لمسته أصابعها، ثم صرخت وأغمى عليها أمام القبر. ظلت جمالات تتقيأ أسبوعا كاملا ليل نهار، بعدها بشّرتها الطبيبة بأنها حامل. أنجبت أطفالها الأربعة الواحد تلو الآخر حتى صاروا الآن شبابا تتباهى بهم، ثم أضافت مسك الختام "ميريام" التي أسمتها على اسم ميريام ابنة سناء، بعد أن أفهمتها أن الاسم يعتبر تيمّنا بمريم العذراء. ولم تكن لميريام ابنة جمالات أن تأتي سوى بمعاونة قميص النوم الحريري الذي منحته سناء لجمالات، بعد أن يئست سناء من عودة زوجها، الذي خرج ولم يعد.

حين انهارت صخرة الدويقة فوق البيت المتواضع الذي كان يؤوي سناء وأولادها وزوجها وحماتها، ودمره بالكامل، وأراح حماتها من الدنيا ومن فيها،

لم تولول سناء وأولادها كالذين انكبوا على وجوههم يصيحون في الشوارع وفي وسائل الإعلام، فقد أسقطت يد الرب تلك الصخرة فوق البيت الذي تخجل هي وأولادها من مجرد ذكر اسم الحي الذي يضمه، ولتجد حجة مثيرة للشفقة، تعود بها إلى بيت الأسرة، الذي تسكنه أختها بحي الضاهر. حصلت سناء على تأفف أختها وأسرتها المستتر أحيانا والمعلن كثيرا، ثم استردت بعضا من تعاطفهم حين زعم زوجها انه سيسعى وراء رزقه في بلاد أخرى، ولم يجدوا له أثرا على قوائم السفر أو الوصول، أوفي ملفات الحوادث أو الوفيات. ومن الأسرار التي جثمت على صدرها ولم تقدر على البوح بها سوى لجمالات، أنها شعرت بالانعتاق من وجود ذكر يجثم على فراشها، ولا يملأ رأسها أو يغذي قلبها. لم تحتقر سناء جسدها مثل جمالات، التي تعالت على بطنها المشوه بآثار الغرز الجراحية، بالزهد والترقي بالتسابيح والتحصن بأذكار الصباح والمساء. كما لم تتمكن من أن تتبع ماربتها عليه أمها، بأن "الحسن غش والجمال باطل، أما المرأة المتقية للرب فهي تُمدح". ولهذا لم يكن من السهل على سناء أن تعترف حتى لجمالات أو لأختها المستنسخة من أمها، بأنها لاتغيب في الحمام، لتبكي حالها سرا، بل لأنها كانت تملأ عينيها بذلك الجسد البض، وتتخيله يشع نورا في حضرة رجل، يغسل أدران سنوات عاشتها في كنف زوج لم يحل أمرا أو يربطه، إلا حينما قيدها على اسمه بذلك الرباط المقدس.

تقتل سناء ساعات النهار بالجلوس خلف كاونتر البيوتي سنتر، والتسلي بتقليب قنوات التليفزيون وفق رغبات الزبونات وأعمارهن، قناة المجد، أحاديث وتلاوة قرآنية، منوعات وبرامج ترفيهية، أو إعادة لمسلسلات تركية يتجلى فيها الرجل الأيقونة المتعبد في حسن امرأة، ترى سناء أنها لو خلعت ملابسها خلف باب الحمام، وتبارت مع البطلة العجفاء في روعة الجسد، لهزمتها وفازت برجلها فائق الحُسن. أما ساعات الليل التي لا يغمض لها فيها جفن، إلا للحظات متقطعة،

فكانت تمر عليها كدهر لا نهاية له، وكان الحل في أن تشارك ابنها وابنتها لعبتهما التي تمتصهما، المسماة الفيسبوك. فتحت لها "ميريام" صفحة باسم "سناء الليل"، وسألت "مايكل" كيف تحمل صورا من على الانترنت، لأنها لا ترغب في أن تضع صورها. حملّت سناء لوحات من عصور فنية كلاسيكية يتصدرها جسد المرأة المرمري، المتسربل بقماش يشفّ ويصف قوة كامنة وعوزا شديدا للارتواء، بعد أن جعلت "ميريام" تعلمها كيف تضع كلمة سر لصفحتها، واتخاذ احتياطات الأمان حتى لا يخترقها أي من إخوتها، أو حتى ميريام ومايكل نفسيهما.

حين أنجبت سناء "ميريام"، لم تقو حماتها الكفيفة على العناية بها، هي ومايكل ذو الثلاثة أعوام، حتى تذهب سناء إلى عملها كمندوبة مبيعات في مصنع الملابس بحي المقطم، لكي تساعد قليلا في مصروفات البيت. ولم تكن أخت سناء التي بقيت في مصر، ولم ترحل إلى المهجر كالأخريات، على استعداد بأن تغير حفاضات طفلة وليدة، بينما تغير الحفاضات الكبيرة لأمها، وتقلبها يمينا ويسارا حتى لا تتمكن منها قُرح الفراش، التي بدأت تتناثر على أنحاء جسدها. وكما يرعى الرب سناء ويظللها بالنعمة، أرسل جمالات إلى بيت الأم في زيارة ودية، بعد انقطاع دام عشر سنوات، وفي نفسها عشم وعوز إلى العودة إلى العمل لديهم، إذ يرفض زوجها أن تعمل خادمة في بيت غرباء يعرضونها للإهانة، بعدما صارت ربة منزل وأما لحفنة من العيال. عاودت الرفيقتان تبادل المنفعة، تعتني جمالات بالطفلة الوليدة والحماة الكفيفة، وتذهب سناء لعرض البضاعة على المتاجر والمعارض، وتحصل على نسبة من المبيعات، تقتسمها مع جمالات. خمسة عشر عاما أخرى وهما على هذه الحال، إلى أن سقطت الصخرة فوق البيت، وشكر الجميع الله، أنهم لم يكونوا موجودين في هذا التوقيت، وترحموا على روح الحماة التي انتشلت جثتها من تحت الأنقاض.

وحين صارت سناء بلا دار أو زوج أو عمل، تلقفتها يد الله بالعناية للمرة الألف، ورققت عليها قلب صديقة الطفولة مدام أمينة، التي منحتها فرصة إدارة البيوتي سنتر، مقابل إيجار شهري ونسبة من الأرباح. جلبت سناء جمالات معها، ليس لأنها صرحت لها بأنها تخجل من أن تخبر ابنتها الصغرى بأنها تعمل في البيوت، بل لأن سناء نفسها صارت لا تأتمن جمالات على الشقة الجديدة، بعدما اجتمعا في المطبخ، وأدلت لها جمالات بالاعتراف الأخير، قبل السفر لأداء العمرة.

تنحّت بي جمالات جانبا، واتخذتني مرشدة نفسية هي الأخرى، ليس لنفسها، بل لتستفسر عن حالة ابنتها الكبرى، التي صامت عن الكلام، وصارت ذاهلة شاردة الذهن، بعدما انتقلت إلى بيت زوجها وأبويه وجده وزوجته المسنين، الذين تنظف غرفهم، وتغير ملاءاتهم، وتغسل وتنشر ملابسهم، وتطهو لهم الطعام الطازج يوما بيوم.

نصح الزملاء جمالات أن تأخذ ابنتها وتذهب إلى صلاح شقيق هدى الذي يفك المربوط ويطفئ نار الغِلّ والحسد، لكنها ذات عقل مستنير، وتعلم أن الداء دواؤه عند الطبيب، وأن الشفاء في النهاية في يد الله الشافي المعافي.

سلام جمالات مع نفسها، حتى حين تنحشر في ثلاثة وسائل مواصلات متتالية، حتى تصل إلى البيوتي سنتر، نابع من مواظبتها على حمل كتاب أذكارها الصغير وتلاوة مافيه من آيات الشكر، حتى لاتنعس، فيطول جسدها ما يطول الأخريات من تلامس أو احتكاك، تعقبه تهمة برمي بلائها على الرجل المتحرش الذي يدعي انه لم يمسسها، مع إهانة صارخة لأنوثتها على الملأ منه، بدعوتها لأن تنظر في المرآة.

لم تربط جمالات بين صمت ابنتها، ودعوة رقية ابنة أخيها عليها، حين أقنعت جملات أخاها، والد رقية أن يزوجها لسعيد الأخرس، لأنه متدين وميسور، بينما السبب الحقيقي كان لإبعاد رقية عن ابنها الأكبر، لأنها لا تحب زواج الأقارب. كما لم تجد جمالات أية صلة بين حكايتها القديمة، حين نبشت قبرا مغلقا على أكفان صغيرة، وعبثت بعظام أحدها، وبين حوادث السير التي تقع لأبنائها كل عيد، وأمراض الحساسية والرمد التي تورم عيونهم مع تقلب الفصول الأربعة، وتتباهى بأن الله يتذكرهم بالابتلاء من فرط محبته لها. من دواعي افتخار جملات أيضا، هو تقليبها لذراعيها بعد أن تشمّر أكمامها، وتخبط على صدرها، الذي لا يغطيه سوى خمارها، وهي تحمد الله أنها لا تتحلى بالذهب أبدا، حتى لا تنكوي به في نار جهنم. أمران فقط ما يعكر صفو العلاقة الشفافة بينها وبين ربها، أولهما تباهيها بشعرها الكثيف أيام شبابها، من خلف ظهر سيدتها أم سناء، والذي انكمش وصار في طول أصبع اليد، وتلاشى حتى أصبح شعيرات متناثرة تغطي فروة رأسها بالكاد. أما الذنب الآخر الذي اقترفته في حق سناء، فقد كفّرت عنه بأن وجهت كل دعواتها بالخير والستر لسناء، كلما ركعت أو سجدت أو شاهدت الطائفين وهم يدورون حول الكعبة في التلفاز.

شهران بالتمام، أتردد خلالهما بشكل شبه يومي على البيوتي سنتر، كي أحصل على مزايا العرض الذي وفرته لي سناء، بعدما تقاضت الثماني مائة جنيه، مقابل عمل الكيراتين. امتد كرمها حتى توفير عمل تاتو لتكثيف الحواجب، وتركيب الرموش، وتنظيف بشرة الوجه، وتدليك الساقين وتنعيم الكعبين وعمل المانيكير الأكريليك. لاحظت الدهشة في عيون من أعرفهم مما طرأ على مظهري من تغيير، فقدان للوزن وجسد مشدود، مع نضارة في البشرة ووجه مضيئ، على الرغم من الشعر المفرود في تيبس ودرجة لون كالحة.

الغريب أن ما كان يربطني بسناء، لم يكن الشغف بما ترويه، أو الشعور بالتميز لكوني عقل وقلب يقبل زلاتها وخطاياها، بل خيط مودّة وصداقة حقيقية، أشعرتني أني مازلت أمتلك بعض إنسانيتي، ولست مجرد قلم جاف، يخط الحكايا على الورق.

لفنجان القهوة المُرة مع قطعة شوكولاتة صغيرة مع سناء مذاق يضبط إيقاع اليوم. وترك فروة رأسي تحت أيدي رضا وهي تدلكها برفق برغوة الشامبو، ثم تهدهدها بالمياه الباردة المندفعة من دُش الحوض الصغير، بينما يصدح الشيخ مشاري راشد الذي تحب سناء صوته، سحرا يضع الاسترخاء ومخافة الله في كفة واحدة. أما الكفة الأخرى، هو حين تتأكد سناء أنه لازبونات في المحل سوى أنا وهي ورضا، وتضغط على زرّ الأغنيات المسجلة على هاتفها، وتقف عن بعد تراقب، عملية تجفيف رضا لشعري، بينما أراها في المرآة وهي تتراقص في نشوة وانسجام على أغنية "ستة الصبح" التي تعشقها. تعطي لرضا إشارة بأن تطفئ المجفف، وتسحبني من يدي، بشعري الهائش، وتحركني وهي تتمايل وتردد: "ليه يا حبيبي من يوم ماقابلتك وانت ف كوم والدنيا ف كوم؟"، ثم يرن هاتفها فتتوقف الأغنية، وتفلتني وتنساني كأنني لم أكن. تغيب مثل كل يوم في حوار ممتد مع شخص تلقبه بـ"الباشا"، وكأنها ترغب بأن توحي للجميع بأنها تجري مكالمة عمل، إلا أن الابتسامة والنظرة الجانبية واحمرار وجنتيها، يجزم بأن "الباشا" هو الشخص الذي تود أن تسأله: "ليه يا حبيبي من يوم ماقابلتك وانت ف كوم والدنيا ف كوم؟".

تحضر زبونات كثيرة للسؤال عن هدى لعمل الباديكير، إلا أنهن ينصرفن حين يعلمن إنها ليست موجودة إلى أجل غير مسمى. تتراكم فواتير المحمول على سناء، جنبا إلى جنب مع إيجار المحل، وقسط الشقة الجديدة، مع الانخفاض الملحوظ في عدد الزبونات، خاصة أيام الجمعة، والتي صار ينافسها في التظاهرات

والاشتباكات، أيام الثلاثاء. تعاود سناء هوايتها القديمة في حياكة الجلاليب العصرية، وتهديني مجموعة من ألبسة ال "ملس" الفلاحي بكل الألوان، حتى أروّج لبضاعتها التي تحاول أن تعوض بها ما لحق بها من أزمة مالية.

تستبدل سناء المكالمات التي تجريها مع "الباشا" بحوارات صامتة على الفيسبوك على هاتفها المحمول، وتنتقل حُمرة خديها إلى عينيها الذابلتين، وتختنق أحبالها الصوتية بغل وحزن مكتومين.

سناء التي تخلت عن أسرار الكنيسة واحدا تلو الآخر، قررت أن تجري بروفة على العودة إلى ملكوت المغفرة، فلطالما سمعت ولم تستجب إلى أنه لا يوجد أمر يفرح به الشيطان أكثر من أن نخفي أفكارنا عن آبائنا الروحيين. والآب ليس موجودا الآن، وجمالات تؤدي فريضة العمرة، وأنا المرشدة الروحية، حسب الزعم الذي أشعته في الجيمنازيوم، ونقلته هدى إلى البيوتي سنتر.

لم أندهش حين قالت لي سناء إن "الباشا" ليس شريكا في العمل كما أتصور، بل صديق افتراضي أعجبه اسم "سناء الليل" الذي اختارته لنفسها على الفيسبوك. لم تعرف سناء أن الـ"هاي" التي تبدأ بها الحوارات بين غريبين في "الإنبوكس"، قد تنتهي بقصة حب أو خيانة أو مأساة، وهو كل ما انتهت إليه سناء، مع هذا "الافتراضي" المتزوج من امرأة، مربوطة أبديا على اسمه، كالقيد المقدس الذي يربط سناء بوالد أولادها."ليكن الزواج مكرما عند كل واحد، والمضجع غير نجس، وأما العاهرون والزناة فسيدينهم الله". كلما تهاونت سناء في "سر الزيجة"، ترددت في أذنيها تلك الوصية المقدسة، إلا أنها مع تهاونها في سر الاعتراف، انجرفت في السقوط والخطية.

امتدت حواراتي مع سناء بالساعات كصديقة تنتشل رفيقتها من أزمة عن طيب خاطر، ولا أنكر أنه أعجبتني فكرة لعب دور قس الاعتراف، الذي أشعرني

أن لي يدا عليا على سناء. لم يدم إحساسي بالقوة تجاه ضعفها، حين بدأت في اعتراف يخصني، نزع هالة القديسين التي رسمتها حول رأسي المدهون بالكيراتين المغشوش، على الرغم من أنها كانت تخفض صوتها، وكأنها سردت حكايتها راجية مني الصفح الجميل. لكن ما كل الأدوار تصلح ألعابا، فمثلما كانت لن تتفهم جمالات عشق سناء لحلاوة الجسد، ولم تستطع سناء أن تغفر لها ما فعلته بها طوال حياتها، لن أقدر على الاستمرار في دور القس أو الصديقة الحنون لسناء، حينما مسّني الضُّرُّ، وصار شعري جافا بلا روح، على الرغم من أني منحتها صك الغفران عن أكبر الخطايا.

بدأت سناء حكايتها بحلم كانت تعرف تفسيره: "حلمت برداء أبيض كان قد استغرقني تفصيله أسبوع بأكمله. أخذت جمالات الفستان من الدولاب، وألصقت به فصوصا من اللولي وقطعا ذهبية، وقالت لي بثقة أنها ستأخذه لابنتها. وقفتُ قليلة الحيلة، أتقطر عرقا من الخجل أمامها، وفي نهاية الحلم، استجمعت شجاعتي وقلت لها أرجعيه إلى مكانه. استيقظت راضية عن نفسي في عالم الحلم، لأني في الواقع أضعف من أن أقول لجمالات أن تعيد لي حقا مسلوبا. قضيت كل حياتي الزوجية بلا أربعة حيطان تخصني وحدي أنا وأولادي وزوجي، وكذلك جمالات، كانت تعيش في شقة صغيرة، مناصفة مع أسرة غريبة. وحين جاءتني جمالات فرحة بقطعة الأرض التي دفعت مقدمها من مكافأة نهاية خدمة زوجها، فرحت أيضا، ومع كل دور تعلو به في مشروع عمارتها الصغيرة على أطراف المدينة، كان يحدوني الأمل في أنه سيغلق عليّ بابا خاصا يوما ما. ونذرت نذرا بأن أحقق لجمالات حلم عمرها، بأن أرسلها على نفقتي إلى الحجاز، لكي تقوم بعمل عمرة، وتضع يدها على شباك النبي، مثلما تردد دائما، حتى يتحقق حلمي أنا الأخرى في مأوى وأربعة جدران. قبل الرب نذوري، ودفعت مقدما لشقة خاصة بي، إلا أن جمالات باغتتني بخبر أن ابنها الأكبر لم يعد

يتقبل أن تعمل والدته خادمة. لم يكن ما تقوله جمالات يهمني لأني كنت قد قررت أن أفاجئها بخبر عُمرها. أكملت كلامي وقلت لها: مارأيك فيما لو ذهبت إلى العمرة؟

كنت أظننا في حوار عادي وليس في قلب لعبة الاعتراف، حين أدمعت عين جمالات، ورجتني ألا أكمل كلامي، حتى تكمل هي حوارها. قلت لها سأستخرج لك جواز سفر.

قالت لابد أن تسامحيني قبل أن تطرديني. قلت لها نريد صورتين على خلفية بيضاء. قالت هل تذكرين جارتي الأرملة "أم كرم" التي تربي اليتامى، والتي كنت أجعلك تجمعين لها التبرعات من جيرانك وزملائك وأصدقائك في الكنيسة، وكنت تحرمين بعض الطعام على أولادك لكي تدفعي لها من قوتك؟

قلت لجمالات وستحتاجين أيضاً شهادة طبية وصورة من بطاقة الرقم القومي.

قالت جمالات: أنا هي. أنا "أم كرم". لاتوجد جارة أرملة، ولا أطفال يتامى. هم فقط أطفالي، الذين أردت لهم ألا يشبّوا بلا بيت يخصهم مثل أولادك. جمعت التبرعات لأعلو بدور فوق الدور، وحين طلب مني ابني الأكبرأن أصارحك، حتى لا ينهار البيت عليه هو وعروسته، قلت له أني لم أكذب، فـ"كرم"، هو الابن الرابع الذي مات في الثالثة من عمره، ونزلت للمقبرة لكي أعدله في ميتته، ولأنعم بأولاد يعيشون.

سادت دقيقة صمت امتدت كدهر، قالت بعدها جمالات: "هل سامحتني؟"، ولأن القس لابد وأن يعطي صك الغفران، قلت لها نعم. قالت إن كنت غير مسامحة في نذر العمرة، لا ترسليني. ولأن الأب لا يتخلى عن أبنائه، قلت لها جهّزي أوراقك.

أدركت سخافة لعبتنا في هذا اليوم، حيث أني ارتكبت خطية الكذب، فلم أسامح جمالات مثل قسّ حقيقي، حين مسني االضر، وجلبتها إلى البيوتي سنتر،

ليس إرضاء لابنها، بل لأني لم أعد أئتمنها على بيتي. لكني أيضا لم أمتلك الجرأة التي واتتني معها حين وقفت في مواجهتها في "حلم الفستان الأبيض"، ورضخت حين عرضت عليك عمل الكيراتين بثماني مائة جنيه. فما وضعته رضا في رأسك، لم يكن سوى كريم لفرد الشعر، تبلغ قيمته عشرة جنيهات. ولهذا عرضتُ عليك عمل المانيكير والباديكير والحواجب المجاني، تكفيرا عن خطية تواطأت معها بالصمت. لم تعرف رضا الكوافيرة بأمر المبلغ الذي دفعته أنت في البداية، وكانت تظنك أتيت لفرد الشعر بالكريم الرخيص، وحين تكرر الأمر مع زبونات أخريات، أبلغت رضا أمينة، التي صارت تطالبني بالإيجار المتأخر، الذي إن لم أدفعه خلال شهر، سأغادر البيوتي سنتر. أيا ما كان المكان الذي سأعمل فيه، لا تحرميني من احتساء القهوة معك. وتذكري اننا لسنا ملائكة".

في تلك الآونة التاريخية ظهرت مفردة متداولة على مستوى شعبي؛"التخوين". ظاهرة استشرت بين رجال ونساء، جمعهم الخوف على الأرض أو مخافة الله. جمعت بعضهم حُصرٌ خشنة على أسفلت الشوارع، وأرغفةٌ انقسمت بينهم، لكي يصير الوفاق عهدا. وجمعت البعض الآخر ذكريات طفولة، وتخت مدرسية، أو شقاوة مراهقة، أو صور عائلية. لكن الخوف المتنكر في زى التخوين، قطع الأواصر ومزق الصور ومحا ذكرى العيش والملح.

كلما نما سنتيمتر جديد في شعري، أعملت فيه المقص، لألقي بذكرى تسليم رأسي لغرباء دون "تخوين"، مثلما ظنوا هم أيضا أني أمينة على زلاتهم، التي سأحولها إلى فرجة كبرى.

لكن جمالات ستعود من العمرة، وفي قلبها قناعة أكبر بأن الله يباركها، وستردد أذكار التوبة من باب التعوّد لا أكثر. أما سناء فستداوم على سر التوبة

والاعتراف في الكنيسة، لكي تحيا نفسها طاهرة. ولأنها جربت أن تلعب دور أب الاعتراف الأقرب إلى الملائكة، وتأكدت أنها أبدا لن تكون مثلهم، فقد فتحت مسجل هاتفها المحمول أثناء الوعظة لكي تسجل الجملة الأخيرة مثلما تعودت: "إن الملائكة وهم يتكللون بالبر لا يخافون. أما البشر وهم يتعرضون للسقوط في الخطايا، فإن الخوف يلاحقهم لأنه لاصق بالخطية". وقد تصادف أن جاء ترتيب تلك الجملة بعد أغنية "ستة الصبح" في ملف التسجيلات، الذي تُداوم على سماعه كاملا، والتحسّر على بدن يتوق إلى الانعتاق بالرقص وأن تُفك قيودُه بأنامل ذكورية خبيرة، ذات قوة وحنان.

سويسرا

"الحنين هو مسامرة الغائب للغائب، والتفات البعيد إلى البعيد"

محمود درويش

عُملة معدنية قديمة ترتفع في الهواء، ثم تنزل في دوائر حلزونية، حتى تستقر على لوح خشبي، محدثة رنينا عاليا، يعقبه هبدة من كفّي، الذي ينزل فوق العملة ويغطيها تماما، لكي يخمن الحاضرون على مَ استقرت؛ ملكٌ أم كتابة؟ ناحية الملك، تحمل وجه "سمير"، وناحية الكتابة، منقوشٌ عليها اسم "نيل". لم يكن هذا الحلم الخالي من لغة الكلام، سوى ترجمة لآخر ما وقعت عليه عيني قبل النوم، فلقد قرأت في "طالعك اليوم"، أن النجوم تحدثني بأني على شفا الوقوع في ورطة عاطفية، فهناك طاقة مشاعر متدفقة تجاه أكثر من شخص. تنصح الكواكب بأحد حلين؛ إما الانتظار وترك الأمور تسير في مجراها بلا تدخل، أو قذف عملة معدنية لعمل قرعة وتحديد اسم الحبيب، بناء على تلك المقامرة الصغيرة.

بين التجلي والاستتار تومض صورُ وهيئات أهل البيت، في رأسي أنا فحسب. فليلة أمس كان حديث العشاء عن الله، بتجلياته وصفاته العليا. غامت الرؤية في عيني "كاترينا" بعدما تناولت كأسها الخامس، وترقرقت بالدمع، وقالت في حسم بأن الله ليس منصفا معها، وزادت: "أين كان الله حين انتزع رجلا كزوجي من أحضاني، بعد أن عذبه بداء السرطان؟ رجل لم أكتب حرفا، إلا وكان صدى تصفيقه له يرن في أذني. رجل لم يعرف بوجود بؤرة للجمال على سطح الكرة الأرضية، إلا واصطحبني إليها. لم تخطرني أمي بوجود الإله إلا بعدما بلغتُ

التاسعة عشر، وحين عرفته، منحني الرب زوجي كهدية تعارف، لكنها لم تكن إلا خدعة كبرى، لأن الهدية التي آلت إلى الفناء، مازالت باقية تعذبني. أنفاس زوجي الدافئة تمر سريعا وتلفح وجهي، أنامله تلامس جلدي، كله يملأ كلي، لثوان خاطفة، ثم يتركني نهبا للفراغ. "وبدأت البكائية الليلية، أعقبها ارتماء في حضن "نيل" الذي لفظها، ونظرة تعاطف كسيرة عن بُعد من "جون"".

الكنيسة القريبة من القصر، تدق أجراسها في أوقات عديدة على مدار اليوم، حتى إن "ناتالي" ذاتها تتعجب من هذا الإصرار القدسي، صباحا وظهرا وعصرا وفي المغرب وفي العشاء، وفي قلب الليل. صدى الرنين المنتظم الآت من بعيد، موسيقى تصويرية ملائمة للحوار، جرحها "نيل" بسؤاله المفاجئ: "هل صلى أحدكم بالكنيسة منذ مجيئنا؟".

مأخوذا بحكاية "كاترينا" وتساؤل "نيل"، شرد "جون"، وتكلم مثل مذنب أمام قس الاعتراف: "تلك الغرفة الضيقة المسحورة في طرف الدور الأرضي بالقصر، هنا قلت أستقر فيها مكانا للكتابة، ليست غرفة مكتب فحسب بالنسبة لي مثلما ترونها. إنها صندوق للإلهام. النافذة الصغيرة التي لا تلمحونها، وتنفتح على مشهد الجبال والمروج والبحيرة، تلقي في روحي فيضا من علم روحاني، دون الاستدلال بحجة أو آية. كنت قبل تلك الغرفة الصومعة زوجا أمريكيا نمطيا، أقاسم الزوجة أعباء كل شيء وأي شيء، أموال، مذاكرة للأبناء، تنظيف المنزل، توصيل الأولاد وتجهيز الافطار والغداء والعشاء، ثم مشاركتهم اللعب والحوار ومبادلتهم المشاعر التي من المفترض أن يمنحها زوج محب وأب حنون. وفي نهاية اليوم، كنت أحاول أن أجلس قليلا مع نفسي، لأنفرد بالكاتب والشاعر، لنخط سويا حروفا تعبر عن جوهرنا، لكن الإلهام الذي يجمعنا، يكون قد انفرط وتبعثر بين الغرف الأخرى، والمطبخ والمرأب، وتبخر تماما بعد مراجعة الفواتير، والرد على البريد الالكتروني، ومكالمات الأهل.

قبل اكتشافي هذه الغرفة الصغيرة المحتجبة، التي تلهمني فيضا من نثر وشعر، كنت واحدا من ملايين ممن لا يجدون بعض وقت، ليطرحوا على أنفسهم سؤالين: "لماذا تزوجت؟" و"أين الله؟".

سكينة الغرفة، والنافذة المطلة على نور الأفق، أرشدتني إلى الإجابتين معا: "أنا لم أخلق للزواج.. والله موجود".

صباح اليوم يعدني بمباهج روحية وذهنية، وقد يحمل بين طياته إجابات لأمور عاطفية معلقة. تقول النشرة الجوية إن اليوم هو الأخير، الذي ستتجلى فيه الشمس في سماء مدينتنا، حيث ستحتجب من الغد لأيام سبعة، لن يطالعنا خلالها في الأفق سوى اللون الرمادي، وسنلزم حجراتنا ومقراتنا السرية الصغيرة للكتابة. ستأخذنا "ناتالي" اليوم إلى حفل توقيع كاتبة سويسرية بمدينة "مورج"، عاصمة التيوليب، التي عشت فيها حلم صحوة مع "نيل"، حين ضمنا قطار الأطفال للتفرج على الشوارع الحجرية، وتمشينا عند الأكشاك الملونة، وألقمنا عصفور البحيرة فُتات "الكريب" الشوكولاتة، واحتسينا القهوة الداكنة في محطة القطار العتيقة، حيث انبثق مشهد من حلم قديم، ووجدت "سمير" شاخصا أمامي، يكلمني بتلقائية، كأنه تركني ليلة أمس. سيقابلني "سمير" اليوم أيضا، بناء على موعد مسبق، في المقهى نفسه، الساعة الواحدة ظهرا، وهناك قد أرفع كفي عن العملة المعدنية القديمة التي رأيتها في المنام، لأعرف "ملك" أم "كتابة".

البيت في حالة سكون تام. لا صوت لنافذة تُفتح، ولا لباب يُغلق، ولا أثر لنكهة القهوة الصباحية، التي يعدها "جون". لابد أنه نفذ وصية ليلة أمس، ويجلس الآن في خشوع أمام المذبح، يتلو الصلوات هو و"نيل". نجيلة الحديقة تنحني في سلام أيضا، والبحيرة مستوية، وكأنها ساجدة. الأشجار أكثر

استقامة، والورود تتفتح في بطء، حتى تكوّن خطوطا أفقية متوازية وقمم الجبال، وكأنها بوصلات تتجه إلى السماء، وتشير إلى سكن الملائكة. حتى العصافير ترقق اليوم في زقزقاتها، لتفسح مساحة أكبر لدقات جرس الكنيسة، الذي يتناغم وهمهمتي بصلاة الصبح في غرفتي، وتنتهي بصدى قرعة الجرس الأخيرة، حين أردد التشهد وأسلّم يمينا ويسارا.

تفوح فجأة رائحة القهوة، وتنفتح ابواب الغرف واحدا تلو الآخر، لتصلني أصوات "نيل" و"جون" و"كاترينا"، وهم يلقون تحية الصباح، ويتعجبون كيف استغرقوا جميعا في النوم حتى هذه الساعة المتأخرة، ومن المفترض أن نستعد لنركب السيارة مع ناتالي، لتأخذنا إلى الندوة ببلدة مورج. "أولجا" هي الوحيدة التي يتطلب سماع صوتها وهي تدندن، نزولا إلى الدور السفلي، حيث تقع غرفتها، منفردة. اليوم تطلق "أولجا" صفارة منغمة بلحن رومانسي، وهي تعد إفطارا لإثنين، فلقد استأذنت من ناتالي أن تستضيف صديق قديم، ليحتفلا سويا بعيد ميلاده الثمانين، كما اعتذرت عن الذهاب معنا إلى الندوة، وسيكون القصر والزقزقات، وخضرة المروج، وتنفس الأزهار، ونسمات البحيرة، لهما وحدهما، بعد غياب دام لسنوات.

في عربة ناتالي تكدسنا مثل أطفال يقدمون فقرة في حفل مدرسي، تعبر عن التآخي بين شعوب العالم. "جون" من أمريكا، يجلس في الأمام بجوار "ناتالي" من سويسرا. "كاترينا" من بولندا تتواجد دائما مثل جدار عازل بيني وبين "نيل" من بريطانيا، فنتكئ على ذاكرة الجلوس المتجاور كل ليلة على مائدة العشاء، بدون كاترينا في المنتصف. "نوستالجيا إلى المحتل الأول" هو عنوان قصة قصيرة كانت قد كتبتها "بداية الألفي" عن حكايات حنينها إلى أشياء وأشخاص يخصونها، من ذوي الأصول البريطانية، فظلت تلح كلماتها عليّ، بينما تهتز بنا السيارة، ليطغى غياب الكاتبة الكبيرة، على الرغم من أني

ابتعدتُ عنها بآلاف الأميال. حتى الحلم الرمز الذي ملأ غفوتي ليلة أمس، عبثْت به من مكانها القصيّ، فكان وجه العُملة لابنها سمير، والوجه الآخر عبارة عن حروف اسم "نيل".. المحتل البريطاني. جزء صغير كان قد حجب عن ذاكرتي، وتجلى لي الآن فقط. فبينما كنت ألصق كفي بالعملة القديمة، لأخفيها تماما، ظهر بمنطق الأحلام وجه ثالث للعملة..شخص له ملامح مألوفة أرهبها في عالم الحقيقة، يجلس مستريحا واضعا ساقا فوق ساق، ويراقبني عن بُعد من غرفة مظلمة، فوضعت كفي على قلبي، وشهقت في فزع، وقد يكون هذا هو ما أيقظني، إلا أني نسيت تلك الجزئية تماما، حتى نتأت الآن في رأسي.

قلت لـ"نيل": "لقد حلمت بحروف اسمك". وكأنما كانت تجلس بيننا داخل أحداث الحلم أيضا، قالت "كاترينا"إنها سعيدة لأننا سنقابل سمير، وإنه رجل جذاب، ثم سألتني، أليس أمرا عاديا أن يجمع الرجل في الإسلام بين زوجتين؟

عند شاطئ البحيرة توقفت ناتالي بالسيارة، وقالت إنه في حال تفرقنا بعد الندوة، سنلتقي هاهنا في الثالثة تماما. نتسرب الواحد تلو الآخر من المكتبة التي يتم فيها حفل التوقيع، بعد أن يطوف كّل منا ببصره على الكتب المعروضة، ويشير للآخرين فرحا بكتاب يخص بلده، أو كاتب يعرفه، ثم يشدنا الشارع الحجري العريض بمنتصف البلدة، حيث يقع سوق التحف القديمة والملابس الهندية الزاهية، التي تخطف عيوننا مثل مغناطيس يفصلنا عن الأرض، وحين أعود من حالة الانجذاب والنشوة، أنظر يمينا ويسارا، لأجدني قد بعُدت تماما عن "نيل" و"كاترينا" اللذين كانا يقفان إلى جواري. أبحث عنهما مثل غريق يعافر مع دوامة سحبته بعيدا عن الشاطئ، فأتعلق بذكرى مرورنا بتلك الأمكنة نفسها، يوم احتوتنا أنا و"نيل" في غفلة من "كاترينا". لابد أن عدالة السماء ستشملها اليوم، وتخصها بأوقات حبيبة، هي وهو، منفردين.

أطوف بأماكننا مثل طيف، غريبة ليس لجسدها في عين أحد وجود، فأصير مثل "بسيمة"، جارتنا القديمة، التي احتجبت عن الناظرين بنقاب أسود، وسارت خلف زوجها، خطوة بخطوة، وهو لا يعرفها أو يشعر بوجودها، حتى وصل إلى بيت امرأة أخرى، وعانقها عند العتبة، فتكشفت لـ"بسيمة" الحقيقة الكاملة..حين غابت ملامح الجسد، وصارت مثل روح تتجول في حلم محزن.

"النوم إذا لم يعط بشرى لا يُعوّل عليه" قالها ابن عربي، أو بمعنى أدق، قالتها لي الكاتبة الكبيرة، حين علمتني فن الاستمتاع بالنوم. كما في قصيدة لمحمود درويش الذي تهيم به: "إن الحلم هو الذي يجد الحالمين، وما على الحالم إلا أن يتذكر". أتذكر أني مررت على كل تلك الأمكنة، وكان هناك صوت عميق يرافقني، ولا يزال يدور في رأسي مثل شريط مسجل، فأكتشف أني منذ فترة ليست بالقصيرة، صرت أفكر بالإنجليزية، لأن الصوت الذي يؤنسني لا يتكلم سوى لغة أعجمية. أتذكر لحظة وصول كتب "كاترينا" المترجمة إلى الإنجليزية، التي وصلت في طرد بريدي صباح أمس، واحتلت نصف منضدة السفرة، وأتساءل هل سيكون لكلماتي حظ التحول إلى لغته، لكي يقرأني من الداخل، أم سأنتظر حتى يتعلم العربية، مثلما قال ذات مزحة؟ أتذكر أنه علينا أن نرسل بريدا إلكترونيا إلى إدارة القصر، يشمل الإجابة على سؤال مكرر، تستعصي عليّ إجابته: "لماذا تكتب؟" هل سيقنعهم الرد بأني قد أُرسلت إلى هنا بسبب حكاية عن "الخوف"، في طرد على هيئة حلم، بواسطة الكاتبة "بداية الألفي"؟ تذكرني سيرة بداية الألفي بموعد سمير!! "سمير"!!!! الساعة الآن الواحدة إلا الربع، وموعدنا في الواحدة في محطة القطار. منذ أن فقدت شاحن هاتفي، وراسلتْ "ناتالي" شركة توصيل الأجهزة، وأنا أعيش حياة التحرر من تلك الآلة الصغيرة التي ترصدك أينما حللت، وأعيش أيام الزمن الجميل، حيث التقيّد بالكلمة والالتزام بالوعد، وسمير قد وعد.

في مقهى المحطة القديم، أرتشف الاسبرسو المُر، واجتر حلاوة كلمات وضحكات ترددت مع "نيل"، فوق الدكة الخشبية نفسها، بحروف لاتينية، فتشملني "نوستالجيا إلى المحتل الأول". وأتذكر "طالعك اليوم" الذي أرشدني إلى أحد حلين حين تفيض المشاعر؛ أيسرها أن أترك الأمور تسلك مجراها دون تدخل. وأتذكر كلمات صوفية رددتها الكاتبة ذات شهادة إبداعية، وطلبتُ منها أن تكتبها لي بعد نهاية ندوتها تلك: "الوارد المنتظر لا يعوّل عليه"، فإذا كان منتظَرا لم يكن حقيقيا، بل صدى مترددا إلى ما سبق إلى الذهن وأستقر فيه. إلا أن سمير المنتظَر لم يأت في الساعة الواحدة، ولا في الساعة الثانية، ومع ذلك لم أضجر لأني كنت أنظر للذي سبق إلى القلب، وأتذكر ما تضمنته ورقة الخواطر الصوفية نفسها، بأن "ما زاد لا يعوّل عليه".

في تمام الثالثة كنت أقف في ارتياح من اهتدى بعد حيرة، إلى جوار سيارة ناتالي، بمحاذاة ممشى البحيرة، وشتلات التيوليب. وفي الجهة المقابلة، لاحت لي وجوه أربعة، تتفاوت سماتها بين القلق والإجهاد والحنق. "ناتالي" و"جون" و"كاترينا" و"نيل"، بعدما استبد بهم القلق عليّ، حين ابتلعتني الدوامة المجهولة وسط السوق، واختفيت عن أنظارهم، فقرروا أن يتركوني أعود بالباص، إن لم أظهر في الموعد، إلا "نيل"، الذي صمم على أن ينتظروا.

في طريق العودة، تضاربت أقوال "كاترينا" و"نيل". قال "نيل" بنبرة هادئة، خالية من أي تعبير، أنه كان واثقا من سلامتي، وبأني كنت سأظهر في الموعد المحدد، كما قال إنه استمتع بإشراقة الشمس ولطف أشعتها على مياه البحيرة، وزهور الحديقة. وقالت "كاترينا" إن ما يقوله مغاير لما حدث، فقد ظل طوال الساعات الثلاثة، زائغ البصر، ذاهب العقل، يفتش عنك في كل وجه، وعند كل ناصية، حتى أنه رفض أن يستقر لدقائق عشر، فوق مقعد مقهى لاحتساء قليلا من الإسبرسو، وأفسد علينا يوما مشمسا، قد لا نرى مثيلا له قبل أسبوع من الآن.

في غرفة الصالون التقينا في المساء. خرجت "أولجا" من غرفتها بخدين متوردين و"شفتين مكتنزتين"، مثلما يعبر إحسان عبد القدوس عن حلاوة النساء في رواياته، فتخيلت بطلاته الشابات، بعد مرور خمسين عاما على وصفه لهن، حين يتواصلن والحبيب الذي لم تنته حكاياتهن معه نهاية سعيدة. كان مزاج "أولجا" الرائق ضرورة روحانية، لمعادلة مزاج "كاترينا" المعتل، من جراء يومها الذي فسد بسببي، دون قصد مني. عرضت "أولجا" على "كاترينا" أن تعلمها الرقص الشرقي، لحين الانتهاء من تحضير العشاء، وأخذتها خلف الحائط، حتى تحتجب عن أعين الرجال. رفعت "أولجا" كفيها تحت ذقنها، وفوق رأسها، وصارت تحرك رقبتها على الجانبين كالهنود. فأكتشف إنها حين قالت لـ"جون" إنه يشبه الهنود حين لفحته الشمس، لم تقصد الإساءة، بل ربما كانت تراه كشهريار أسمر. فهي الآن وبرغم سنواتها الخمس والسبعين، تتمايل مثل جارية حسناء في قصر للسلطان، وربما تحضرها صورة حبيبها الغائب، الذي قضت معه ساعات النهار، بعكس" كاترينا" التي تحرك جسدها في عصبية، محاولة تقليدها، ثم تعود إلى مكانها وتفرغ كأسا من النبيذ، وهي تزمجر "لا فائدة". كنت أراقبهم عن بُعد، بينما أتلقى كلمات اعتذار رقيقة من "سمير" على هاتف البيت. أرد عليه بتلقائية بأنه لا توجد مشكلة، طالما ما منعه عن الموعد كانت صفقة عمل رابحة. كانت مجرد كلمات جوفاء لإنهاء المكالمة، التي لم ترضني لأنني لم أكن غاضبة بالأساس من "سمير"، الفائض عن الحاجة، الذي لم أعوّل عليه.

حملنا أطباق العشاء الفارغة، والأكواب والخبز المتبقي إلى المطبخ، إلا أن "كاترينا" تركت لنا صحنها، وانصرفت قبل الجميع إلى غرفتها الوردية الفاخرة، التي كانت لصاحب القصر، ولا ترضيها تماما، وتظل تجرب كل أركاننا التي خصصها كل منا لنفسه، كمكان مفضل للكتابة.

"شكرا لأنك انتظرتني اليوم". قلت لـ"نيل" حين صرنا متقاربين، نرصص الملاعق والشوك على منضدة الفضيات. رد بفتور: "أنا لم أُختبر. ربما لو تأخرت لساعة أو اثنتين، لتركتك تعودين بالباص، مثلما قرر الآخرون". وكأنه يرغب في أن يصرفني عن هذا الأمر، أخرج فنجان خزفي من الخزانة الزجاجية، كان قد تركه كاتب أمريكي. أشار "نيل" إلى الحروف المكتوبة بالإنجليزية عليه:

"حين يَطعن المرء في السن، يقول: " لقد فعلت كل شيء – رأيت كل شيء – لكني نسيت كل شيء".

قلت وأنا أسك قفل باب القصر: " أنا لن أنسى".

غرفة "نابوكوف" في آخر دهليز الدور العلوي، أترك بابها مفتوحا على أشيائي، ولا أسكها أبدا، إلا من الداخل، حين أتخفف من ثقل الجسد، وأنزلق إلى حلم جديد. ما زلت بين صحوة وغفوة، مستغرقة فيما تذكرته اليوم من "حضرة الغياب":

كن سيد أوصافك من الآن

يا بني ابني لك حلم

فاتبع الحلم بما أوتيت من ليل

وكن إحدى صفات الحلم واحلم تجد الفردوس في موضعه

محمود درويش

رأيت في الظلام قُرطا مخروطيا من فضة لامعة، يتدلى من حلمة أذني وينير نصفَ وجهي، فامتلأت روحي السابحة في الملكوت راحة وسلاما، لم أهنأ بهما

حتى نهاية الحلم، فقلد تراءى لي على الجانب الآخر من الظلمة، نفس الجسد المألوف من حياة بعيدة، لرجل في كامل ملابسه، يضع ساقا فوق الساق، ويراقبني من ركنه المعتم.

هدى

ياللي انت بيتك من قش ومفروش بريش

يقوى عليه الريح يصبح مفيش

عجبي عليك حواليك مخالب كبار

ومالكش غير منقار وقادر تعيش

عجبي

رغم أن هدى قالت أثناء اختفائها الأول "نار أخواتي ولا جنة في الشارع"، وعادت راضية إلى بيت أهلها، فقد كان الاختفاء الثاني حتميا، بالنسبة لها، ولي، أيضا.

أن تؤوي شخصا تتعاطف مع قلة حيلته، فهذا هو الجزء الإنساني من الحكاية، أما أن تتستر على شخص تشير أصابع الاتهام نحوه بالانحراف، تارة، والجنون، تارة أخرى، فتلك هي المغامرة. هي اللذة المحرمة التي يشعر بها من يكتبون قصص الغير، ويقترفون ذلك إما بالتلصص المباشر، أو بالاستعانة بعميل مزدوج، يلقي الضوء على ماخفي عليك، ويقلب موازين الحكي. هدى هي من أكملت الحواديت التي بدأتُ كتابتها عن زبونات الجيمنازيوم. وهنّ من كنّ يستدعينها لعمل المساج أو الباديكير بأجر أقل في بيوتهن، من خلف ظهر

مدام أمينة. وما زاد القصة إثارة، هو استخدامي لمفتاح شقة الكاتبة الكبيرة، أعطته لي قبل سفرها إلى الإسكندرية، ليسهل لي الدخول، إن حدث شيء. وقد حدث. هربت هدى ساعية إلى مأوى، وأكلتُ تفاحتين محرمتين في وجبة واحدة. "البيت بيتك يا هدى". قلتها في تلقائية بعد أن أدرت المفتاح في سكتين، ثم أضأت نور الصالة، تلاه نور المطبخ، وفتحت نافذته، ثم اعتذرت منها قليلا، لأن الثلاجة لا يوجد بها سوى علبتي جبن، وبعض الخبز في الفريزر، بحجة أني كنت مسافرة، ثم ملأنا الأرفف والأدراج بما لذ، بعد أن اتصلنا بالسوبر ماركت. وبعد العشاء، أخذتها إلى الغرفة التي كنت أنام فيها أحيانا، وقلت لها "خدي راحتك ع الآخر ياهدى"، تماما كما كانت تقول لي الكاتبة الكبيرة وهي تستخدمني كشخصية ثانوية في رواياتها، وانصرفتُ مثل صاحبة البيت نحو غرفة نومها، وارتميت في فراشها، وزفرتُ تنهيدة آخر اليوم، ولم أشعر بي إلا مع شعاع الضوء الذي ضرب عيني، لأني حرصت على أن لاأغلق الستائر، مثلما كانت تفعل، لتكون أول من يستقبل خيوط الشمس.

حينما كنت أشطح برأسي الطفولي، وأتخيلني أجلس إلى مكتب وأرتدي نظارة مثل الكاتبة الكبيرة، كنت أغلق عيني فأراني رجلا، وكأن الكتابة لا تليق إلا برجل وقور، مهابٍ، كبير في السن، يدق الناس باب غرفته برفق قبل الدخول، خشية تكديره أو إخراجه من الحالة الفنية، تماما مثلما تدق هدى بابي بضعف يليق وصوتها المنخفض، وهي تسألني إن كنت أرغب في تناول الفطور مع الشاي.

تملك هدى شهوة في الحكي تفوق كفاءة شهرزاد في الإتيان بسير من الماضي والحاضر، لذا شعرت أني فعلا كاتب رجل، شهريار عصري، ينتحل شخصية كاتبة غائبة، ويحبس فريسته في شقة سرية، ليدوّن حواديتها، ثم يضع رقبتها تحت سيف قارئ مجهول أو ناقد متعال. لكن شهرزاد على دهائها وصبرها، لم

تكن ترهق شهريار إلا في تعطيله عن النوم واستدعاء مسرور السياف. أما هدى، فما كانت لتنساب في الاعتراف الذي تظنه علاجا نفسيا، إلا وهي تضع قدميّ في طست الماء الدافئ، وتحك كعبي، أو تروح وتجئ بعنف على ساقي بالمبرد الخشن العريض، الذي أحدث خدوشا، أسالت دمي وتركت ندبات داكنة، ستذكرني بهدى حتى بعد أن فقدتُ أثرها، وستظل نظراتها الزائغة، وتلعثمها الطفولي، رغم سنوات عمرها الأربعين، يتردد في أذني، كلما قيلت كلمة سحر أو بلطجي أو دير أو غية حمام.

لم أكن بحاجة لأن أطبق ما تعلمته في مجال التخدير على هدى. مجرد تسكين موضعي لمواضع الألم النفسي بكلمة واحدة قلتها لها، فتحت هاويس الكلام، "إنتي فنانة يا هدى". كنت أعنيها بعد أن أزالت الشعيرات الزائدة حول حاجبيَ، وأعادت رسمهما مثل هلالين عريضين. "وعشان انتي مختلفة محدش مقدرك"، وتلك الجملة الأخيرة كانت بمثابة الربت على كتفها وتخديرها كليا، مثلما كانت تفعل معي الكاتبة الكبيرة، فأنقل لها عالما عريضا يصلح لأن يكون خلفية للبطلة الرئيسية.

الجنون والشذوذ والهروب مواضيع مثيرة ترسم خيوطا خفية تجعل القارئ يلهث وراء السر، مثلما أثارشغفي الحديث المتكررفي الجيمنازيوم عن اختفاء هدى، وهجوم إبراهيم أخيها الأصغر على المكان، لولا استغاثة مدام أمينة بالشرطة، ثم لجوئها هي والكثير من الزبونات، إلى صلاح شقيق هدى الأكبر، كلما حلت بهن ضائقة مستعصية.

لكن ما حكته لي هدى، لم يكن سوى "توليفة" من الوقائع التي يعرفها الجميع من الصحف، وشخصيات استهلكتها السينما في أفلام رخيصة المستوى. وقد يكون هذا نفسه، هو ما شدني لسماع أحداث مكررة، والمخاطرة بإيواء مريضة صرع، أو فتاة ملبوسة بالجن، لمجرد أن أشير على الحكايا

المعروفة سلفا، في إثارة طفولية، وأقول باندهاش غير مبرر "ده زي اللي ف الجرنال بالظبط" أو زى فيلم كذا"، فتؤكد هدى ملاحظتي وتقول "ايوه يا دكتورة، زى الفيلم بالظبط".

حين يغادر الزوج شقته ويختفي، تاركا وراءه امرأة في عز الحاجة إلى رجل، وأطفالا في سن العوز إلى أب، يكون إما عديم المال أو العقل أو الحيلة، أو جميعهم معا. أما هدى حين هربت هذه المرة، فقد كان هدفها هو التلذذ بسرد قصتها عليّ، وكأنها تقذف بها على كاهل شخص غريب، لتتخلص من عبئها.

"عارفة يافندم أنا ليه هربت تاني من أهلي المرة دي وطلبت من حضرتك تخبيني؟ عشان محدش فهم أنا ليه هربت أول مرة".

"لو حسبنا تاريخ الهروب الذي يوبخونني عليه ليل نهار، لوجدناه جاء متأخرا أكثر من عشرين عاما. ولو أردنا تحري الدقة، لنقل من سنة 2008. منذ أن سقطت صخرة ضخمة من الجبل فوق رأس"إيفون"، صاحبتي المسيحية، هي وأولادها الثلاثة. هل سمعت عن صخرة المقطم التي وقعت فوق العشوائيات، وهدمت عشرات البيوت فوق رؤوس أصحابها وهم في عز النوم، منهم من مات في الحال، ومنهم من ظل أيام تحت الأنقاض مثل"إيفون" وعيالها، والصخرة مستقرة في عناد، لا يزحزحها ونش أو رافعة ضخمة؟ في هذا اليوم كان الغبار والصراخ يملأ الهواء، والعساكر يحيطون المنطقة في كردون كبير. جاء ناس غرباء عن المنطقة في أفواج ومعهم طعام وماء، لكن الشرطة منعتهم، لأنهم كانوا يظنونها مظاهرة. رأينا أيضا كاميرات وصحفيين يحاولون الدخول إلى المنطقة المحظورة، ويحاولون أخذ أية أقوال من الناس الذين تركوا بيوتهم التي لم تتهدم، ويجلسون وينامون أمامها في الشارع،

لحراسة أشيائهم مثلنا. أخذت فاطمة صديقتنا الثالثة ترمي الصحفيين بالحجارة وتصرخ قائلة: "جايين تعملوا إيه بعد ما الناس ماتت؟" وأخذت تشق ثوبها وتلطم خديها، لأن عادل شقيق" إيفون" كان يزورها في تلك الساعة المنحوسة، وقد خرجت جثته متهتكة من تحت الأنقاض. عادل كان يواعد فاطمة خلف عواميد أساسات مشروع أبراج القلعة، الذي يقولون إن المياه المتسربة منه هي التي هددت سكان الجبل. أما أنا فقد ركبني الصمت، وظلت عيني شاخصة نحو دير سمعان الخراز.

كل الجيران يرون أكوام الزبالة، والذباب الذي يعفّ عليها، والخنازير التي تلتقطها في تلذذ. أما أنا فلم أعرف في منطقتنا هدفا سوى أني أسير في الشارع لأصل إلى الشقة، واذهب إلى الشقة لكي أصعد إلى السطوح لأتطلع إلى غيات الحمام، ولا أشعر أني أتنفس بعمق، إلا حين أسمع رفرفة الحمام واليمام وهو يغادر الغية ويطير عاليا حتى يغيب تماما، ثم أعود وأمعن النظر في الدير وأصيخ السمع إلى الترانيم، والأجراس، وأشعر بالراحة حين أسأل "سمعان أبو عين واحدة" كيف حرك جبل المقطم، ولم يستطع أن يحرك الكتلة الصغيرة التي طحنت "ايفون" وأسرتها!".

كانت الكاتبة الكبيرة تلزم الصمت حين يُلقى أمامها في ندوة أو مؤتمر بمعلومة تجهلها، وتحاول الاختفاء من وجه قائلها مؤقتا، حتى تبحث وتتبحر في المعلومة الناقصة وتعود واثقة إلى الحوار ولو بعد حين. ولكي أفعل مثلها حين فاجئتني هدى بجملة "سمعان أبو عين واحدة"، تصرفت مثل أكثر مشهد يزعجني في الأفلام، حين يكون المريض الذي يعاني نفسيا يتمدد أمام الطبيب، ويمعن في الفضفضة، وفي اللحظة التي تسبق الارتياح الكامل، يبادره الطبيب بتلك الجملة المكررة: "كفاية كدة النهارده. اشوفك الأسبوع الجاي".

ضغطت هدى بإصبعيها على معدتها، فوجدتها فرصة مناسبة للانسحاب، وإرضاء شغفي بالتعرف على "أبو عين واحدة" الذي يهون على هدى السير وسط مقالب الزبالة وأوكار اللصوص، لكي تخاطبه من سطوح منزلهم وهي لا تسمع إلا هديل الحمام ورفرفة اليمام والترانيم. قلت لها "شكلك تعبانة يا هدى. هاروح أعملك نعناع، اشربيه وارتاحي شوية".

سأترك ساقي في المساء لهدى لتدلكهما بالزيوت العطرية، لتكمل مابدأته في الحكاية، دون أن أقاطعها بكليشيه الأفلام، كمكافأة لها على إدخالي دون أن تدري، إلى ذلك العالم الذي يصلح بطلا لرواية تاريخية من ثلاثة أجزاء، إن فكرت أن اكتب رواية تاريخية.

تقول موسوعة الويكيبيديا الإلكترونية:

سمعان الخراز هو أحد قديسي الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، إذ تعزى له معجزة نقل أو تحريك الجبل المقطم.

يروي عنه التراث القبطي بأنه كان يعمل في دباغة الجلود وفي صناعة وتصليح الأحذية وكان رجلاً تقياً صالحاً، جاءت إلى دكانه يوماً امرأة لتعرض عليه حذاءها ليصلحه لها وبينما كانت تقوم بخلعه وقعت عينا سمعان على ساقها فاشتهاها، فقام بقلع عينه بالمخراز منفذاً بذلك بشكل حرفي إحدى وصايا المسيح التي يقول فيها: إن كانت عينك اليُمنى تعثرك، فاقلعها، والقها عنك..لأنه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يُلقى جسدك كله في جهنم.

نقل الجبل المقطم[عدل]

بحسب الرواية الدينية فإن يعقوب بن كلس اليهودي الأصل وزير المعز لدين الله كان يعادي المسيحيين بشدة، فدعا الخليفة بطريرك الأقباط ليباحث اليهود في مسائل الدين في حضرته. لبى البطريرك الدعوة مصطحباً معه الأسقف ساويروس بن المقفع. وخلال النقاش اتهم ساويروس اليهود بالجهل بسفر إشعياء.أثار ذلك غضب الوزير اليهودي، الذي قرر مع أحد رفاقه الرد على المسيحيين من خلال تصيد ثغرة ما في كتبهم، وخلص بحثه إلى آية في العهد الجديد يخاطب فيها المسيح تلاميذه "لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل".

عرض الوزير تلك الآية على الخليفة وطلب إليه أن يجبر المسيحيين إثبات زعم كتابهم هذا. زاق اقتراحه للخليفة الذي كان يريد التخلص من الجبل الكائن شرق القاهرة، ومن ناحية أخرى فإن تملُص المسيحيين من تحقيق الآية الإنجيلية سيكون دليلا على بطلان دينهم ومعتقداتهم.

قامت الكنيسة كلها في البلاد خلال تلك الفترة بالصوم والصلاة. تكمل الرواية الدينية القصة متحدثة عن ظهور مريم العذراء للبطريرك في صباح اليوم الثالث، أخبرته بأن يخرج ليرى رجلاً يحمل جرة ماء سيكون هو المختار للتتميم المعجزة على يديه. وعند تنفيذه لوصية العذراء وجد سمعان الخراز فكلمه بما حدث وأما هذا الأخير فقد طلب من البطريرك أن يبقى بين الشعب في اليوم المقرر لنقل الجبل ومن هناك سوف يقوم بالصلاة، وتم ذلك كما قال حيث وقعت زلزلة عظيمة وتحرك الجبل حتى بانت الشمس من تحته.

بعد ذلك هرب الخراز لكيلا ينال المديح من أحد.

وقد كانت "إيفون" التي دكتها الصخرة، هي من حكت لهدى حكاية سمعان الخراز، الذي حرك جبل المقطم، ليثبت سلامة عقيدته، ثم هرب لكيلا ينال المديح من أحد.

"إبراهيم أخويا طول عمره حاططني ف دماغه يافندم، وهو اللي طلع عليا إني طفشت المرة اللي فاتت مع المسيحيين عشان يجوزوني واحد نصراني، بدل عادل أخو إيفون اللي مات، مع إن عادل كان صاحب فاطمة مش صاحبي أنا. وقعد يقول للناس ف منشية ناصر كلها إني طول عمري مجذوبة للدير، وكان يقف تحت البيت من غير هدوم والمطواة في إيده، وينادني وانا ع السطوح، ويقوللي لو منزلتيش وجبتي فلوس يا هدى، هطلعلك وأدبح الحمام اللي ف الغية، وأدبحك!".

حين كانت هدى في السابعة عشر، وقعت مشادة عادية بين مجموعة من الشباب، سالت فيها الدماء من فم أحدهم. جُنّ جنون هدى حين رأت لون الدماء "أصل أنا برج الثور يافندم" على حد قولها. اتصلت بشرطة النجدة، وقالت "فيه اتنين مقتولين في الشارع"، فسارعت الشرطة بالمجيء. وصارت هذه هي كلمة السر التي تُحضر بها الشرطة على الهاتف، كلما هددها إبراهيم بأن يرفع عليها سلاحا.

خفت حماس هدى وعادت لنبرتها الطفولية وسألتني بعفوية: "حضرتك بتحمي نفسك إزاي يافندم؟ لو تحبي أجيبلك من الواد إبراهيم مطواة بإيد بيضا بتلاتين جنيه، أو أم ايد زان بخمسين. وفيه مطواة سوستة صناعة صيني بمائة جنيه بس، والخنجر من سبعين لمائتين وسبعين، وفيه كمان سنج مسنونة م الناحيتين.. آه والله".قلت لها: "وانتي بتحمي نفسك بإيه يا هدى؟" سألتها وأنا أتحسس رقبتي، وعيني على غرفة المكتب والأوراق المتناثرة التي أدوّن فيها أسرارها. قالت "باطلب البوليس وأقولهم إن فيه قتيل..بييجوا على طول..آه والله! تحبي أعملك حمّام كريم يافندم وانا بحكيلك هربت ازاي؟".

لم يكن لي حيلة سوى أن أترك رأسي لهدى تحت الصنبور، حتى تروي بمزاج عال. وضعنا كرسي صغير أمام الحوض، وسكبت قليلا من الشامبو فوق شعري، وخلصته من كل الدهون، حتى ينجح حمّام الكريم على حد قولها. أخذت تدلك رأسي بشكل دائري، واستمرت تلك العملية خمسة عشر دقيقة، حكت لي خلالها عن يوم الهروب.

"كان يوم 9 مارس سنة 2011. والله العظيم يافندم أنا ماكنتش ناوية أهرب. كان فيه مسيرة بالصدفة طالعة من منشية ناصر، عشان الكنيسة اللي اتحرقت ف بلد اسمها أطفيح. كانت أول مرة أسمع عنها. المسيرة كان فيها مسلمين ومسيحيين، وكانت طالعة فيها البت رضا الكوافيرة اللي عملت لحضرتك الكيراتين. أصل رضا بتاعة ثورة واعتصامات. أنا وفاطمة صاحبتي بأه كنا محوشين ألفين جنيه، وكنا بنفكر نسافر بيهم ندّور على شغل بعيد عن المشاكل والمنطقة. رضا قالت لنا تعالوا امشوا معانا في المسيرة. فضلنا ماشيين معاها، عشان نروح ماسبيرو نتضامن مع المسيحيين اللي معتصمين هناك. بصراحة يافندم كنت مبسوطة وأنا حاسة إني بأعمل حاجة سياسية كدة زي رضا. وخلصنا المسيرة على الساعة خمسة بعد الضهر. شوية ولقينا رصاص نازل علينا من كل ناحية، والناس اللي معانا عبوا قزايز مولوتوف وقعدوا يرموها ع الناس اللي هاجمونا. أصل طلعت إشاعة إن مسيرة الأقباط اللي احنا كنا فيها، طالعة تحرق مسجد السيدة عائشة، فالمسلمين قاموا عليهم ضرب ورمي حجارة. بس الرصاص كان من البلطجية، أنا اتعرفت على اتنين منهم وعيني جت في عينيهم، أصحاب إبراهيم أخويا، وهما برضوا اللي ولعوا في البيوت والمخازن وحرقوا تلات عربيات، وشفتهم وهما بيجروا على إبراهيم وبيقولوله أختك الفاجرة طالعة مع المسيحين.

رضا كمَلت وراحت على اعتصام ماسبيرو، أصلها اتعودت على نوم الأسفلت من ساعة الثورة في التحرير. وفاطمة جريت على بيتهم وجابت الألفين جنيه،

وقالتلي إحنا مالناش عيش ف الحتة دي. كان يوم مايعلم به إلا ربنا، أربعتاشر واحد ماتوا ويجي مائة وخمسين اتعوروا. يومها البوليس مانجدش حد، لأنه ماجاش أصلا، رغم إني اتصلت بيهم زي العادة. فاطمة كانت ساحباني وسط الصراخ والرصاص زي العيلة الصغيرة. مشينا على رجلينا ييجي خمسة ستة كيلو، لحد ماوصلنا المعادي، ودخلنا فيللا حلوة قوي بتاعة ست عاملة زي الممثلات بالظبط، اسمها مدام حنان الإخشيد.آه والله".

حاولتُ التملص من هدى لأذهب إلى أقرب ورقة بيضاء، أدوّن عليها ماسمعته لكيلا أنساه، إلا أنها فاجأتني بفوطة كبيرة، مبللة بالماء الساخن، يتصاعد منها البخار، ولفتها حول رأسي، ثم بدأت قبضتها تخف عني شيئا فشيئا، حتى كادت تفقد السيطرة على يديها وساقيها تماما. سألتها عن ما حل بها، أجابت في اقتضاب أنها الأعراض الجانبية لـ"الديباكين"، دواء الصرع، ودخلت شبه مغشيا عليها إلى الغرفة، بعد أن نصحتنى أن أشطف شعري بعد عشرين دقيقة.

كانت هدى قد ألمحت إلى أن إحدى أمنيات حياتها هي أن تقتني جهاز تنعيم القدمين بالفازلين الساخن، لكي تبدأ به مشروعها الخاص، وأعطتني بطاقة مكتوب عليها محل "لوازم الكوافيرات" الذي يبيعه، و"سكتت عن الكلام المباح". سأقوم برحلة قصيرة في الصباح إلى حي مصر الجديدة، وأسأل عن عنوان المحل الذي في البطاقة، وسأشتري لهدى الجهاز، كرشوة صغيرة تحفزها على الحكي، وإكمال الحدوتة.

سويسرا

"أشياء ثلاثة لا يمكن أن تظل مختبئة طويلا: الشمس، والقمر، والحقيقة"

بوذا

"الشمس هي محبة الإله، وإشراق لطفه، ووارد جماله على النفوس والأرواح المستجيبة"..عبارة كان يجب أن تنتهي بها نشرة الأرصاد الجوية، التي تنبأت باحتجاب الشمس لأسبوع كامل، حتى يأخذ البشر حذرهم من أنهم قد يسلبون المزاج الرائق، والنوم الهادئ، ويُمنحون الأوجاع العضلية، واضطراب الذاكرة، والتفكير السلبي، وسهولة الاستفزاز، وكثرة الارتباك، الناتج عن نقصان فيتامين د، الذي تهبه الشمس مع خيوطها الذهبية.

هذا الأسبوع الرمادي، الذي تورطنا فيه بإرادة سماوية، يشبه التفرج على خيالات أثناء النوم، لكن لا هي برؤى ناعمة، ولا هي بكوابيس مزعجة. مجرد أضغاث أحلام، نعيشها جميعا، أثناء نهاراتنا المحرومة من الأشعة الحميمة الدافئة. أراني في المطبخ، في حاجة للمرة الأولى إلى وجبة نهارية ساخنة، فأترجى "نيل" الإنجليزي، المار مصادفة، أن يرشدني إلى طريقة تشغيل المايكرويف، ثم تدخل "كاترينا" البولندية بمزاجها المعتل، وتأخذه ليريها كيف تعمل الطبّاعة. يذهب "جون" الأمريكي ويجيئ في الدهليز، ويفتح الثلاجة ليبحث عن البيرة الغامقة التي يأتي بها خصيصا من البلدة المجاورة، فيجدها قد نفذت، ويُعتبر الخروج النهاري في مثل هذا الطقس، مغامرة غير محسوبة، مع السرعة الشديدة للرياح، والسحب المنخفضة التي تفرغ حمولتها بغزارة.

يُخرج "جون" برطمانات أربعة، بكل منها نوع من البُن، يختلف في درجة اللون والتحميص وقوة النكهة عن سابقه. يمزج ثلاثة أنواع في فنجان هائل، مستعينا بماكينة الاسبرسو الضخمة، وفلاتر تصفية القهوة الأميركية، لتتصاعد الرائحة، التي تنعش روحي مع بشائر كل نهار. وما أن أبدأ في الاستنشاق، حتى يعود "نيل"، وتخرج "أولجا" الروسية من غرفتها لتعد إفطارها، فيتهمان "جون" صراحة، بأنه يثير الفوضى في المطبخ، التي عليه إزاحتها على الفور، وليس بعد أن يتمتع بالشراب والطعام في الحديقة أو في صومعته الخفية، ويتهمانني بتدليله المفرط، شأني شأن أي أم شرقية. الكل هنا يحتاجون إلى الكل، وينفرون من تحركات بعضهم البعض، التي قد يتخذونها ذريعة لعدم التركيز في الكتابة، وتكون مبررا لمزيد من الاحتقان على مائدة العشاء. لا حديث مع هذا الغيم الداكن وصوت الأمطار الرتيب، والأسر بداخل حجراتنا، أنسب من حديث الثورات، ومهاترات السياسة. تتشابك سيّر الثورة المصرية، والغزو الأمريكي في العراق، وممارسات بوتين القمعية في دول الاتحاد السوفيتي المنحل، ويكون زعيم المعارضة، هو "نيل" الإنجليزي، بصفته "معارض" قديم، ومتعاطف حديث مع حركة "احتلوا وول ستريت"، التي تدعو إلى تحويل شارع وول ستريت إلى ميدان تحرير ربيع عربي دائم. العجيب أن "نيل" يقوم بعمل مايسترو لأوركسترا عالمية غير مدربة، فيشير بعصاه إلى هذه الناحية فتصطخب الآلات، ثم يسكتها، ويرفع يده الناحية الأخرى، فترتفع حناجر الجوقة بأصوات قبيحة، ويتفق الجميع على إحداث ذلك النشاز المتناغم، الذي يشبه "الفوضى الخلاقة". جُمل تتداخل وبعضها البعض، يتخللها مضغ الطعام ورنين الشوك والملاعق. يقول "جون" الأمريكي إنه لا يعرف عن الثورة المصرية سوى إن الشباب هم من قاموا بها، ويقول إنه لم يكن موافقا على غزو أمريكا للعراق، فاعتبره والده خائنا للوطن، لأنه خالف ولو معنويا رأي الرئيس. لا تهم السياسة أو الدين "كاترينا"، فيطفح تذمرها من رسالة أتتها

منذ قليل، مفادها أن أهل الرسام البولندي يهددون بأنهم سيرفعون قضية ضدها، لأنه نمى إلى علمهم أنها ستعري تاريخه الشخصي، وسيطالبون بتعويض مادي كبير، فتصب مزيدا من الشراب، وتتساءل لماذا تلاحقها العثرات مع كل بصيص نجاح؟ يهاجمها "نيل": "ولماذا يُعرّف البشر أنفسهم بصدق، حين يعددون ما ينقصهم فقط..مثلما تفعلين الآن؟" كنت في حوار جانبي مع "جون"، أشرح له بأني أؤمن بنظرية المؤامرة، فتحول سعار "نيل" ناحيتي وقال: أنتم تكرهون الغرب، وحين أشاهد نشرات أخباركم أجدكم تطعنون بعضكم البعض. " ثم التفت إلى "أولجا"، وأضاف: "تماما مثل رئيسك "بوتين"، المتسبب في كل مشكلات ما كان يدعى الاتحاد السوفييتي". قلت وسط صفير العاصفة التي اشتدت بالخارج: "نعم أعتقد بنظرية المؤامرة، ولولا تدخل الغرب في شؤوننا، ما انقلبنا على بعضنا البعض". حل صمت مفاجئ، حين التفتنا جميعا خارج المطعم الزجاجي، لنشاهد المظلة الملونة التي كانت تلهمني أثناء الكتابة النهارية، وهي تطير عاليا في الهواء، وتنقلب فوق منضدة الحديقة التي كنت أكتب عليها، لتصير مثل رمح، قاعدته من القماش العريض الممزق، ورأسه حربة قوية تتجه إلى السماء.

اجتمعنا ونحن نتزاحم في المطبخ، وظهورنا لبعضنا البعض، كلٌّ يحاول أن يعد لنفسه مشروبا دافئا، سيأخذه معه إلى غرفته، ليكون أنيس الليل البارد الطويل، ونحن نرسل إجابة السؤال الذي من المفترض أن نجيب عليه إلكترونيا، ليضاف إلى سيَرنا الذاتية الخاصة بالقصر، "لماذا نكتب؟".

بينما كنت أحاول أن أشق لجسدي مخرجا من باب المطبخ، وفي يدي كوب النعناع الساخن، لمحت شبحا يتحرك في حجرة السفرة التي تعرض فيها الكتب، وسمعت أزيز الخشب تحت أقدام زوج "ناتالي" مديرة القصر، حيث كان يعيد ترتيب المطبوعات على المنضدة، بعد وصول شحنات جديدة،

ولأكتشف من بعض الكلمات حولي أنه المسئول عن رص الكتب المعروضة. كانت قصتي القصيرة عن الخوف تقبع منزوية بطرف المنضدة، بعيدا عن كتابي "نيل" الهائلين، اللذان كنت أظن أن "نيل" ذاته هو من قام بوضعهما على جانبي أقصوصتي في وضع الاحتضان، في ذلك الصباح البعيد.

لماذا حقا أكتب؟ هل لي قضية كبرى تشغلني؟ هل أمتلك أسلوبا يغذي وجدان القارئ..أي قارئ، فأقول إني من أنصار الفن للفن مثلا؟ هل التقلب فوق فراش "نابوكوف"، والتمشي فوق أثر خطوات "هيمنجواي" و"كامو" و"جونتر جراس" و"فوكنر"، الذين عاشوا أياما لا تنسى في هذا القصر، "منحة " فعلية؟ هل منحهم الخوض في دروب الكتابة النهاية السعيدة كما يحدث في الروايات القديمة؟ هل رافقتهم جائزة نوبل حتى اللحظات الأخيرة، ومنعت خواتيم حيواتهم الدرامية؟ هل أود أن أصير مثل "إرنست همنجواي" الذي كتب "الشمس تشرق أيضا"، ثم وضع بندقيته المفضلة في فمه، وضغط على الزناد وفجّر دماغه؟ أم "ألبير كامو" الذي مجّد عبثية الحياة، وانقلبت به السيارة، وودّع العالم وهو في منتصف أربعينياته؟ أم أريد أن يطولني قلق نابوكوف الذي أتململ فوق فراشه الآن، فتتملكني نزعته في إتلاف أعماله، مثلما هَمَّ بأن يحرق روايته الأشهر "لوليتا"، وأوصى بإحراق مخطوط روايته "لورا الأصلية"؟ وأولئك الغرباء المحيطين بي من كل جانب، والذين أشعر برهبة وإجلال حين أشاهد أعمالهم الضخمة، المستقرة فوق منضدة السفرة، هل أرشدتهم تلك الأمجاد إلى طريق السعادة، أم سينتهي بي الحال مثل "كاترينا" البولندية، التي تقيس حياتها بقدر ما ينقصها، وتصب خيباتها وتذمرها في كؤوسها، أم "نيل" الإنجليزي، الذي يقول أن الكاتب غير مكرّم في بلده، وإنه يظل يستعمل سلم الخدم حتى يحقق ثروة طائلة، وإنه لا يشعر بمكانته إلا حين يكون في فرنسا، أم "جون " الأمريكي، الذي هجر بيتا مستقرا وزوجة محبة، ليكتب رواية طويلة لا يجد الجرأة أو الوقت لكتابتها في

موطنه الأصلي، فيكتشف أن مكانه لم يكن بين تلك الأسرة في الأساس، وسيعود إليهم مثل غريب، حتى بعد أن سنحت له الفرصة هاهنا للتعرف على الله، أم أنتظر لسنوات سبعين حتى أتحد بروح محبة، وتدب في أوصالي الحياة، مثلما قابلت "أولجا" الروسية حبها المفتقد هنا، بعد أن تسلل العمر من بين أصابعها، لتطولها هي أيضا لعنة الكاتب الذي تتقلب الآن في غرفته بالدور الأرضي، والمدموغ بابها باسمه: "ويليام فوكنر"، حين قال: "كلنا فشلنا في تحقيق حلمنا بالكمال، ولهذا ألوم الجميع في تحقيق المستحيل"؟!!

جسدي في حالة تحليق دائري، يبدأ من نقطة تقارب الأرض، وكلما ارتفعت، اتسعت، وصارت هلاما شفافا، لا تدركه الأبصار، لكن تمتلئ به الروح. الكنيسة الضخمة، أحجارُها عتيقة، وقبابُها قوطية مدبّبة، وبابُها الضيق يُفضي إلى الداخل المُضاء بثريات ضخمة، وحفل الترانيم على وشك البدء. تدعوني الراهبة التي تشبه هدى عاملة الباديكير إلى الداخل، فأجلس وأستمتع بالروحانية المنغمة. تزورني الراهبة في بيت الكاتبة الكبيرة، وتخلع رداء رأسها، لأكتشف أنها صديقة "صاصا" قريبة مدام أميرة، المحامية التي كتبت قصتها في الجيمنازيوم، ثم تأتي داليا الفنانة التشكيلية، وترسم بفرشاتها أشعة شمس، تتركز بقوة محاولة اختراق عيني، فأضع كفي على وجهي، وأفتح عيني في بطء، لأكتشف أني أغادر هذا الحلم المزدحم، وبأن هناك خيوط دافئة في الواقع، تظهر على استحياء من بين ثغرات تشق بها السحب الرمادية، التي تتكاثف خارج نافذتي، وعلى حافة النافذة عصفوران يتناجيان بزقزقة مألوفة، تعلن ميلاد يوم مطرز بشمس مفتقدة منذ أيام ستة، أدى انحباسها خلف السحب واحتجابي بداخل حجرتي، إلى إنجازي كما لا بأس به من كتابة فصول الجيمنازيوم.

من خلف باب غرفتي الموصد، تتحد تحية الصباح بلغات شتى، ونكهة البن القوية، وقرع خفيف على بابي، مصحوبا بصوت "نيل" يدعوني لتناول قهوة جماعية، احتفاء بعودة الشمس.

لم يكن هذا الاجتماع الصباحي الاستثنائي، سوى بداية لمزيد من جلسات أسرية، ستبدأ بعد العشاء وتمتد ساعة واحدة فقط، استجديتها منهم، بعد أن عرضت رشوة بأن أقوم بإعداد مشروبات ما بعد العشاء واحتسائها في الصالون، الشاي الإنجليزي، واليانسون، والأعشاب والنعناع، حيث تختار أولجا، الأكبر سنا، القناة الفضائية الروسية في التلفاز، ويتبادل "نيل" و"جون" سماع أغنيات الروك على هواتفهم، بينما أحاول امتصاص أي قدر من دفء منزلي غائب. تعافر "كاترينا" مع نزلة برد، ستمنعها من الانضمام إلينا غدا في رحلة قرر نيل أن يأخذنا إليها، لزيارة بعض الأماكن الأثرية، لمكافأة أنفسنا على المنجز الأسبوعي، الذي تم بفضل غياب الشمس. لكن "كاترينا" تنطبق عليها الحكمة الصوفية بأن المزكوم هو الذي لا يشم طيب الأنفاس الرحمانية، ولا يجد عرف التجلي الإلهي في الأكوان. وتعاطفا ومحبة، قرر "جون" أن يبقى معها، لمداواتها والسهر عليها، ولحداثة تجربته، لن يعرف "جون" أن "كاترينا" ستظل دائما وأبدا مثل عليل لا يفارقه السقم، وستظل مثل بطل قصة "اليهودي والعصفور" التي قرأتها ذات يوم، وما كنت أجرؤ على سردها عليهم، كحدوته قبل النوم، إلا بعدما أشرقت تجليات الشمس علينا صباح اليوم بعد طول غياب وهدهدت النفوس والأرواح المرتعشة:

كان هناك عصفور جميل يقف فوق شجرة ويغرد بصوت جميل، ومر على هذا العصفور أشخاص بجنسيات مختلفة، فماذا سيفعل كل منهم؟

الإنجليزي: يطلق النار عليه.

الأمريكي: يصنع فيلما عن حياة العصفور، وعن جميع الأشخاص الذين مروا به.

المصري: يقلد الفيلم الأمريكي، ويقوم الممثل المصري بتمثيل دور جميع الأشخاص الذين مروا على هذا العصفور.

السوري: ينتج مسلسلا عن العصفور وقصة أجداده، ويقوم بوضع اسقاطات تاريخية على حياة هذا العصفور العربي، وتاريخه ونضاله القومي.

السوداني: ينام على أنغام صوت العصفور.

اليهودي: يبدأ بالبكاء، ثم يقوم بالمطالبة بملكية هذا العصفور، باعتباره من نسل هدهد سليمان عليه السلام. ويطالب بنسبة من أرباح الفيلم الأمريكي والمصري، ويطالب بمحاسبة سوريا على تشويه تاريخ العصفور اليهودي، ويتهمها بالإرهاب، ويستغل نوم السوداني، ليستوطن في دارفور.

أن تغرق في قمم جبلية، وتحترق في ماء بحيرة، وتدفئك ريح باردة، فاعلم أنك قد عشقت، أو أنك تسعى إلى حلم يليق بقصة حب شفيفة، تعينك على الترفع عن صخب أشياء حدثت بالفعل، وتدونها في فصول مزعجة، تلوث روحك، في رواية أجبرت على كتابتها. يسري الحلم المنشود مع سطوع الشمس، أنتقل فيه من مرحلة السبات إلى حالة الكشف، فأرى بجلاء ومضات من عصور وسطى، وأشم روائح افتقدتها، وأسمع أصواتا آتية من بعيد، لكني أحسها بل وألمسها في ألفة، أثناء الرحلة التي يصطحبني فيها "نيل" إلى مدينة "لوزان" و"مونترو"، في باخرة أنيقة تفنن في صنعها عمال مهرة من عصر مضى.

قررنا أن ننسى أننا أدباء، جئنا في مهمة للكتابة، وأن نتخيل أننا أثرياء ارتحلنا لقضاء العطلة الصيفية بين ربوع جبال الألب في سويسرا. فالحلم الممتد الذي سنعايشه جميعا لشهر كامل، في هذا المنفى الاختياري، باقٍ منه أسبوع

واحد وينتهي. واستعدادا لهذه النزهة التاريخية، اشتريت قبعة صيفية بيضاء كبيرة، على جانبها زهرة متفتحة، وملابس وردية فاقع لونها، احتفاء بوضعنا المتخيل، والشمس المشتهاة. إختار "نيل" مقها أنيقا بجوار المرفأ في لوزان، لكي ننتظر فيه السفينة التي ستقلنا إلى جزيرة صخرية، عليها قلعة "شيون"، التي لم أسمع بها من قبل، إلا أن "نيل" قال أنها من العصور الوسطى، وكان سمير قد نصحنا أن لا تفوتنا زيارتها. اخترت مقهى أقل أناقة وأرخص سعرا، وقلت له: "أنا لست مترفعة" كما تظن، لأمحو من رأسه فكرة كوّنها عني، حين انتقدتُ نساء البلدة التي نعيش بجوارها، لأنهن لا يرتدين الألوان الزاهية، ولا يحتفين بالحياة كما يليق بالجمال المحيط، وحين جلست في استرخاء بجوار سمير في سيارته السوداء الفارهة حين أخذنا إلى لوزان في ذلك اليوم البعيد. في ومضات تالية، أرى ظلي يتبع "نيل" إلى بازار للتذكارات، نشتري كروت بوستال، بها جبال ملونة ذات قمم بيضاء، وبحيرة كبيرة، وجزيرة تحتضن قلعة. أغمض عيني والتقط نفسا عميقا، حين يرتفع صفير السفينة، معلنا وصولها، واستعدادها لاحتوائنا، أنا وهو و"أولجا"، التي لا تشاركنا الحوارات، وتمسك بقلمها الصغير، وتدون أشعارا في مفكرتها. ركبنا على السطح المفتوح الأرخص سعرا، لنمتص الشمس والهواء وعبَق الأمكنة والجبال والمدن التي سنمر عليها. تصعد طفلة في الخامسة، ترتدي قبعة صغيرة وفستانا مرقطا، فيقول: "هذه الفتاة في مثل سنك"، مع أنه ما كان ليسخر من الطفلة الكامنة بداخلي، لو نظر في المرآة وراقب لمعة عينيه حين صفرتِ السفينة وأطلقت بخارها، وصعدنا لنشاهد المحركات الحديدية والنحاسية اللامعة، التي تحدث صوتا هائلا وهي تجرف مياه بحيرة "ليما".

"تايتانيك".. كلمة قلناها معا، وتداخلت حروفها على شفاهنا، لنفوت من حلم إلى فيلم، إلى الـ"لا بل ايبوك"، كما يسميه الفرنسيون، أو "الزمن

الجميل"، كما ترجمناها، هذا التعبير الذي نردده ولا نعرف جذوره. يمتزج صوت الأمواج والمحركات، بصوت "حشرجة" ميكروفون، ثم يهيمن صوت مرشد سياحي ليرحب بالركاب، ويسحبني في دوامات زمنية تبدأ في فرنسا وبلجيكا، وتمر ببيت الكاتبة الكبيرة، "بداية الألفي"، وتصب في عقلي الباطن.

يقول المرشد السياحي أننا الآن نمخر عباب البحيرة على واحدة من أروع سفن أسطول "الزمن الجميل"، الذي تم بناؤه في العام ألف وتسعمائة وواحد، ليكون بمثابة متحفا عائما، يطفو بعنف أو برقة، ليربط بين مدن سويسرا التي يطل بعضها على حافة فرنسا. "لا بل إيبوك"..كلمة ترامت إلى مسامعي كثيرا في بيت الكاتبة، تارة تقولها على الهاتف، وتارة تشرح بها لوحة معلقة في الصالون أو في غرفة مكتبها، وتارة تهمس بها وهي تحتضن معطفا من الفراء، أو رداء من الستان والدانتيل، وتنظر إلى نفسها بإعجاب في المرآة، وهي ترتديه، أو حين تستمع إلى موسيقى أوبرالية على الجراموفون الذي يزين آخر ركن في الصالة الفسيحة، ثم تردد الكلمة نفسها، حين يثني ضيوفها على طاقم السفرة الفضي الذي يتناولون به طعامهم، بينما أراقب كخيال غير مرئي من بعيد، وأتمنى لو كنت جزءا أصيلا من مقتنياتها، وجديرا بإعجاب وثناء ضيوفها. زمان الفرنسيون الجميل، تَذكّرَوهُ بعد أن تعرضوا لأهوال الحرب العالمية الأولى فعرفوا قيمته، وزمني الجميل أطفو فوقه الآن، كالسائرة نياما، مخلفة ورائي أهوال تشابك بالحجارة والخرطوش، وغاز يسيّل الدموع الحارقة، وتكدسات بشرية تسد مدخل عمارتنا، وتجبرنا على غلق منافذ التنفس والتهوية.

لم تكن الجزيرة الصغيرة التي نرسو بجوارها الآن، مجرد قطعة صخرية من اليابس نحتتها يد الله على طرف البحيرة، بل بؤرة فريدة اكتشفها الإنسان في منتصف القرن الثاني عشر، ليشيد عليها قلعة "شيون"، ولتكون مقرا لسلالات ملكية، تنتقل من أسرة إلى أخرى بالمعاهدات والاتفاقات. قال "نيل": "اللورد

بايرن"، فظننته رجلا ثريا قام ببناء القلعة، وليس الشاعر الإنجليزي الذي ألهمته هذه القلعة قصيدة "سجين شيون"، بعدما استُخدمت كسجن للتعذيب والقتل، وسُجن في قبوها راهب وسياسي من جنيف لأعوام ستة، في القرن السادس عشر.

امتنعت "أولجا" عن قطع تذكرة الدخول، ورأت أنها غالية السعر، فالإثنتى عشرة يورو لا تستحق أن تدفعها، لتعايش مرة أخرى ذكريات تجمعها بزوج راحل، لم تستمتع كثيرا، وهي تتجول معه كسياح داخل القلعة نفسها منذ سنوات بعيدة، وآثرت عدم الدخول، لتشتري بعض التذكارات لأحفادها من البازارات السياحية على الجانب الآخر من الطريق. ظنت "أولجا" أنني و"نيل"سنمر مرور الكرام على غرفات الدور الأول، مثلما فعلت هي وزوجها، وسنقابلها بعد نصف ساعة على الأكثر، ولم تكن تدري أننا سنذوب في الداخل، منذ أن خطف قلبينا البيانو الأسود المعلق في الهواء، بواسطة رافعة ضخمة وحبال سميكة، وننتوي أن نطمئن على سلامته حتى يستقر داخل القاعة الأثرية، التي جلسنا متجاورين بداخلها، لنلتقط أنفاسنا اللاهثة خوفا على القطعة الموسيقية الثمينة، ولندرك معا، أننا للمرة الأولى نستنشق رائحة قوية للبحر والأحجار الرطبة وللتاريخ. يسري بداخلنا الحلم بالترحال إلى الخلف، فتشدنا معظم غرفات المائة وخمسة وخمسون غرفة بالقلعة، نغذي رئاتنا فيها بعبق اليود وبقايا روائح خشب المدافئ العتيقة، التي تنشر الأمان في أجساد الملوك والحكام في الغرفات العلوية، بينما يلقى كل من يقول لهم "لا"، مصيرا مأسويا، وهم مكبلون بالسلاسل والجنازير في غرفات القبو. على المدخل لافتة مكتوب عليها "إننا نقدر للزائرين، لو تحدثوا بهمس، وألا يستخدموا الهواتف". لم يكن معي هاتف بالأساس، وبقي أن أتحدث بهمس، وأنا أنتقل عبر عصور ثلاثة، بواسطة سلالم خشبية، تكاد تتفتت تحت أقدمنا، ودهاليز ضيقة، يجبرنا سقفها المنخفض على الانحناء، وليعترف "نيل" أنه يعاني من

فوبيا الأماكن الضيقة، ولايدري كيف تجتاحه تلك السعادة، وهو يجاورني في تلك الخنادق، بدلا من أن يموت اختناقا ورعبا. يمتلئ "نيل" بشجاعة ونبل فرسان العصور الوسطى، فيتقدمني نحو قبو التعذيب. أكاد أرى الأجساد التي تنزف منها دماء السياط، والأقدام المكبلة بالأصفاد، ولوعة الوجوه المعذبة التي تشبه الملامح التي شكلتها آلام المسيح، إلا أني كعادتي الغريبة، تتلبسني حالة رومانسية، حين أتخيل أن قصص حب خالدة تمت بين تلك الأروقة الحجرية، وعادة ما يكون الحبيب فيها فارسا استثنائيا. أنجذب نحو الطاقة الوحيدة في القبو، المطلة على البحيرة، والمنفتحة على مشهد من مشاهد الجنة، ممزوجا بروائحها، بحر وجبال وأزهار، وسفن من أسطول أنيق، يلوّح لي منه سُيّاحٌ من بلاد شتّى، ويبتسمون، فأخرج ذراعي بالكاد من بين القضبان الصدئة، لألوّح لهم مثل أسير يأتنس بعبورهم الخاطف.

سأل الحراس المسجون

هل أنت مقيد على حُكم، أم معتقلا سياسيا

رد.. وما الفارق

إن كانت باليد أغلال، والقلب معلق بالحرية؟..

قصيدة بدائية، ألهمني إياها القبو، فوجدتني مثل "أولجا" أخرج قلما وورقة لأدونها، ولأعترف لـ"نيل"، الذي نشر ديوانا كاملا، أنها المرة الأولى التي يخرج من قلبي فيها الشعر. قال "نيل" إن هذه القلعة ألهمت جان جاك روسو، وفيكتور هوجو، واللورد بايرن، صاحب القصيدة الأشهر، ليقول عنه روسو "هو الذي ألقى السحر فوق العاصفة، واعتصر من الويل بلاغة فياضة". أكثر من ساعتين نصير فيهما جزءا حقيقيا من التاريخ، فأحس

وأبكي وأفرح وأنثر الكلمات، لكنك كزائر متفرج، تمتاز عن العائش الأصلي في الأحداث، بأنك تعرف ما سيحدث لعصور تالية، مثل عراف ماهر، أو إله للتنبؤ.

ما لم يدركه عرافنا الماهر، هو أن "أولجا" تبكي الآن في حالة غيظ شديدة، ليس لأننا انجرفنا من عصر إلى عصر، ونسيناها تماما، بل لأنها تعرضت لحادث سطو، حين وضعت حقيبتها إلى جوارها، لتتسلى بالتفرج على ما أحضرته لأحفادها، ثم التفتت بعد لحظة، لتجد أن الحقيبةالتي بها كيس نقودها قد اختفت تماما. لم تشعر "أولجا" بالملل أثناء غيابنا، فلقد قضت تلك الفترة في نقطة شرطة السياحة، وفي محاولة التعرف على صور المشتبه فيهم. ربما انتابها قليل من الندم، لأنها استكثرت الاثنتي عشرة يورو رسم دخول القلعة، لتفقد كلَ ما بحوزتها من نقود سائلة حتى آخر الرحلة. لم تكن روح الفارس النبيل قد غادرت جسد "نيل" بعد، فمنحها كمّا من الأموال، التي لا يمتلك الكثير منها أصلا، ودفع لها تذكرة القطار الذي سيقلنا إلى "مونترو"، مدينة السحر والجمال، التي استقر في أجمل فنادقها، الشخص الذي أنام كل ليلة على نفس فراشه، وأقرأ اسمه على الباب، كلما دخلت إلى غرفتي؛"فلاديمير نابوكوف".

عرفت بعد أن كتبت القصيدة منذ قليل، معنى ما كانت تقوله الكاتبة الكبيرة، إنه لا خير في نزهة أو حلم أو ترحال، لا ينتج أدبا، وإنك لتذهب إلى أبعد نقطة في الكرة الأرضية، حتى تعرف أن البشر جميعا مربوطون في خيط طويل، ملفوف على بكرة، حتى يتشابكون ويتلاصقون، مهما زاد طول الخيط.

الكاتبة "بداية الألفي" سلمتني بكرة الخيوط المتشابكة، والقصص التي تورطت في أحداثها غير المترابطة، لتنعم هي بسلام ربيع العمر، مع رفيق روحها، على شاطئ بحر الإسكندرية، مثلما خططت هي وهو، منذ أن كانا صغيرين، وتعاهدا على أن يتقاعدا سويا، لو فرقتهما ظروف قهرية وحرمتهما من حياة زوجية طبيعية. أي خيط سيربط بين جان جاك روسو، وبين هدى عاملة

البادكير، و"نيل" الإنجليزي، ومدام أمينة صاحبة الجيمنازيوم، واللورد بايرن، و"صاصا" قريبة مدام أميرة، وقلعة "شيون" وشارع محمد محمود، و"ارنست همنجواي" ومدام "حنان الإخشيد" صاحبة بيت الدعارة، الذي هربت إليه هدى؟ أشعر بخيط البكرة يلتف حول رقبتي ويسحبني إلى أسفل، فيدرك "نيل" أننا لم نتناول أية مشروبات منذ الصباح الباكر، ونرتمي أنا وهو وأولجا على مقاعد أقرب مقهى على الممشى الشهير الذي يتوسط البحيرة والمنطقة الجبلية في مدينة "مونترو"، وبينما كنت أرتشف المانجو المثلجة، وأنا أراقب روعة الطيور التي تتراقص بأجنحتها قريبا من سطح البحيرة، وتتهادى معها روحي في إفاقة تدريجية من الدوران الذي انتابني بسبب نقص السكريات.

دار حوار هامس بين "أولجا" و"نيل". أشارت له بطرف عينها ناحية امرأة عربية ترتدي نقابا اسود غطيس، به اتساخ على حرفه، من أثر مسحه لأسفلت الطريق، ولا يتواءم والمشهد الملون الرائق، يجاورها زوجها بجلبابه الأبيض، الذي يكاد ينفتق من المنتصف بسبب ضخامة بطنه، وابناهما اللذان يرتديان خليطا من نشاز الألوان والمنسوجات. استرد "نيل" روحه الساخرة بعد احتساء العصير، كما بدأت تودعه روح فارس القلعة النبيل، لتعود إلى مكانها هناك بين النفوس المعذبة. سألني وهو يشير ناحية أصحاب الجلبابين الأبيض والأسود: "هل تعتقدين أن هذه الملابس مريحة؟". على الرغم من أن نفوري من تلك الأسرة لم يقلّ عن نفور "نيل" و"أولجا"، إلا أني وجدتني أرد: "تخيل نفسك لست مضطرا كل صباح لاختيار قميص، يليق لونه ولون البنطلون والحزام والحذاء، وأنك لن تتعب في شراء ألوان وأشكال من البدل الرسمية، لتحضر بها المناسبات المختلفة، ناهيك عن قيود الكرافتة، والحزام، وأزرار كُم القميص، فبما ستشعر؟" ردّ بتلقائية: "إن أجمل أوقات يومي، هي التي ألف بها فوطة كبيرة حول وسطي، وأنا أغادر الحمام، وأشطح أحيانا،

بأنه ماذا لو كان هذا هو الزي الدائم لباقي اليوم!". سكت قليلا ثم قال: "هل تظنين أن تلك المرأة المكسوة بالسواد جاذبة للرجل؟".بقدر ما كنت أرغب في أن تغرب تلك المرأة الخيمة عن وجهي، ليعود المشهد إلى هارمونيته، وتأخذ طفليها اللذين بدأ يسيل الآيس كريم على ملابسهما المتنافرة أساسا، صعد صوت مني يرد عليه: "تقولون عندكم عن المرأة ذات الملابس الكاشفة جدا، إنها لم تترك شيئا للتخيل، فماذا تظن في امرأة تترك لخيالك الحق في أن يجمح طولا وعرضا، هل هي جاذبة بما يكفي؟". بدأ "نيل" يرصد الفتيات اللاتي يرتدين فساتين طويلة بحمالات، ويردد أنهن أكثر جاذبية ممن يرتدين الشورتات، وجمح خياله في المخبوء، الذي اخترق عقله اللاواعي، حتى انصرف تماما عن "أولجا"، وجلسنا نرصد الأجمل من كل الفتيات اللاتي مررن من أمامنا. شعرت أني أتحول من مجرد إنسانة عادية، خافت ذات ليلة "ترويع"، فكتبت عن رعبها، لأصير محتالة مندسة بين نساء الجيمنازيوم، أقنعهن بأن بيدي الشفاء، وأنا أعتصر عذاباتهن لأغذي بها روايتي المنشودة، ثم أنزلق من تلك الحالة إلى حال أكثر دناءة، فأصير مثل "صلاح" شقيق هدى، الذي يحتسي الخمر ويغتصب أخته الصغرى، ويقنع النساء بأنه ذي كرامات، حين سربتُ إلى رأس "نيل"، فكرة أن الجلباب، هو أفضل ما يكون كزي للمرأة والرجل.

قبل أن نصعد ثانية إلى القطار الذي سيأخذنا إلى بيتنا القصر، بعد أن قضينا يوما شهدنا فيه معظم ما يراه أغنى الأغنياء، اقترب مني رجل ذو لحية، ويتحدث بالفرنسية. سألني إن كنت عربية، فرددت عليه بالإيجاب. ناولني ورقة صفراء مطوية، وأشار إلى كُشك على البحيرة. جلس "نيل" بجواري، في مواجهة "أولجا"، وما أن بدأ القطار، في الاهتزاز، و"نيل" في قول كلمات تبينتها بالكاد، ليواسي بها "أولجا" على فقدها لأموالها، أخذت تردد هي الكلمات التي يواسون بها الناس في مثل هذه الأحوال، وهي راضية بما اشترته

لأحفادها، ثم أخرجت زجاجة ذهبية قصيرة وعريضة من جيبها، واحتست منها جرعتين من الفودكا وابتسمت وأخذت تستمتع بالمروج والجبال والبحيرة، التي تفوت بجوارنا، وكأنها ترجع إلى الوراء.

فتحتُ الورقة الصفراء المطوية من باب الفضول وبدأتُ في قراءة حروفها العربية، المكتوبة بخط نسخ جميل: " عزيزي السائح العربي الكريم:

"يا لها من فكرة جيدة أن تأتي لقضاء بعض الوقت في مونترو. إننا نتساءل إن كان عندك خلفية عن مدينتنا التي تتميز بسحر وجمال طبيعتها؟ هل تعلم أن عظماء التاريخ قد مروا بمدينتنا، والبعض مكث بها لوقت طويل، حتى أن بعض هؤلاء العظماء، أوصوا بان ترقد أجسادهم في هذا البلد الذي أحبوه كثيرا؟"

سألني "نيل" عن المكتوب في الورقة، فقلت له إنها مجرد دعاية سياحية لمدينة "مونترو". قال: هل تعرفين أنك في كل مدينة، تعبثين بجزء من عقلي، حتى أظن أنني بعد زيارة بضعة مدن أخرى معك، سأكون قد بدلت كامل معتقداتي؟ صمتت خجلا، وافتعلت دلالا ليعينني على عدم الرد، فطأطأت رأسي، وعاودت قراءة باقي المكتوب في الورقة الصفراء المطوية بين أصابعي.

" ولكن عزيزي، ليس المهم أن يكون مكان محدد لدفن الإنسان هنا أو هناك، حتى لو كان من أحسن الأماكن جمالا في العالم..ولكن النقطة المهمة عزيزي القارئ، أن يكون اسمك مكتوبا في سِفر الحياة الخالد، في سفر الخالق الأحد، الذي أرسل المسيح عيسى الذي كل من يؤمن به - لا يأتي للموت يقصد الموت الأدنى- ولكن تكون له الحياة إلى الأبد..هذه عزيزي كلمات من انجيل القديس يوحنا الآية السادسة عشر من الإصحاح الثالث.

قال "نيل": "هل لديكم كتبٌ تشرح مبادئ دينكم بالإنجليزية؟ وهل يمكن أن تساعديني في إيجاد نسخ مترجمة من القرآن الكريم؟ "أومأت بالموافقة، وقلت له لدينا مراجع عديدة بمكتبات شارع الأزهر، وأكملت القراءة:

"أخي، إن لم تمتلك نسخة من هذا الإنجيل الشريف، فإن كُشك الكتاب المقدس، الذي طبع الرسالة التي بين يديك الآن، يسُره أن يقدم لك نسخة كهدية مجانية من الإنجيل الطاهر. وأخيرا نتمنى لك نزهة لا تنسى في ذلك الجمال البديع، ونتمنى أيضا أن تأتي لمعرفة سلام الله الكامل الذي يفوق كل عقل. نأمل أن نراك ثانية في "مونترو"، وإلى اللقاء".

كان حلم الليلة بلا كلمات مثل كثير من الخيالات التي تمر بين أجفاني، في هذا الفراش. هي، فقط، شمس ساطعة، وسفينة، وأمواج صغيرة، وكوب مانجو، وفارس نبيل يقتحم أسوار قلعة حجرية، وقبعة بيضاء صيفية بها زهرة متفتحة، وعبق بحر وأخشاب مدفأة وبيانو معلق بأحبال في السماء.

ومع نهاية آخر تلك اللقطات البهيجة، شاهدت الرجلَ ذا الوجه المألوف، الذي صار يأتيني مؤخرا في نهايات أحلامي، وهو جالس في الركن المعتم، في مشهد بالأبيض والأسود، مثل فيلم قديم، لكنه مازال على ثباته في مراقبتي، وهو يضع ساقا فوق الساق الأخرى، متباهيا بزيه الرسمي، المكون من جلباب من الحرير، وعمة وقفطان. كنت أستشعر سخونة تأتيني من ناحيته، بينما أقوم بإلقاء القصيدة التي ألفتها صباح اليوم بلسان ثقيل، وأنا أقرأ حروفها من ورقة مطوية.. *سأل.. الحراس.. المسجون.. هل أنت.. محبو..*

كان أول ما فعلته حين نهضت من فراشي، هو أن بحثت في موقع ابن سيرين لتفسير الأحلام:

"رؤية الكتب مطوية: أخبار مخفية.. وان كانت منشورة، فهي أخبار ظاهرة.

الشاعر رجل غاو يقول مالا يفعل، والشعر قول الزور.

ومن رأى أنه يقول الشعر، ويبتغي به كسبا، فإنه يشهد بالزور.

وإن رأى أنه يقرأ قصيدة في مجلس، فإنها حكمة تميل إلى النفاق" .

"مدام حنان الإخشيد"

للجِنِّ أجنحةٌ يحلق بها فوق مقالب القمامة ويحط في أجساد الضعفاء المنهكين إن مروا بجانبها. وهدى تجاور حي الزبالين، وتمتلك جسدا صغيرا وصحة هزيلة. وعلى الرغم أن صلاح شقيق هدى الأكبر قد قرأ على رأسها، الآيات التي تسلسل الجان، وبخرها بقشر عنبر وجاوي، إلا أن ماردها الذي تلبسها رفض أن يبقى في القمقم، وظل في حالة فرار، وأخذها معه من بيت لا يحنو عليها، إلى بيت يخدعها إلى بيت يلفظها أو يضمها بخبث.

وصلت هدى إلى حي المعادي، حيث شقة مدام حنان الإخشيد، وساقيها تلتف حول بعضهما، بعد ساعتين من المشي ومحاولات تفادي طلقات الرصاص ومطاوي البلطجية والغاز المسيل للدموع، الذي ملأ الجو يوم مسيرة الأقباط، التي وجدت نفسها متورطة فيها، تحت إلحاح صديقاتها.

في الأيام الثلاثة الأولى، لم تكن الفيلا الأوربية الطراز، والمكونة من طابقين، سوى صورة مهزوزة لبيت غريب في عين هدى. إذ بمجرد دخولها إلى الصالة، هاجمتها النوبة التي تحولها من كائن متحرك، إلى كتلة ثقيلة ملقاة على الأرض، يحار في أمرها كل من يحيطون بها. حملتها فاطمة صديقتها، بمساعدة أخريات إلى غرفة البدروم ووضعنها على فراش طري، له رائحة مسحوق غسيل بالياسمين. واظبت فاطمة على إعطائها دواء الـ"سبرالكس"، بعد أن وصفه لها الطبيب، وشخّص حالتها بالصرع. يُحسِّن الدواءُ مزاجَ هدى المعتلّ ويُزيل القلق مؤقتا من قلبها، لكن جسدها يتحول إلى

إسفنجة تمتص كل الأعراض الجانبية المكتوبة في نشرة الدواء، من نعاس وصداع ورعاش، وتساقط للشعر وفقدان للشهية، واصفرار للجلد والعين. أيامٌ ثلاثة لم تشهد فيها هدى سوى أطباق الشوربة الساخنة بالليمون، والدواجن المحمرة والأرز والسلاطة الخضراء، وسكونٌ يعمّ المكان، لأن زوج مدام حنان قد وصل من السفر، وكالعادة، حسب فاطمة، حين يكون موجودا بالبيت، يسود الهدوء الذي تأمر به صاحبة البيت، إلى أن يغادر ويغيب أسبوعين أو ثلاثة. ومثل كرم الضيافة عند القبائل العربية، لم تسأل مدام حنان هدى طوال الأيام الثلاثة، عن أي شيء سوى عن صحتها وحالتها النفسية في حوارات مقتضبة، وتوصي فاطمة بالاعتناء بها جيداً. لم ترغب هدى بسؤال فاطمة عن طبيعة علاقتها بامرأة وقورة وراقية مثل مدام حنان، فهي تعرف أن لفاطمة ساقين سارحتين، يذهبان بها بعيدا ويجعلانها تهبط على أمكنة وأناس لا يخطرون لأحد على بال. واكتفت بمعرفة أن مدام حنان ستدبر لهما سكنا وعملا في الجيمنازيوم الذي تمتلكه بحي المعادي.

بعد انقضاء الأيام الثلاثة، عمّ ضجيج كعوب نسائية وضحكات ورنات محمول شقة مدام حنان، التي قيل إنها سافرت في مهمة عمل لأسبوعين، سيأتي زوجها خلالهما ويبيت في الفيلا ويتجول نصف عارٍ، ويشاهد التلفاز، وهو يحتضن فتاتين، ويمد ساقيه ويتسلى بأكل الفستق واللوز، الذي تضعه في فمه فاطمة وهي ترتدي قميص النوم.

لم تكد هدى تتحقق من معالم وجوه الوافدات إلى الفيلا حتى تتبدل، لكثرة المساحيق وباروكات الشعر التي تغير ملامحهن، وتحولهن من فتيات كاللاتي تعرفهن وتكلمهن، إلى فتيات ونساء كاللاتي تشاهدهن في الأفلام، يفتحن زجاجات الخمور ويجالسن الرجال في الكباريهات. إلا أنهن كنّ على حد قول هدي، طيبات القلب، عاملنها بـ"حِنية"، ومنهن من نصحنها بالعودة إلى بيت أهلها قبل أن يفوت الأوان.

كانت هدى تشعر بإثارة لذيذة وسط هذا الجو المفعم بالحيوية والعطور والأنوثة الصاخبة، وكأنها في حلم لطيف، تتمنى أن لا تغادره، لتستيقظ على نهار مثل نهاراتها السابقة، في عمارة الدويقة التي تضم أختها الصغرى الخرساء، وأمها شاردة العقل، وأختها الكبرى التي تفتش كيس نقودها وملابسها، وتستولي على قوت يومها من البقشيش، ثم أخويها، إبراهيم البلطجي، والشيخ صلاح الذي يفقد صوابه بعد أن يحتسي الخمر، ويطولها هي وأمها وأختها أذاه الذي يبتكر ويجدد فيه يوما بعد يوم.

شعرت هدى أن عمر الحلم الذي أدخلتها فيه فاطمة سيكون قصيرا، وأن فاطمة ذاتها هي من ستخرجها منه، حين كانت تنسلّ من فراشها بجوار هدى بالدور الأرضي، وتصعد إلى غرفة نوم مدام حنان، وتقضي الليل بطوله في حضن زوجها أثناء غيابها.

"تعالي الحقي نفسك..البت فاطمة بتنام مع جوزك"، رسالة قصيرة من محمول إحدى المترددات على البيت، جلبت مدام حنان في غير موعدها، حيث تسللت حافية إلى الدور العلوي في الخامسة فجرا، وفتحت باب غرفتها فجأة، لتجد فاطمة وزوجها يغطان في نوم هادئ، عاريين.

خمسة عشر يوما بلا عمل، وشراء كباب وحشيش وبيرة ومكسرات، كانت كفيلة بالقضاء على الألفي جنيه، التي هربت هدى وفاطمة بهما، لتبدآ حياة جديدة. ولأن مدام حنان بنت أصول كما يبدو على مظهرها، لم تطرد هدى وفاطمة إلى الشارع، بل اكتفت بإخراجهما من بيتها وإرسالهما إلى بيت مدام سحر صديقتها في حي الهرم.

لم تقض هدى وصديقتها في حوزة مدام سحر سوى يوم بليلة واحدة. اللحظات القليلة التي أمضتها بشقة مدام سحر، المكتظة بأثاث متنافر، ذكرتها

باللياي التي تستيقظ فيها منتفضة، وهي تتحسس قلبها وجسدها، بعد أن يأتيها هذا الحلم المتكرر بأنها تسير وسط عشرات الفئران والأفاعي. لذا شعرت بانعتاق كبير حين بادرتهما مدام سحر في المساء، برغبتها في الخروج وأخذهما معها، هما وفتاة من الأقزام، تقول إنها فنانة تظهر في السينما.

مدام سحر امرأة أربعينية، ترتدي عباءة سوداء مطرزة بالماس، وشريط متلألئ يتدلى من غطاء رأسها، ليخفي الندبة التي تتصدر جبهتها من أثر ضربة سكين من يد زوج سابق، يقضي فترة عقوبته في السجن حاليا. ما يهم هو أن سحر نفسها هي من وعدت هدى وفاطمة بخلاص سريع، حيث ستدبر لهما مأوى وعملا بعد لحظات.

قالت مدام سحر بضجر إن الطريق بسيارتها الصغيرة إلى العمل يستغرق عادة نصف الساعة، أما بعد إغلاق بعض الطرق بالمسيرات الاحتجاجية، أو انتشار الدبابات ولجان التفتيش ومنع العبور، تتعطل حوالي ساعتين قبل الوصول إلى المحل. لزمت هدى وفاطمة الصمت، وفهمتا أنهما لابد سيقضيان الليل في ذلك "المحل"، بعد أن ينهيا عملهما، لاحتمال إعلان حالة حظر التجول المؤقتة.

يقع المحل على بعد أمتار من فندق سميراميس، الذي تعم أرجاءه حالة من الهدوء الحذر، بعد انتهاء الاشتباكات بين الأمن وأناس يقذفون الحجارة على واجهته، ويشعلون النيران في إطارات السيارات لإبطال مفعول قنابل الغاز المسيلة للدموع. تغادر مدام سحر السيارة هي وهدى وفاطمة وفتاة السينما القزمة، وتسلم مفاتيحها للعامل الذي يركن السيارات، ليوفر لها مكانا آمنا بجوار الرصيف المحاذي لنهر النيل.

لا لافتة أو إضاءة تشير إلى طبيعة هذا البيت الخشبي ذي الطوابق الثلاثة، القابع مثل عوامات الأفلام القديمة، على حافة النهر. يستقبلهم رجل يرتدي بدلة

سوداء وبابيون أحمر ويرحب بمدام سحر وضيفاتها ويشير إلى الدور السفلي، اللائي يطأطئن الرؤوس، وهن يخطون نحوه على سلم خشبي لا يسمعن سوى أزيزه، حتى يظهر باب في آخره، عليه قلب أحمر كبير، مكتوب بداخله Happy Valentine's. ينفتح الباب في هدوء فتتلقاهنّ أغنيات أجنبية، ودبيب خطوات راقصة، وضحكات هستيرية من رجال ونساء يرتدين اللون الأحمر، وتتداخل هيئاتهن والإضاءة الحمراء والزرقاء التي ترتعش وتتقلب فوق أجسادهن.

دقٌّ منتظمٌ مثل قرع طبول الحرب يهاجم رأس هدى، والإضاءة المهتزة تجعل بصرها يزوغ لحظات، وحين تفيق وتنظر حولها على المنضدة التي جلست إليها، لا تجد فاطمة أو سحر أو فتاة السينما. الرجل ذو البدلة السوداء الذي استقبلهن بالخارج، يضع أمامها كوب عصير، وطبق مشاوي وسلطات، تلتهمها سريعا لكي تستعيد اتزانها. مثل فيلم سينما، مكون من مشاهد متقاطعة، كانت تلك الليلة. اللقطة التالية كانت لمدام سحر، بعد أن خلعت العباءة، وهي تفتح زجاجات الخمر على الموائد، وفاطمة تجلس في أريحية وأمان فوق حجر رجل بشارب كبير، وتواجه هدى بنظرة متبجحة في عينيها. أما قزمة السينما، فقد خلعت عباءتها هي الاخرى، لتظهر في فستان يغطي مؤخرتها بالكاد، ولا يستر ساقيها إلا جورب شبيكة اسود، وتملس على صدر زبون في شبق ظاهر. الوحيدتان اللاتي تبقيان أجسادهما مستورة تحت السواد، هما هدى المتلفحة بعبائتها، وامرأة بآخر الصالة تكتسي معطفا من الفراء وتحتسي البيرة في هدوء. تهدأ الموسيقى، ثم تعلو شيئا فشيئا، ومعها مزاج المرأة ذات المعطف، لتتخلص منه فجأة وتقف لتكشف عن جسد فارع الطول، تكسوه قطعة قماش حمراء، لا تزيد عن نصف متر. تتلوى المرأة بنعومة في مكانها، ثم تبرحه في خطوات أفعوانية لتتوسط ساحة الرقص. تدير هدى رأسها ناحية الرجال الذين يجلسون في المنضدة المجاورة، فتشاهد بؤبؤ أعينهم يكاد يخرج، وتعرف في تلك اللحظة أن هناك أصلا حقيقيا للتعبير الفج الذي يقول: " أن الرجل ريّل على الست"، حين يسيل لعاب

الرجال، بينما المرأة التي اقتربت منها جدا، تنام على الأرض وتحافظ على نفس إيقاعها الأفعواني الراقص. وحين تعتدل تدريجيا، وتكون أمام هدى وجها لوجه، تتبين هدى ملامحها جيدا، وتتعرف عليها مثل ذكرى من زمن قديم، على الرغم من أن الزمن الذي يفصل بينهما هو يوم واحد فقط. مدام حنان الإخشيد، التي سترتهما في بيتها لخمسة عشر يوما، راقصة ستربتيز، تخلع ملابسها في غنج ينخلع معه قلوب الرجال، وحين تصبح على وشك التعري التام، تعود إلى منضدتها في شموخ، وترتدي معطفها الثقيل، وتغادر دون أن يمسسها إصبع.

كان أول شعاع للشمس قد بدأ ينتشر في سماء القاهرة، بعد ليلة طويلة تبادل فيها الأحبة الوله والقلوب الحمراء، وتبادل فيها الأعداء القذف بالحجارة والقنابل الخانقة والرصاص الحي، وتوارت هدى وفاطمة في المقهى الذي تعمل فيه الفتاة القزمة بحي الهرم، حتى لا تبيتا في الشارع. وحين عادت هدى وفاطمة لأخذ ملابسهما من بيت مدام سحر، سمعتا السارينة العالية لعربات الشرطة، وصرخات فتيات عاريات ملفوفات بملاءات، يخرجن واحدة تلو الأخرى من شقة مدام سحر بالدور الأرضي، ويدفعهن المخبرون نحو عربة بوليس الآداب. كان يفصلهن عن هدى وفاطمة أمتار قليلة، أنقذتهن قبل دقائق من أن تلقيا المصير نفسه.

لا أنكر أني كنت أشعر بالشغف وأنا استمع لحكايات هدى عن فتيات ضللن طريقهن، رغم أني شاهدت مثلهن في عشرات الأفلام، إلا أني لم أكن أسعى لسماع نهاية الحدوتة المستهلكة، بل لبدايتها. كل تلك البيوت المشبوهة والدراما السوداء، وهدى تأخذني من حكاية إلى أخرى تشبهها، وأنا لم أعرف بعد، ما الذي كان يستحق تركها لعملها بالبيوتي سنتر، واستغاثتها بي، كي أورط نفسي معها، وننتهي نحن الاثنتين حبيستين لشقة الكاتبة الكبيرة، التي لا تخص أيامنا.

"منازل القمر: هي مداراته التي يدور فيها حول الأرض. يدور كل ليلة في أحدها لا يتخطاه، وهي ثمانية وعشرون، ولكل منها اسم معين"

بدأ العد التنازلي لأيامنا بهذا المنزل القصر بنظام دقيق وصارم، وكأنه جدول حددته ساحرة طيبة، مثل ساحرة سندريلا، ستوفر لنا أوقاتا بديعة، بشرط ألا نخل بمواعيد العودة، حتى وإن نسينا قلوبنا أو أجزاء من أرواحنا، ونحن نلهث تاركين الأمكنة. تجسدت ساحرتنا على هيئة ناتالي، مديرة القصر، تلك الفتاة النحيفة، التي تجاوزت الأربعين مثلي، ووهبت حياتها لخدمة الأدب والأدباء، وتقيم في بيت صغير ملحق بفناء القصر، أرى أنواره مضاءة من نافذتي، كل ليلة، وأتصور أشكالا مختلفة للحياة بداخله، خاصة حين يرن الهاتف في مطبخنا، وأرفع السماعة، ظنا مني أنها مكالمة من سمير، فيأتيني صوت زوج ناتالي، ويستسمحني أن أضع السماعة، ويشكرني بتأدب، لأن المكالمة تخصهم، فالهاتف موصل ببيتهم الصغير أيضا. كما كانت حياة "ناتالي" مرهونة بنجاحاتنا البسيطة أو الكبيرة، وتحقيقنا لأهداف حَلُمَ بها المالك الأصلي للقصر، حين أوصى بأن تظل قلعته تحتضن كل من يسطر كلمة أو حرفا، ليضيق المسافات بين القلوب والعقول المتنافرة في شتى بلاد الأرض. كنا نحن وغيرنا من الوافدين إلى هذا المكان الحلم، مثل كرة أرضية، توجد حولها مدارات لأقمار صغيرة، تقوم على راحتنا وإنارة أيامنا، مثل "ناتالي" نفسها، التي بدأت بهذا المكان طاهية ومديرة للمطبخ فقط، ثم والدتها، التي

ظننتها في اليوم الأول صاحبة القصر، لشدة رقيّها وأناقتها، ثم تبيّن لي أنها الطاهية أيضا. ووالد ناتالي، الذي بلغ سن التقاعد، وحتى لا يقتله الملل واليأس، صار يعمل مرشدا سياحيا لنزلاء القصر من الأدباء، يأخذهم بسيارته في رحلات قصيرة إلى "مورج" و"مونترو" و"لوزان"، ويشرح لهم المعالم الأثرية والتاريخية لممالك زالت، في مقابل أن يشعر أن حياته هو لا تزال باقية. وابن "ناتالي" الصغير، تقول إنها ما كان ينبغي أن تنجبه في سنها المتأخرة، تلك، هي وزوجها، من أتى إلى هذا المكان ذات صيف مثلنا، ليكتب رواية، فتبدلت قصة حياته، حين اشتعل الفضول في قلبه، ونظر من نافذة غرفته إلى الأنوار المضاءة ليلا بالبيت الصغير الملحق بالقصر. لابد أن خياله الخصب صوّر له أشكالا لحيوات مختلفة، خلف النوافذ والأبواب الموصدة، شأنه شأن أي كاتب، لكنه لم يتوقف عند مرحلة التخيل مثلي، وفتح باب القصر بعد أن نام الجميع، وقرع ثلاث خبطات على باب بيت ناتالي، فكانت خبطات القدر، التي حوّلت حياتها من فتاة نشطة تترفع عن قطار الزواج التقليدي، لأنها تضع عينها على هدف أكبر، وأن تصير مخرجة مسرح عالمية إلى امرأة ثقلت حركتها، لأن بطنها امتلأ بولدها الصغير، بعد تلك الليلة، فقبعت مكانها، وعكفت على خدمة النزلاء والولد، وانتظار الزوج، الذي يمضي شهور الصيف هاهنا، ويعود إلى بلده اسكتلندا، باقي شهور العام، ولا تدري إن كان الصيف المقبل سيحمله إليها أم لا. لكن هذا النظام الدقيق المحكم، كان مهددا بالتوقف، ومعه مصائر من يدورون في فلكه، فالمبلغ الذي أودعه "هانز شميت" صاحب القصر في البنك قبل عشرين سنة لم تعد أرباحه كافية ليظل هذا البيت مفتوحا، يوفر الهدوء والفخامة والإلهام، لعشرات الأدباء كل عام، يملأ لهم خزانة طعامهم بأطايب المأكولات، ويوفر لهم الطهاة والخدم والجنايني ومديرة الأعمال، ويُبقي غرفاتهم لامعة وأرضياتها براقة وأشجارهم مقصوصة ونجيلتهم مشذبة، فتختار الفراشات المزركشة والطيور حديقتهم كعش كبير، تطلق منها

زقزقاتها وأغنياتها منذ مطلع الفجر وحتى ينام الكون. وكان سر المكالمات الكثيرة التي تدور بين "ناتالي" و"سمير" هو التوتر والقلق الذي يعتري ناتالي، لو انتهت أسطورة هذا المكان، بعد سنوات عشرين من الحواديت والأحلام الملونة. وكان الحل في يد "سمير"، حين تحمس لأن يكوّن مجلس أمناء من الأثرياء من شركائه في صناعة الشوكولاتة وأصدقاء والد زوجته، ليقوموا على رعاية القصر، وبث الحياة فيه وفيمن يمدهم القصر بأسباب الحياة.

رنّ الهاتف في المطبخ، فهرعت كل من "أولجا" و"كاترينا" للرد. يتعلق قلب "أولجا" بمكالمة ستأتيها خلال الساعة من الحبيب العجوز الذي زارها منذ أسابيع، ليمر عليها ويأخذها في زيارة عائلية، ليعرفها بأولاده وأحفاده. وتنتظر "كاترينا" في لهفة، مكالمة سيتحدد خلالها قبول طلبها بالإقامة في بيت جديد لاستضافة الأدباء في أيرلندا. ظهرت ناتالي بعد دقائق، وقالت أن المتصل كان "سمير"، ويريد أن يكلمني، لأنه دعانا جميعا إلى العشاء غدا في بيته في "مونترو".

مثل سندريلا، ليلة أن أقام الأمير الحفل، تبدلت هيئتي تماما بفعل الأشباح الطيبة. فلم يكن الفستان الذي ارتديته، سوي فستان أحمر سادة، كانت الكاتبة الكبيرة قد اشترته، ثم قررت أنها لن ترتديه، فمنحته لي بكيسه وشماعته والكارت المدلى من رقبته، فزيّنتهُ بعُقد من اللؤلؤ المقلد، به دلاية صغيرة من النحاس مكتوب عليها "أنا مصرية"، وطلاء شفاه رخيص، لكن له نفس درجة نصاعة ورونق الفستان. طغت صفارات الإعجاب التي أطلقها "نيل" و"جون" على زقزقات العصافير وهديل الحمام بالحديقة، ونحن ننتظر خارج القصر لكي يمر علينا "سمير" بسيارته، ويتبعه الجميع في سيارات "ناتالي" ووالدها. لم تفكر سندريلا الأصلية في غرفات قصر الأمير ولا صالة الرقص الفسيحة ولا التحف الغالية التي تزينه. كانت تفكر، فقط، في الأمير صاحب الدعوة، وتفوقها على فتيات البلدة. أما أنا فقد انشغلت كليا بتخيل شكل وموقع بيت "سمير" على الهضبة التي تطل على

بحيرة جنيف، لا طمعا في أن أكون سيدة الدار، أو أن أفوز بمكان زوجته المسافرة، بل كي أشفي غليلي من "نيل". سألني بلهجته الساخرة، حين كنا نجلس على المقهى المطل على البحيرة في "مونترو"، إن كانت لدينا أمكنة مثل هذه في مصر، ففتحت له عشرات المواقع الالكترونية حين عدنا إلى البيت، تحتوي على صور لشرم الشيخ والغردقة والعين السُّخنة. إلا أن الغصّة التي أصابتني من تساؤل "نيل"، كان مبعثها أنه أطلق كلامه بعدما مرت من أمامنا تلك المرأة ذات النقاب المتسخ، وزوجها ذو الجلباب، اللذان أثارا سخريته هو و"أولجا".

لم يكن بيت سمير مجرد شقة أنيقة في بلدة راقية، مفروشة على الطراز الكلاسيكي الأوروبي، كما يليق برجل أعمال، وزوجة سليلة أسرة رأسمالية عريقة. هي بمثابة فيلا من دور واحد، تتوسط صالتها نافورة من الرخام ذي النقوشات الهندسية الملونة، يحيط بها شريط من إصيصات النباتات، وجلسة عربية من شلت الشمواه تتخللها صوان نحاسية لامعة. هرع الجميع نحو تلك الجلسة، مثل أطفال يلعبون الكراسي الموسيقية، غير عابئين، بالسجاد العجمي الصغير المتناثر على رخام الأرضيات والمشغولات الفضية القديمة التي تزين الحوائط، ليس عن عدم تقدير، بل لأنها صارت تدلل خلفيات أرواحهم، بعدما أسكرهم مزيج شذى البخور الهندي، ورائحة الكباب، وخلطة محشي الفلفل والباذنجان الأسود المحشو باللوز، وورق العنب. لم يلعب أي مشروب برؤوس نيل وجون وأولجا وناتالي وكاترينا، مثلما أفقدهم الكركديه المثلج صوابهم، وأتت عليهم تماما أكواب الشاي بالنعناع الأخضر، وهم يرتشفونه، ويتحدثون عن حلاوة صينية الكنافة المحشوة بالكريمة، التي أعدها الطاهي اللبناني.

كنت أذهب إلى المطبخ وأعود بالأطباق الكبيرة الممتلئة بالمأكولات الشرقية، بحركة لاشعورية مثلما كنت أفعل في بيت والدة سمير، حين كانت تستقبل ضيوفا. لكنني كنت ممتلئة هذه المرة بإحساس أني صاحبة البيت، خاصة حين

أخذت أشرح لهم مكونات وطريقة طهو المأكولات، وكأني في محاضرة في قاعة احتفالات كبرى. وحين انتقلنا إلى الحديقة، جلس "سمير" إلى يساري، يصدق على كل كلمة أقولها، ثم همس لي أنها المرة الأولى منذ عشرين عاما، التي يشعر أنه يقيم حفل عشاء مصري، وتكون المضيفة لائقة بالبيت والمأكولات. وكانت هذه هي المرة الأولى منذ أسابيع ثلاثة، التي أشعر فيها بالاشتياق لنكهات توابل شرقية، ورائحة تقلية، وشواء كباب، وكلمات كثيرة أنطقها بلسان عربي، ونكات أطلقها بلهجة مصرية. إلا أني نظرت إلى المقعد الخاوي عن يميني، والذي يحتله "نيل" دائما، في عشاءنا ببيت الأدباء، فتململت قليلا، قبل أن أتسرع وأقول ل "سمير" أني أشعر باكتمالي في هذا البيت.

"يكتمل جمال هذا المكان لأنك تزينينه". قيلت هذه الجملة بالإنجليزية، حين همس بها "نيل"، وهو يملأ المكان الفارغ عن يميني. قلت له "ليت غرفاتنا بالقصر كانت لها روائح ونكهات كالتي في هذا البيت". قال: "هناك على العشاء في قصرنا الحلم لا تهيمن على المكان سوى رائحة الياسمين التي تفوح من عطرك، ثم تمتزج بأريج الزهور الجبلية والتوابل اللاذعة، التي أرشها خلف أذني، وعند موضع النبض في راحة يدي، قبل أن أنزل من غرفتي، لألاقيك. ألا يكفيك أن تكون للبيت بقايا شذاك وعطري، حتى تشعرين بالاكتمال فيه؟".

عدت إلى سريري الوثير في غرفة "نابوكوف"، وتشمّمت معصمي وأنا أغمض عيني، فلم أستطع أن أحدد إن كانت رائحته المتزجة بنبضي، تحمل نعومة شذا الياسمين، أم قسوة عطر أريج الزهور الجبلية الذكوري، الذي التصق بكفّي، بعدما أبقاه "نيل" في كفه بضعة ثوان، وأنا أغادر سيارة ناتالي، لأصعد إلى غرفتي، و"نيل" يهمس في أذني "تصبحين على عطر".

القاهرة

القزمة

تتمتع هدى اليوم بمزاج رائق ووجه نضر من أثر النوم الذي امتد حتى ما بعد الثانية عشر ظهرا، مما يعني أنها سوف تستلم أذني بحكي ساخر، حتى وإن كانت هي أضحوكة نفسها، كما ستمسك بشعري، أو قدمي أو وجهي، لتحوله من جزء متعب يشتكي له سائر أعضاء الجسد، إلى بؤرة تشع راحة ونعومة وجمالا. تطلب مني هدى وعاء صغيرا ونظيفا، وفرشاة ماسكرا مغسولة، وزيت خروع، وزيت لوز حلو، وزيت جوز هند، وكبسولات فيتامين E. لم أجادلها واتصلت بالصيدلية لابتياع اللازم، وفي دقائق ثلاثة، كانت قد مزجت المحتويات كلها في الطبق، وعبأته في زجاجة الماسكرا الفارغة، وأمرتني مثل طبيب صارم أن أضع هذا الخليط على رموشي كل ليلة قبل النوم، ووعدتني أن ستكون لي بعد أسبوعين أهداب كثيفة وطويلة، كفيلة بأن تذيب القلوب بنظرة واحدة.

أفلتت هدى وفاطمة من فضيحة وشيكة، حين هاجم بوليس الآداب بيت مدام سحر، وهما على بعد خطوات منه، فصارتا بلا مأوى أو مال أو حتى ملابس، لكن هذا المشهد هو ما جعل فاطمة صديقة هدى ترضخ لها، في أن لا تكمل ما بدأته في الكباريه، وتجالس الرجال في مقابل حفنة نقود. لم يكن الرجوع إلى بيوت أهاليهما يسيرا، بعد ستة عشر يوما من الاختفاء، عرفت فيها هدى أن أخويها أقاما الدنيا ولم يقعداها، وأنهما ينويان أن يشربا من دمائها إن وجدوها حية. فاطمة هي من أتت لها بتلك الأخبار، بعد أن اتصلت بشقيقتها على الهاتف المحمول.

الليلة التي قضياها في مقهى الأقزام، بصحبة فتاة السينما صغيرة الحجم، التي تعاطفت معهما وأرادت لهما خلاصا من طريق سارت فيه بلا عودة، جعلتهما يستمعان بدورهما لحدوتة الفتاة، التي يستخدمها الناس جميعا كمادة للترفيه. نساء وأطفال وشبان يشيرون إليها في الطرقات، ويحدثون من يسير بجانبهم بأن "بصوا على القزمة دي". حتى الرجال الذين يمنحونها المال مقابل فتح زجاجات الويسكي في الملهى الليلي، ليسوا إلا أناسا جربوا كل طرق التسلية العادية، وصار الضجر يجعلهم يتوقون إلى الشاذ وغير المألوف، وحين يفيقون ويمارسون حياتهم الصباحية، كرجال محترمين، يتناسون ماحدث بالأمس، ويدير الواحد منهم رأسه، إن قابلته في الطريق مصادفة. حتى أمها كانت تتركها في البيت حين تقوم بزيارة عائلية، وتصطحب أخواتها البنات، تماما مثل زوجة أب سندريلا. لم تشفع لها درجاتها العالية في المدرسة أن تتلقى نظرات احترام، أو رغبة في صداقة حقيقية وممتدة من أي من زملائها، ولما ذابت كعوبها بحثا عن عمل في شركة عامة أو خاصة، يأتيها الجواب تجاهلا أو رفضا، لأنها ليست محسوبة قانونا على المعاقين. شخص واحد أحبها بصدق، لأنه كان يرى وجهها فقط من النافذة الملاصقة لنافذة غرفتها، ويشعر بروحها الشفافة وقلبها الطفولي، وحين أبدى رغبته في الزواج منها، خيّره والديه بينهما وبين أن يتمم هذه الزيجة. كان الهروب من بلدتها الصغيرة بمحافظة الغربية هو الحل. أن تترك وراءها كل ما يعكر روحها، وتأتي بكل ما ادخرته من مصروفها إلى القاهرة، حيث لكلٍّ شأنٌ يغنيه، غير أن يتوقف قليلا ويضحك أو يرفع حاجبيه اندهاشا وهو يتفرج على القزمة التي لها وجه امرأة وجسد دمية وصوت طفلة. لكن الأمر لم يختلف كثيرا، وصارت الفتاة لعبة مضحكة لكل جمهور السينما، ومشاهدي التلفاز، وزبائن المقهى، وسكيري الكباريه، في مقابل حفنة من المال وقليل من الحنان.

عادت هدى وفاطمة إلى مقهى الأقزام، الذي تتم فيه صفقات التشغيل، بعد أن عرفتهما صديقتهما الجديدة بضابط شرطة متقاعد، يمتلك مكتبا لخدمات الأمن وتوظيف الشغالات في بيوت الفنانين، وتمّ توزيعهما حسب المواصفات والشكل. ذهبت فاطمة ممتنة للعمل في بيت راقصة مغمورة، وأرسلت هدى للعمل في بيت مطرب وملحن وموزع أغنيات شبابية، وقد سعدت هدى أيضا لأنها تذوب في الألحان، وتهوى الحملقة في أغنيات الفيديو كليب، التي تُهوّن عليها طول يومها، خاصة إن انزوت في ركن من البيوتي سنتر وبين أصابعها سيجارة، أو وسط شلتها هي وفاطمة ورضا في المقهى، وفي يدها الشيشة.

"*عندك حلبة يا دكتورة؟*" سألتني هدى بلكنتها الطفولية، التي تشي بإكمالها للحدوتة في تلذذ. لم أعرف إن كان بمطبخ الكاتبة حلبة أم لا، فرددت بالنفي، واتصلت بالسوبرماركت، لأمدّ هدى بوقودها للحكي، حتى وإن كلفني ذلك بعض الخدوش والأوجاع، من جراء التجارب التي تجريها عليّ يوميا، بصفتي زبونتها الوحيدة.

"شكلك واخدة لفحة شمس يا دكتورة. هاعملك وصفة جامدة جدا لتبييض البشرة".

قامت هدى بطحن الحلبة، وأضافت إليها صفار بيضة، ومزجتهما بقوة. كانت الرائحة نفاذة وخانقة، إلا أني استجبت لأمرها بأن أجلس في وضع مستقيم، وأغلق عيني، وأرجع رأسي للوراء. أخذت هدى تغمس قطعة كبيرة من القطن في الخليط، وتمررها على وجهي ماعدا المنطقة المحيطة بالعينين. المدهش أن هدى لا تطبق أيا من تلك الوصفات على نفسها، فبشرتها ملفوحة بشمس قاسية جراء مشوارها الصباحي في عدة وسائل مواصلات، وشعرها هائش فاقد للحيوية، تكتفي بإخفائه تحت طرحة قطنية سوداء، وعيناها الواسعتان مشبعتان باحمرار دائم، وهالات داكنة، من جراء الأرق، والأعراض الجانبية لدواء الصرع. حتى قدها القليل، لا

تحاول أن تمنح نفسها طولا أو بعض هيبة بارتداء الكعب، وتكتفي بالمداومة على لبس الحذاء الكاوتشوك، فتبدو أطول قليلا من صديقتها القزمة.

لم تهاجمها النوبة الصرعية ولا مرة واحدة منذ أن تسللنا في هدوء إلى شقة الكاتبة الكبيرة، التي استخدمتها هدى أريكة للفضفضة، ومعمل تجارب ومحل تجميل خاص بها، حتى وبه زبونة واحدة، واستخدمتها أنا كوكر سري لجمع المعلومات عن أناس لا أعرفهم. صارحتني هدى بأنها توقفت عن العلاج منذ أن أتينا إلى هنا، لأن حالتها النفسية تحسنت كثيرا، وفاجأتني برغبتها في أن أكتب حكايتها، لكي يتسلى الناس ويستفيدون من تجربتها التي تراها ثرية وتستحق النشر، ومازلت لا أرى فيها شيئا يزيد عن ما نشاهده في أفلام العشوائيات والمهمشين. تنفستُ الصعداء وأنا أتخفف من عبء خيانة الأمانة، وكتابة حياتها من خلف ظهرها، وقلت لها أني أوافق، شرط أن نقتسم أي خليط ستخترعه لفرد الشعر أو تكثيف الرموش أو تنعيم البشرة. وحين هممت بالقيام لآتي بقلم وورقة لأدون بشجاعة ما ستقوله هدى، أمرتني بالبقاء في مكاني، وقالت لي بأن البيض سيشد وجهي، وسيتثبت على وضع واحد مثل تمثال الشمع، ولن أتمكن من الكتابة أو الحركة الآن، والأفضل أن أصمت وأستمع.

"عارفة يافندم؟ أنا فرحت قوي أما قالولي انني هاشتغل ف بيت حسين عامر. افتكرت إنه هيقعد يغنيلي في البيت، ويجيب أصحابه الفنانين وكده. بس هو أسبوع اللي قعدته هناك، ماشفتهوش فيه غير مرة واحدة قبل ما يسافر هو المدام بتاعته والولاد. وقعدت أنا وحماته وشنا ف وش بعض. أول مرة عيني وقعت عليها، كنت نايمة ف اوضة الشغالة، ولقيت واحدة فتحت عليا الباب والشباك، وقالتلي صباح الخير يا ست هدى هانم. تحبي أجيبلك الفطارف السرير؟ هو حضرتك بتحبي تصحي الساعة كام؟ قلتلها على عشرة ونص كدة. والله يافندم كنت فاكراها بتسألني بجد مش بتتريق عليا. وبعدين شخطت فيا

وقالت لي، ايه ايديكي دي؟ دي ضوافر واحدة بتشتغل ف البيوت؟ أصل البت رضا كانت لسة معلماني أعمل ضوافري فرنش. قلتلها أيوة، أنا بقالي خمس سنين باشتغل في البيوت، وأنا أصلا مرات أخويا بتتشال وتتهبد مني عشان باسيب الدنيا تتهد وأقعد أتفرج على غيات الحمام وأسمع عبد الحليم. المهم..الست حماة المطرب قالتلي تعالي شيلي المرتبة دي، وحطيها ف وسط سور البلكونة. مقدرتش أظبطها والله يافندم، ولسة باطمن ان ضوافري ماتكسرتش، لقيت المرتبة مش قدامي، وسمعت صوت كأنه زلزال وناس بتصرخ وتلعن في الشارع. أصل البيت كان تحته كافيه، والمرتبة نزلت على دماغ الزباين والفناجين والشيشة وكانت هتقوم حريقة في المكان. بتضحكي على إيه يافندم؟ آه والله العظيم الكلام ده حصل. ده غير الهدوم اللي بوظتها في الغسالة وبوظت الغسالة كمان. أصلي حطيت صابون سايل من بتاع غسيل المواعين ف الغسالة الفول أوتوماتيك. وأنا هاعرف منين يافندم؟ المهم الحاجة حماة المطرب كلمت مكتب المخدماتي اللي فاتحه الظابط، وقالتله تعال خد المصيبة دي من هنا. قصدها عليا أنا يافندم. ف الوقت ده كانت فاطمة بتتصل بأهلها وقالتلهم ان احنا بنشتغل تبع الظابط، وأهلي استحلفوا ييجوا يدبحوه لو لاقوني عنده، بس هما لما طبوا على المكتب لقوا فاطمة بس، وخدوها ع البيت وماعملوش فيها حاجة، عشان تربي بنتها اللي كانت سايباها لأمها وأبوها وفرحانة بعيشة الشارع. الظابط أما عرف إن أخويا بلطجي، خدني في عربيته وخفاني ف شقة كدة تبعه أسبوعين كاملين. الشقة كان فيها فيران وكنت خايفة قوي. قالي لو طلعتي أي صوت، هاعمل فيكي حاجات وحشة وأرميكي عريانة ف الشارع. لحد ماف يوم جاله واحد صاحبه، وكنت طالعة أنشر الغسيل، فشفت واحد بتاع سمك تحت البيت. قلتله تحب أعمللك سمك؟ هو وواصحبه عجبتهم الفكرة، وكان إطمأن إني مش ممكن هرجع لإخواتي أحسن يموتوني. أخدت منه خمسين جنيه عشان أجيب بيهم السمك. مفتاح الشقة

كان ف الباب. سحبته بالراحة وقفلت عليه من برة ورميت المفتاح تحت عربية. ساعة ماشفت الشارع ولقيت ناس بتشتري فول، وستات ماسكة عيالها ف إيديها، وتلاميذ رايحين على مدارسهم، قلت "نار اخواتي ولا جنة الشوارع". وكلمت أختي الكبيرة في التليفون وقلتلها أنا عايزة أرجع البيت. قالتلي اخواتك قالوا هيبعتوا يجيبوا أعمامك من الصعيد، وهنجيب دكتورة تكشف عليكي، ولو لاقينيكي مش بنت بنوت، هنموتك ونتاويكي في البلد. الدكتورة اللي جابوها كشفت عليا، وقالتلهم أنى صاغ سليم، ورغم كدة، صلاح وإبراهيم اخواتي مارحمونيش، وهات يا ضرب فيا بالخرطوم، ولسعوني بالنار، ومارضيوش يرجعوني الشغل عند مدام أمينة. وقالولي: مش انتي بتحبي غية الحمام؟ خليكي قاعدة جنبها. ست شهور يافندم وانا محبوسة ف الأوضة اللي فوق السطوح..بس اللي ماعملتهوش ف الشارع أو ف الكباريه أو ف شقة الظابط، عملته وأنا محبوسة عند اخواتي فوق السطوح مع الواد سعد اللي مربي حمام على السطوح اللي جنبنا. آه والله".

صار وجهي مثل أرض بارت وجفت من شحّ المياه. تهتكت الطبقة الرقيقة من قناع صفار البيض بالحلبة، بعد أن صارت خشنة وقاسية، تفصل بين أجزائها المتكسرة شقوق تظهر بشرتي التي التهبت من الشد لأكثر من نصف الساعة.

يا خبر أبيض يافندم!!!ثانية واحدة حاجيبماية دافية وأشيلك الماسك بالراحة. عندك ماء ورد أو مرهم للالتهابات؟ الكلام خدنا وكان مفروض أشطف لك وشك من ربع ساعة يافندم!

معني "مزمز" في معجم المعاني: شرب شيئا فشيئا

حظك اليوم:

" ستجدين نفسك في حالة ارتياح وسكينة في تعاملك مع شريكك، وكأنك تتجولين آمنة في بيتك.. يا بداية".

أعبث ببريدي الإلكتروني، بعد أن قمت بضبط موقع اليوتيوب على موسيقى شرقية دافئة، حتى نسمعها أثناء تناول العشاء، الذي خلا الليلة أيضا من "كاترينا"، فقد غادرَت إلى جنيف لعمل حفل توقيع لكتابها، وقضاء الليلة مع أصدقائها.

"ستدركين في النهاية أمرا، يوضح لك كم هو هشّ ورقيق، رفيقك هذا، فحافظي على ما ستهتدي إليه".

لم ينفك لسان "نيل" بما يعتمل في صدره من ضيق تجاه "كاترينا" مثل ليلتنا هذه، وكأن لمشروب النعناع الأخضر الذي أعددته، لنتناوله في الحديقة مفعول السحر. قال مثل طفل يضجر من مداعبة الكبار له، إنه يتضايق جدا حين تناديه "كاترينا" ب الإنجليش مان"، أي "الرجل الإنجليزي". قلت له أني أول من أطلقت عليه هذا الاسم، بغرض التدليل والتبجيل في آن، فقد كنت أقصد أنه "جنتلمان". زاد عنادا على عناده، مصرا على أن الكلمة ستكون لطيفة لو صدرت مني، بعكس "كاترينا" التي تقولها بسخافة، وكأنها إهانة. لكن سرعان ما حاول تبديل الحالة

بحالة أكثر لطفا، فقال: سأعد فنجانا من الـ"ليزبيان تي"، أي "الشاي السحاقي". لم يفهم أي منا ما يقصده "نيل"، فقال إن الجدات في انجلترا يطلقن على شاي الإيرل جراي، أو الشاي بالأعشاب ونكهات الفواكه هذا الاسم، لأنه ليس "إنجليش تي" تقليدي، أي شايا انجليزيا طبيعيا. احتسى "نيل" رشفتين من شاي الأعشاب اللعوب، وفرد ساقيه على الشيزلونج الذي تستأثر به "كاترينا" للكتابة في النهار، وكأنه في جلسة تفريغ انفعالي بعيادة نفسية. هذا الطفل العنيد، يكاد يبكي وهو يفضفض بأنه بلغ من العمر مدى لا يستطيع معه العودة إلى الوراء، وتغيير أحداث حياته، وإنجاز نجاحات أكثر، وتجنب خيبات كان يمكن القفز عليها بدلا من السقوط في عثراتها. لم يتعمق "نيل" في أية تفصيلات تخص انفعالاته، وكل ما بدا لي في تلك اللحظة هو أن هذا الطفل الكبير، الذي تجاوز الخمسين، يحتاج فقط إلى هدهدة، ولمسة حانية على ذراعه، وصوت منخفض يطمئنه بأن كل شيء على ما يرام. وكشأن كل المشروبات والمسميات التي تتبدل معانيها بيننا، همست له " لو استرخيت الآن، سأحضر لك "ميز ميز" غدا "، فهدأ على الفور، ووفقا لروايته في اليوم التالي، إنه قد غاص في بحر عميق من النوم، كما لم يفعل من قبل.

كلمة "مزمز" صارت شفرتنا لفك القلق والحزن والكآبة والشوق والندم، منذ ذلك اليوم الذي كنا نتجول فيه في مدينة "مورج" وداهمنا الوقت وهو يحكي لي عن أمه المتسلطة، وناشره المتعجرف، وفرص التحقق شبه المنعدمة في بلدته البعيدة عن العاصمة، لنجد الباص الذي سيعود بنا إلى البيت قد أتي، وسينطلق بعد دقائق سبع. عرضت أن نحتسي قهوة الاسبرسو في مقهى المحطة الذي نحبه، لكنه قال إنه لا يحب أن يتناول قهوته على عجل. تركته دقيقتين ودخلت السوبرماركت الملاصق للمحطة، وحين بدأ الباص في التحرك بنا، فاجأته بعلبتين من قهوة الاسبرسو المثلجة. لم أكن أعرف أن لفعل المزمزة أصلا في المعجم العربي، فقلت له إننا في بلدي حين نتروى في شرب شيء فإننا نمزمزه،

وإن هذه كلمة دارجة لا معنى لها، لكنها لذيذة. كانت هذه هي الكلمة العربية الوحيدة التي تعلمها "نيل" مني طوال رحلتنا، وكان سعيدا بها مثل طفل استحوذ على لعبة قديمة لطفل آخر. كان ينطقها "ميز ميز"، ففرحتُ باللكنة التي جعلت الكلمة شهية أكثر، ومنحَتْها ذلك السحر الغامض، والقدرة على تحويل الحالة المزاجية لكل منا، منذ أن اقترنت رشفات البن المثلج الصغيرة بهدهدة الباص لأجسادنا، وهو يشق الطريق الأسفلتي الصاعد والهابط بين الجبال والمروج ومزارع الكروم، والبيوت الريفية البيضاء المزدانة بأصيصات الورد الأحمر، وضحكاتنا المكتومة، وتعليقنا الموحد على حديثنا الذي استغرق نهارا كاملا، بأننا "نشعر بالسعادة". ومنذ ذلك اليوم اكتسبت كلمة "ميز ميز" معنيين جديدين؛ القهوة والفرحة.

عادة ما يقترن العدّ التنازلي لأية رحلة أو مغامرة بانخطاف خفيف في الروح، وشجن يعبث بالقلب، وحزن نصف معلن، حاولنا كتمانه بأن نملأ الأيام المتبقية لدينا بمزيد أحداث، حتى تتحول إلى ذكريات تُكسبها ثراء، وتضيف أعمارا لأيامنا المعدودة المتبقية. وحين كنا نخرج ونعود إلى البيت القصر، نتشبث به مثل أطفال لا يريدون مغادرة مقاعدهم أمام شاشة التلفاز، حتى وإن كانوا في النزع الأخير من النوم. سيزاحمنا الليلة في مكاننا الحميم، عشرات الغرباء الذين سيأتون لسماع الحواديت التي قمنا بتدوينها، ويقومون بتقييمها وتقويمنا. سيتراص الوافدون في صفوف على المقاعد التي وضعها منظم الحفلات وسط غرفة جلوسنا، وأخذ يضبط درجة الصوت في الميكروفونات التي تتصدر القاعة. تحول البيت إلى مرتع للوجوه الغريبة مثل فرح شعبي، أو مولد لولي من أولياء الله، فالليلة هي الحدث الأهم في سفرتنا هذه، ويسمونها الليلة الكبيرة. أما نحن، أبطال العرض، فكنا نتجول في الطرقات مثل ممثلين هواة، في ليلة العرض الأول. أنا و"كاترينا"، نضم خصلات شعرنا في بكرات ضخمة، حتى نحافظ على رونقه وبهائه إلى لحظة الظهور، ونرتدي

أرواب البيت ونتجول بتلقائية في دهليز الدور العلوي، حيث تتجاور غرفاتنا. يصادفنا "نيل" وهو يزرّر قميصه، و"جون"وهو محمرّ البشرة، بعد خروجه من تحت الدش الساخن، في طريقه إلى غرفته. للمرة الأولى نشعر أننا جيران بحق، وكأننا أكبر عددا من مجرد امرأتين ورجلين. كانت هناك أرواح هائمة تجوب الدهليز مثلنا، وكأنما تشد من أزرنا، وتهمس لنا بأن تشجعوا، فلقد مررنا بما يعتريكم من قلق. "أولجا" هي الوحيدة التي تقبع في الدور الأرضي، وتغلق على نفسها بابها، حتى لا تصطدم بعمال الإضاءة وناتالي التي بلغت الحد الأقصى من التوتر، لإثبات جدارتها في إدارتنا، فهي المخرجة الأولى لأيامنا القليلة الماضية والمتبقية.

ثلاث خبطات رقيقة على باب غرفتي، ظننتها لـ"كاترينا"، تريد استعارة شامبو أو سشوار الشعر، ففتحت بتلقائية، لأجد "نيل" في قميص أبيض ناصع، وبنطال كحلي، ووجه متورد من الخجل، لأنه اقتحم خصوصيتي، ويطلب مني أن يراجع لي النص الإنجليزي لقصتي، حتى يليق بأن يُقرأ على الملأ.

خارج غرفتي أريكة فرنسية تصلح لجلوس اثنين فقط، وقعت عليها عيني، وقلت له "تخيل..لم يفكر أي منا في أن يستعمل هذه الأريكة"، فقررنا مراجعة النص سويا عليها، حتى نطبع أجسادنا على كل شبر في البيت، فنهيم فيه إلى مالا نهاية مثل أشباحه الطيبين. وما أن استقبلتنا الأريكة في ترحاب، حتى وجدنا جسدا له حضور ثقيل يتوسطنا، فكادت تشكو الأريكة صارخة: "أنا لا أصلح سوى لاثنين". انحشرت كاترينا بيننا ومعها نصها الطويل، الذي وجهته نحو "نيل"، حتى يراجعه لها، فقمت لأعد آخر ملعقتين من القهوة تبقيا معي، من البن الذي كنت قد أحضرته من مصر، حتى تنتهي "كاترينا" من مراجعة نصها. لم يتبق على وقت بدء الحفل سوى ما يكفي لكي نرتدي فساتيننا، فسبقنا كل من "نيل" و"جون" إلى الدور الأسفل، ودخلت كل منا إلى غرفتها. وبينما كنت نصف عارية، سمعت خبطات ثقيلة، فتيقنت أنها لـ"كاترينا"،

بعد أن احتست كأسين لتتجرأ على القراءة، وسوستة فستانها مفتوحة عن آخرها، وتطلب مني أن أسحبها لها. قلت لها مداعبة، لو جاء "نيل" الآن وشاهدنا هكذا، لاتهمنا بالباطل، مثلما تظلم جداته شاي الأعشاب، وتسمينه الـ"ليزبيان تي".

كان فستاني من الدانتيل الأبيض، وفستان "كاترينا" من الحرير الأسود. وكان "نيل" و"جون" بانتظارنا أسفل السلم، يرتديان ملابس رسمية داكنة، مثلما ينتظر العريس عروسه، وينظران إلينا بتطلع وإعجاب صامت، جرحته جملة "نيل" الهامسة، وأنا أنزل خطوة، خطوة، وامتلئ بنظرته وتعليقه الرقيق: "كوين أوف ذا نايل"..ملكة النيل..أنا.

وعد سمير، "الفرعون الظريف" كما أسمته ناتالي، بأن يحضر ليلة القراءة، فبحثتُ عنه بين الوجوه التي امتلأ بها البهو، لكن "ناتالي" قالت بأنه قد اعتذر لوجود حادث في الطريق، لكنه مازال عند وعده، بتدعيم القصر ماديا، ونشر ما سنكتبه أثناء إقامتنا فيه، على نفقة مؤسسته.

تبدلت هيئاتنا وأصواتنا، ونحن نقرأ بعمق وإحساس وهيبة أمام الميكروفون، وعيون الجمهور وآذانهم تتعلق بنا. لم أستطع تقويم أدائي، ولا التمتع بالتصفيق الحاد، الذي أعقب قراءتي، من فرط خفقان قلبي. تعالت الضوضاء أكثر مما ينبغي، وامتلأ كل ركن في القصر بنساء ورجال من النخبة الثقافية والاجتماعية، وأصحاب القصور المجاورة، الذين كنت أصادفهم ينزهون كلابهم المدللة. "ماذا تعملين في الأساس؟..هل أنت متزوجة؟.. هل قصتك حدثت بالفعل؟.. هل لديك أولاد؟..ما أحوال مصر؟.. إلى أين ستصل الثورة؟.. هل ستؤثر على اتفاقية السلام؟..هل ستستمر الثورة؟.. الثورة؟.. الثورة؟".

وصلتْ الصالة والحديقة والتراس لمرحلة من الصخب لم أستطع فيها أن أميز سوى نهايات الكلام، ولم أعرف أثناءها ماذا أفعل بأذني وجسدي كله. ألم يفهمونا في البداية أن هذا المكان سيكون مهربا آمنا من الضوضاء والثرثرة التي عكرت أيامنا، كل في بلده، فجئنا فاتحين صدورنا لهواء نقي وصمت مقيم وخصوصية مقدسة؟ شعرت أني شذذت عن المجموعة، حين انزويت في ركن بآخر الحديقة، أراقب المشهد العبثي، وأنظر إلى السماء، راجية الله، أن يستجيب لدعائي، ويصرف هؤلاء الدخلاء. انضم إليّ "جون"، وتساءل هل سيكتفون الليلة بتقديم المقبلات التي تناولناها مع الضيوف، أم سيقدمون لنا عشاءنا المعتاد مثل كل ليلة. صرنا ثلاثة، بعدما وقفت "كاترينا" إلى جانبنا وسألتني أليس عند الفراعنة تعاويذ سحرية لطرد الأرواح الشريرة، أو الضيوف الذين يمكثون أكثر من اللازم؟ أما "أولجا"، فقد كانت في عالم آخر، حين توسطت أريكة الصالون بين حبيبها القديم، وبناته وأحفاده، ونادت "نيل"، الرجل الإنجليزي..الجنتلمان، لكي يتعرف إليهم، بعدما رحب بكل الحاضرين، وتبادل معهم بضع كلمات. ولما انفضّت الليلة، وصار البيت لنا مرة أخرى، قلت ل "نيل"، كم أنت صبور أيها ال "الإنجليش مان". فقال لي: "وأنت تبدوين منزعجة للغاية، وإن هدأت واسترخيت، سأدعوك غدا إلى "ميز ميز".

مثلما كنا نتهافت على ترك آثارنا في المكان، كانت الطبيعة تنافسنا أيضا. كنت أظن أن المشهد في الحديقة لن يحتمل المزيد من الألوان أو الأصوات، إلا أنه في الصباحات الثلاثة الباقية، أخذت تظهر براعم أزهار جديدة، وتتفتح ورود، وتتكاثر ألوانها وتتناثر فوق النجيلة الزاهية. وردٌ بلديَ أبيض وأحمر ووردي وأصفر، ينظر إلى أعلى، وكأنما يجاري بنصاعة ألوانه، أصوات الطيور وهديل الحمام، الذي صار يعلو يوما بعد يوم، وكأنه ينادي بعضه بعضا، ليقيم عرسا كبيرا في موسم التزاوج. عبر من أمامنا الكلب الأسود، الذي مر في الحديقة في

بداية إقامتنا بهذا البيت، وظننته فألا سيئا، إلا أني وجدته يشبه جدا الكلاب الخزفية المتراصة في غرفتي، وصرت أئتنس بها في الظلام. استدعى "نيل" الكلب بطرقعة رقيقة من إصبعيه، وجعله يقترب بشدة منه ومني. أمسك يدي برقة، وجعلني أملس على فرائه، فامتلأت بإحساس قطيفي ثري. مررت على أنحاء جسده بظهر أصابعي، ولمست قدمه الصغيرة وحوافره، فأخرج الكلب لسانه الوردي باتجاه كفي. ارتجفت قليلا، لكن "نيل" قال لي إن الكلب يريد أن يتذوقني لأنه أحبني، والحب عند الأوفياء، ليس مجرد مرور عابر في حديقة.

"ألم تعديني ذات يوم، بأنك ستعتنين بي في حمّام السباحة العمومي؟" قال "نيل" بهدوء وهو يضع كفه على كتفي متوسلا. قلت: " لكن الجو حار جدا، ولن اسبح مثلك لأطفئ حرارته ". قال: " هذا ما سيفعله الميز ميز ". لم أحب الصخب مثلما أحببته في هذا اليوم، لدرجة أني لم ابتئس من فكرة العودة إلى مصر بعد أيام ثلاثة. فضجيج الأطفال المفعم بالبهجة، وألوان ملابس البحر، وأكواب العصائر والمثلجات في الموائد المحيطة بحوض السباحة، ذكرني بكورنيش النيل وبهجة الأعياد وشمّ النسيم. كان "نيل" يقطع حوض السباحة ذهابا وإيابا مثل درفيل مدرب وسعيد. لم يرفع رأسه ولو مرة واحدة خلال أكثر من ثلاثين جولة، وأنا التي كنت أرقبه، مثلما وعدته، كأم تعتني بطفلها. فقط، سلمته البشكير العريض حين خرج منتعشا ويتقطر ماء، وغاب لدقائق، وعاد بعدها في زيه الرياضي الكامل، حاملا علبتين معدنيتين من القهوة المثلجة.

كنا قد اتفقنا مع ناتالي أن تمر علينا بسيارتها، لتأخذنا إلى البيت، تفاديا لحرارة الجو، لكننا نسينا أمرها تماما وأمر الشمس الحارقة، ونحن نتحدث أثناء سيرنا بين الجبال، لنقطع الأميال الخمسة من النادي إلى البيت. استرحنا قليلا تحت ظل شجرة حتى يجف عرقنا، فالتقط "نيل" زهرة حمراء مكونة من ورقتين فقط. أعطاها لي وقال هذه لك، ورقة من أجل شغفك بالحياة،

وورقة من أجل البسمات التي تضعينها على وجهي. هبّت ريح خفيفة فرحنا بها لأنها ستجفف عرقنا، لكنها أخذت أوراق الزهرة، واحدة تلو الأخرى، في لمح البصر، فصارت عارية من الشغف والبسمة.

صار القصر على مرمى البصر، فمد "نيل" يده في جيبه، ليتأكد أن مفتاح غرفته المعدني الضخم موجود بداخله، لكنه لم يجده. هوّنت عليه أنه لابد مع ناتالي نسخة أخرى، لكن ناتالي التي كانت تستشيط غضبا منا، لأنها لم تجدنا بانتظارها في النادي، فقدت ما تبقى لديها من صبر، ليس لهذا السبب فحسب، بل لأن مفاتيح الغرف أثرية، ولاتوجد لها نسخ، ولا يمكن تقليدها. ركب "نيل" مع ناتالي السيارة، وعادا إلى النادي العمومي، وبنظرة واحدة تحت المقعدين اللذين احتسينا عندهما ال "مزمز"، وجدا المفتاح الأثري كدليل على ذهاب عقلينا، فالصوت الذي يصدره سقوط مفتاح من الحديد الثقيل فوق البلاط، كان لابد أن يلفت انتباهنا.

توقعت نهارات تالية عامرة بالخضرة والرياح والمشاعر، ومساءات على موسيقى التأمل الشرقية التي صرت أشغلها في الخلفية على العشاء، إلا أن "نيل" قد تحول إلى آلة للكتابة والبحث والترجمة، ليتمكن من تسليم ما تبقى من كتابه في الموعد الذي تفرضه عليه دار النشر. قابلت "جون" وأعدّ لي قهوتنا الصباحية في المطبخ، وأبلغني بأن "نيل" سيوصد بابه عليه، حتى ينجز أعماله. وعدنا كما كنا، مثل أسراب النمل التي تتلاقى في الطريق لتتوقف قليلا، وتقول شيئا، ثم تمضي. صادفت "نيل" في الدهليز، فقرأ رجائي في وجهي، وقال إنه لو كان مثلي، يكتب من أجل المتعة، وليس لكي يكسب عيشه، لاختلف الأمر كثيرا. كما قال بأنه سيكافئ نفسه لو أنهى عمله، بأن يعد لي إفطارا شهيا في اليوم الذي يسبق سفري، فمثلما حضرت قبله بيوم، سأغادر قبله بأربع وعشرين ساعة كاملة. قررت أن أمضي قدما في خطتي، وأن أملا المكان بروحي، حتى وإن كان "نيل" قابعا في قوقعته. قطعت الأميال الخمسة إلى البلدة المجاورة مع

"أولجا" الروسية، لحضور كونسير في الكنيسة الصغيرة، ولا أدري كيف لم يتوقف الحوار بيننا ولو للحظة، على الرغم من لغتها الإنجليزية الضعيفة، ولغتي الفرنسية الهزيلة، كما لم تلهث بشدة إلا لثوان في الطريق الصاعد الوعر، برغم سنوات عمرها الخمس والسبعين. وبعد سماعنا للحن الثالث في الكونسير، والمسمى بتروبارية القيامة، سادنا سلام جميل، في طريق العودة. كنت أستمع وأقرا المكتوب في نشرة العرض التي سلمها لنا القس: "لتفرح السماويات، وتبتهج الأرضيات، لأن الرب صنع عزا بساعده، ووطئ الموت بالموت، وصار بكر الأموات، وأنقذنا من جوف الجحيم، ومنح العالم الرحمة العظمى".

في تلك الليلة حلمت بأني أنجبت ابنتين، لكنهما كانتا مثل ورقتين في زهرة حمراء، أو حشرتين مرقطتين. كانتا موضوعتين في طبق أبيض كبير، وكان عليّ أن أطعمهما، لكني نسيتهما تماما حتى ماتتا. كنت حزينة حزنا بسيطا يليق بنبتة أو بفراشة ماتت، قبل أن ترتبط بها عاطفيا. الغريب أن أحدا ممن أعرفهم لم يوبخني على فعلتي هذه داخل الحلم. نسيت هذا الحلم تماما، ولم أتذكره إلا بعد أيام عشرة من عودتي إلى مصر، حين قالت لي ابنتي الكبرى كم افتقدتني، هي وأختها الصغرى، أثناء المدة الطويلة التي قضيتها بين الجبال، في قصري السويسري بعيدا عنهما.

في اليوم الذي سبق الرحيل، نزلتُ إلى المطبخ في السابعة صباحا، بعد أن جذبتني رائحة توليفة القهوة التي يعدها "جون". كانت بشرته البيضاء تفضحه كالعادة باحمرارها الشديد، كدليل على التجول في الشمس أو عند الشعور بالخجل. لكن "جون"، تخلى عن ميله إلى الصمت، وقال لي إنه استيقظ في السادسة والنصف، وسبقني إلى المطبخ، ليكون أول شخص أراه، وأول شخص يودعني في اليوم الذي يسبق رحيلي، ثم اغرورقت عيناه بقليل من

الندى، وهو يقول إنه شعر فعلا بأنه أخ أصغر لي، ويحس بضيق وإحباط لسفري قبله بيوم. ظهر "نيل" في ملابس الخروج، وهو يمر مثل الطلقة من الدهليز، وقال إنه على موعد مع ناتالي، ليذهبا إلى بلدة المورج، وينتقيا سويا أنواع الجبن السويسري، حيث ستطبخ لنا بنفسها "الفونديو"، الأكلة الأشهر لديهم، لأن ليلتنا هي ليلة العشاء الأخير. ثم مال عليّ "نيل"، وقال: "سأعود سريعا، لأعد لك البيض الأومليت الساخن، الذي وعدتك به. سأراك بعد قليل. موعدنا في العاشرة".

صعدت إلى غرفتي، وفردت الفستان الزاهي الذي سأرتديه مساءا، في ليلتنا الأخيرة، وأخذت أملأ الوقت، بمشاهدة فيلم "عقل جميل" على اليوتيوب. ما الذي يجعل "نيل" يضحي بثلاث ساعات كاملة من وقته، ليذهب إلى السوق الأسبوعي بالبلدة المجاورة، لشراء الجبن مع ناتالي، في حين يبخل علينا بساعة إضافية بأول النهار أو آخره، بحجة ضرورة تسليم كتابه إلى دار النشر في الموعد النهائي؟ الجيد في الأمر، أنه في العاشرة صباحا، لن تكون "كاترينا" قد غادرت غرفتها بعد، فهي لا تظهر قبل الثانية عشر ظهرا، أما "جون" و"أولجا"، فلكل شأن يغنيه. حينئذ سأجلس في الحديقة، وألتقط بشوكتي قطع بيض الأومليت التي وعدني بها "نيل"، بينما أستمع إلى نبراته الهادئة، وأنظر إلى صفاء زرقة البحيرة، المتداخلة والأفق اللازوردي، والأطراف البيضاء لقمم الجبال، ونحن نجتر ذكريات أسابيع أربعة تركناها وراءنا.

انقضت ساعة ونصف دون أن أشعر، وأنا أعيش مع قصة حياة "جون ناش"، في فيلم "عقل جميل". ذلك الرجل العبقري المهووس بالأرقام، حتى نال جائزة نوبل في الرياضيات.كان في الوقت ذاته مريضا بالشيزوفرانيا، وكان يعيش في الوهم، يرى ويكلم شخصيات حبيبة إلى قلبه، ليس لها وجود في الواقع. أي صدفة اختارتني لمشاهدة هذا الفيلم تحديدا على اليوتيوب، أنا

الغريبة في البلد البعيد، التي تعش مع شخصيات لم تكن حقيقية قبل شهر من الآن، وحين تيقنت من أنها صارت لبشر من لحم ودم، حين حكينا وشكونا وتلامسنا وهدهد بعضنا البعض، سيفرض عليّ أن أخضع لفكرة اختفائها بعد أربع وعشرين ساعة، فتساويت بـ"جون ناش" صاحب العقل الشاطح. الفارق بيني وبينه هو أن هوسه بالأرقام أوصله إلى نوبل، أما ولعي بالحروف العشوائية، وتدوين أي شيء عن كل من قابلتهم في الجيمنازيوم، دون وضع نهايات للحكايات، فلن يتوّجني بأية جائزة أو حتى تقدير. في المشهد الأخيرمن الفيلم، حين تمّ تكريم البطل، وضع زملاؤه أقلامهم على مكتبه، كرمز لعلو مكانته، فهل ترك لي أي من رفاق هذا البيت أو من نساء الجيمنازيوم أقلامهم راضيين، لأكتب حكاية تليق بهم؟!

صارت الساعة الحادية عشر والنصف، ولم أسمع خبطات "نيل" الرقيقة على باب غرفتي بعد. نزلت إلى المطبخ، وقطعت رحلات سير قصيرة بينه وبين الحديقة، وبين الصالة والغرفة الزجاجية. وفي الثانية عشر بالتمام، ظهرت "كاترينا" لتعد فطورها في المطبخ. تعللتُ بالتحدث إليها، لأكون أول من يستقبل "نيل" حين يعود. سألتها إن كانت ستتناول إفطارها في الحديقة مثل كل يوم، فقالت إنها ستبقى لإجراء بعض المكالمات من تليفون البيت، المعلق على حائط المطبخ. أشارت عقارب ساعة الحائط إلى الواحدة إلا الربع، وأنا أتصبب عرقا، مثل دب يروح ويجيء، في محاولة العثور على موضع يرطب الحرارة المنبعثة من داخله، ولا تطفئها نافورة مياه، أو نسمات صيفية باردة.

وصلت "ناتالي"، ومعها "نيل"، الذي اندفع نحو أقرب طاسة قلي، وأخرج بيضتين يحوطهما قش، من علبة صغيرة أتى بها معه من الخارج، مع إن باب الثلاجة به صفان من البيض الطازج. كانت "كاترينا" منهمكة في التحدث إلى ناشرها على الهاتف، حين قال لي "نيل"، إنه ذهب خصيصا مع "ناتالي"

بسيارتها، لكي يمر على مزرعة دواجن، يمتلكها رجل عجوز تصاحب معه، وأوصاه أن يمنحه بيضتين قد وضعتهما الدجاجة توا كهدية طازجة وفريدة لي، وظل ينتظر معه، حتى عادت ناتالي من السوق، وأخذته من المزرعة.

أخذ "نيل" يسألني إن كنت أفضل الأومليت نصف سواء أم متماسك، وإن كنت أريد إضافات غير الملح والفلفل، بينما تفتح "كاترينا" فمها اندهاشا من مشهد "نيل" وهو يطهو لي، وأنا أضع ساقا فوق الاخرى مثل أميرة. وفي اللحظة التي قررنا الذهاب فيها إلى الحديقة، لأمزمز فيها هديته الشهية، التي وضع فيها أجزاء من روحه، سبقتنا "كاترينا" إلى حيث سنجلس، فأفسد حضورها حالة خاصة وأخيرة، لا تحتمل سوى اثنين، تماما مثلما اخترقت الفراغ الرفيع الذي كان يربط بيننا، على الأريكة الفرنسية الصغيرة، ليلة القراءة.

وحين صعد "نيل" إلى صومعته، وانكفأ ثانية على العمل، أنا التي نقرت ثلاث خبطات رقيقة على بابه، وفي يدي صينية فضية، عليها فنجان قهوة وكوب مياه، وورقة بردي مقلدة كتبت عليها كلمات شكر، وقلت له إنها فاتورة القهوة. رفع رأسه وقال، أريد فقط روحك الصافية، وتركت الغرفة قبل أن يقرأ ما كتبته له.

على الرغم من أنه لا يمكن أن يمتطي حصانين في الوقت نفسه، مثل"أنطونيو بانديراس" في فيلم "زورو"، ولا يعرف كيف يمسك جيتارا، ويصدح مثل عندليب رقيق كـ"خوليو إيجليسياس"، إلا أن الإنجليش مان "نيل تشارلز"، بعدما أطعمني من إبداع يديه وروحه، صار أحبَّ إلى قلبي من فتيان أحلامي: "خوليو"، و"بانديراس".

في المساء، بينما كنا نُغطس قطع التوست المحمّصة في الجبن السائح، ونتناول أشهى وجبة "فونديو" سويسرية من أيدي ناتالي، سألتني فجأة إن كنت تضايقت من الكلاب الخزفية، الموجودة في الفترينة الزجاجية بجانب

سريري، فأنا الكاتبة الوحيدة التي لم تشْكُ من أنهم يصيبونها بالرعب والقشعريرة. قلت إنني كنت بحاجة إلى هذه المشاعر، لكي أتماشى مع أبطال روايتي، الذين يعانون من أشكال متعددة من المخاوف. فحكت "ناتالي"، أنه ذات يوم بعيد، بعد وفاة صاحبة الدار مباشرة، نسيَتْ الخادمة فترينة الكلاب مفتوحة، وأخبرت "ناتالي" في الهاتف حتى تغلقها. وفي اليوم التالي، قالت الكاتبة التي كانت تقيم في غرفتي ذلك الوقت، أنها رأت بأم عينها، طيف صاحبة الدار، وهي تخترق غرفتها، وتحصي الكلاب، ولم تكن تعرف أن صاحبة الدار قد ماتت!

لم تكن هذه هي القصة المرعبة الوحيدة، فقد رغبتُ في النزول إلى المطبخ ذات ليلة، بعد أن نام الجميع، لآخذ كوب زبادي من الثلاجة، لكنني وجدت الدور الأرضي يغطس في سواد حالك، بينما صوت التلفاز الذي لا يستعمله أحد، يرتفع عن آخره في غرفة الصالون، بأصوات مطربين وآلات موسيقية، فتراجعتُ عن الفكرة، وجريت إلى غرفتي، وتحصنت بحماية كلابي الخزفية الأقل رعبا. كما اتفقتُ أنا و"نيل"، على أننا في ليلة ما، سمعنا وقع خطوات آدمية ثقيلة، في الدور الذي يعلونا، ولا يسكنه أحد.

أثناء تلك الحوارات الصاخبة والضاحكة، كان فلاش كاميرا "كاترينا"، يلتقط كل لفتة وكل ضحكة، مسجلا العشاء الأخير. ومن بين اللقطات الأثيرة، مشهد "نيل" وهو يجلس إلى جواري، ويفصل بيننا فراغ معقول، لكنه كأنما يضمني بحنان وبقوة، بنظرة من عينيه. أرسلت لنا كاترينا تلك الصور في بريدنا الإلكتروني في ألبوم أسمته "عن الحُب".

كنت مندهشة من التماسك ورباطة الجأش التي اعترتني، حين وضعتُ حقائبي في عربة ناتالي، لتقلني إلى المطار. وكانت آخر نظرة ألقيتها على القصر، تضم "نيل"، و"جون" وهما يقفان صامتين، و"كاترينا" وهي ترقص رقصا

شرقيا بطريقة كوميدية حتى تضحكني، بينما السماء تميل إلى اللون الرمادي، وتنوي السحب المتكاثفة إفراغ حمولتها من الأمطار. أما أولجا، فكانت منهمكة في إعداد حقيبتها، التي ستحملها لا إلى موسكو التي جاءت منها، بل إلى جنيف، حيث قررت أن تمضي ما تبقى لها من العمر، مع الحبيب القديم وبناته وأحفاده.

ربطتُ حزام الأمان في الطائرة، وساعدتني في إزاحة حقيبتي الصغيرة امرأة أمريكية مسلمة، جميلة الوجه، ضخمة الجسم، ترتدي عباءة سوداء وخمارا واسع وقفازا يخفي كفها، وجلست إلى جواري. تأخرت الطائرة ساعة كاملة في الإقلاع لسوء الأحوال الجوية. أخذت المرأة تثرثر، وتحكي لي أنها كانت تبكي لأن طائرة الأمس فاتتها، لكنها تؤمن بالقدر الذي يعد ببدائل أفضل من اختياراتنا، وقد أتاها إلهام خفي بأنها ستجلس في رحلة العودة التي تأجلت إلى جوار شخصية مثيرة، فامتلأت زهوا بنفسي، وبدأتُ أمرر الوقت الراكد بسرد حكايتي من أول زبونة قابلتها في الجيمنازيوم، وحتى لقطة "كاترينا"، وهي تقوم بالحركات الراقصة عند الباب الخلفي للقصر. وحين سمعتُ حفيف عجلات الطائرة وهو ينزلق بي خارج الحلم، وتهمّ الأجنحة المعدنية بدفع الطائرة إلى أعلى، انخطف قلبي إلى الأسفل، ولم اشعر بأني ما زلت تلك الطفلة التي سبحت في الفراغ وفرحت وهي تعانق السماوات السبع، حين ركبت طائرة القدوم إلى هذا المكان. فقد تحولت السحابات الحانية خارج نافذة الطائرة إلى صور بالأبيض والأسوَد لمروج، وقمم جبال، وبحيرة، وقلعة، وحقول كروم، ورياح باردة وأمطار، وشمس حارقة، وحوض سباحة عمومي، وغرفات نوم فاخرة، كان يسكنها عظماء في قصر عتيق، ورسالة صغيرة لا أعرف كيف كتبتها في دفتر ذكريات القصر، بناء على طلب ناتالي: "بعد أيام ثلاثة من الآن، سأضطر لأن أترك هذا السلام وتلك السكينة، إلى مكان بعيد، حيث يتصارع أهله من أجل العيش والحرية والعدالة الاجتماعية.. رقعة ساخنة على الكرة الأرضية، تمتلئ

بالحماسة والدموع والدماء، وتسمى مصر الثائرة. وفي منتصف كل هذه الأحداث، لن يفهم أحد السر وراء تلك الابتسامة التي ستنبع من قلبي، وتضئ وجهي، حين أتذكر "ست شخصيات تبحث عن مؤلف"* ، قد يكون أحدهم هو المؤلف الذي سيجمعهم مرة أخرى، ليس لأسابيع أربعة فحسب، بل إلى الأبد، حين سيتشابكون على هيئة حروف وكلمات في صفحات كتاب عظيم. أصدقائي.. "نيل".. "كاترينا".. "جون".. "أولجا".. "ناتالي".. أحبكم جدا".

ثوان قليلة مرت حين ساد فجأة اللون الأسود، إذ ضمتني المرأة ذات الخمار، الجالسة إلى جواري، وهي تضع رأسي على كتفها، وتربت على ظهري، لتمتص نحيبي ودموعي التي انهمرت سيلا وحدها، وأخذت تلهيني بسرد حكايتها الشخصية، مثل طفلة يغنون لها، لتكف عن البكاء، وتخلد إلى النوم.

---

*ست شخصيات تبحث عن مؤلف": إسم مسرحية للكاتب الإيطالي لويجي بيرانديللو.

القاهرة

هدى

البيوت السعيدة لا صوت لها

مثل صيني

سطح العمارة المبنية من الطوب الأحمر، والمتاخمة للسطح الذي تقضي فيه هدى عقوبة هروبها، ليس إلا بيتا للأرواح الطيبة. حمامات بنية وصفراء وبيضاء تضم أجنحتها وتفردها كراقصة تتدلل بوشاحها، وتعلو شيئا فشيئا، حتى تشكل لوحات متحركة في السماء، تصاحب السحابات القطنية لتسلم على الملائكة، ثم تعود راضية لغياتها، حين يصفر لها سعيد صاحب الغية، رافعا رايته البيضاء مداعبا الهواء، فتتمنى هدى لو كانت حمامة زاجل أو قطقاطي أو قرنفلي كالذين يعشقهم سعيد، ويقضي معهم معظم ساعات يومه، ويقول عنه سكان الحارة إنه ربط عقله في قدم زاجل، حلقت به بعيدا واختفت. لهذا لم يساور عزيزة، الأخت الكبرى لهدى، أي قلق، حين كانت تصعد للغرفة الخشبية، التي يحبسون فيها هدى فوق سطح البيت، وتجد هدى تتهامس وسعيد جارهم، الذي فقد نصف عقله، في رجل حمامة طارت ولم تعد.

ساقت هدى الحجج حتى لا تتلاقى عيوننا، وهي تحكي لي ذلك الجزء المخجل من حدوتتها، وبناء على الاتفاق الذي عقدته معها، بأن تفعل في وجهها وجسدها، ما تفعله معي، قامت بعمل كمّادات لعينيّ بالماء الدافئ، ثم

مسحتهما بالماء المثلج، وقطعت أربع شرائح من البطاطس، ووضعت لي واحدة فوق كل عين، وفعلت المثل لنفسها، وأمرتني بالاسترخاء. وقد كانت حجتها هي القضاء على التورم والسواد تحت العينين، الذي يزور الجفون من قلة النوم وكثرة النواح. أما خجلها الذي دارت من أجله عيوننا، فقد فضحته جملتها التي استهلت بها حكاية كبيرة، بدأتها وأنهتها في سطر واحد: "والله يافندم أنا مؤدبة، بس سعيد قالي تعالي عندي أفرجك على الحمامة اللي خطفت عقلي، وراح عامل معايا قلة أدب وبقيت حامل.. آه والله يافندم".

لا تعرف هدى إن كانت عزيزة أختها الكبرى قد أفشت سرها عند أخويها صلاح وابراهيم أم لا. فقد أتت عزيزة بامرأة ضخمة الحجم، غريبة عن الحي، أدخلت أشياء حادة في رحم هدى، ظلت تنزف بعدها ثلاثة أيام ثم بناء على خطبة إمام الزاوية، التي يسمعها أهل المنطقة جميعا، عبر مكبر الصوت، عرفت عزيزة بتلك الفتوى، التي جعلتها تأخذ عشرة آلاف جنيه من سعيد، ديّة الاغتصاب. وقد هددته بأن يدفع بالتي هي أحسن، خير له من مطواة إبراهيم، أو لعنة صلاح.

ميزة وحيدة حصلت عليها هدى جراء صفقة عزيزة وسعيد جارهم، وهي أن أقنعت عزيزة الأخوين صلاح وإبراهيم، بأن يطلقا سراح هدى، لأنها إنصلحت واستقامت. أما ما أشعل حماس عزيزة، فكانت تلك المكالمة من مدام أمينة صاحبة الجيمنازيوم والبيوتي سنتر، وتوسلها لها بأن تعيد هدى إلى العمل، لشدة طلب الزبونات عليها، مما يعني أجرا شهريا ثابتا، سيدخل خزانة عزيزة، بالإضافة إلى البقشيش السخي الذي تضعه الزبونات في جيب هدى. كانت هذه هي المرحلة التي قررتُ أن أستميل هدى لأكتب حكايتها، حين أغوتني نظرتها المنكسرة، وصوتها الخفيض، ورائحة السجائر المنبعثة من ملابسها، وهي تحك لي كعبيّ في البيوتي سنتر، وتنعمها بكريم أعدته بيديها وأضافت له لون دم الغزال، الذي ميزها عن زميلاتها، وأثار غيرة بعضهن من

مهارتها. وما زاد شغفي هو ذلك المشهد، الذي لمحتُ فيه هدى حين كانت ترفعها البنات من على الأرض، ويحملنها إلى الداخل، وهي فاقدة للوعي، ثم ظهورها ثانية بعد دقائق عشر، وقد خلعت يونيفورم البيوتي سنتر، وارتدت حجابها الأسود، بعد أن منحتها مدام أمينة إذنا بالانصراف. امتزج الدافع للكتابة برغبة حقيقية في نزع تلك الهالة القاتمة المحيطة بهدى، وحين سألتُ عن الجلبة المريبة التي حدثت منذ دقائق، وقبل إخفاء هدى المغشي عليها خلف البارافان، همّت البنات بأن يحكين لي، والتقطتُ كلمات متفرقة مثل "عندها صرع"، أو "واخدة دوا"، أو "عليها عفريت"، أسكتتهم جميعا مدام أمينة بنظرة صارمة، وأجابتني بهدوء بأن من يعين مريضا تساعده الملائكة. وحسب رواية هدى، كان هذا هو اليوم نفسه الذي قابلَتْ فيه إيهاب، سائق التاكسي.

امتصت جفوننا المجهدة نداوة شرائح البطاطس. نزعتها هدى في هدوء بعد أن سحبت اللون الداكن، ليترك عيوننا، هي وأنا، ناضرة ولامعة.

يشع وجه هدى بضوء داخلي حين تذكر اسم إيهاب، وقد كنت أستخدم تلك الكلمة السحرية، حين أستشعر ستارة داكنة تنسدل أمام عينيها. لم أسمع حكايتها مع إيهاب على دفعة واحدة، بل عشتها معها على حلقات، مثل كتاب تتركه وتعود إليه، تخللتها حكاية رضا الكوافيرة، التي كانت مثلها مثل هدى، لا يمكنها أن تسوي الحواجب أو تصبغ الشعر أو تقصه، إلا وهي تروي فصولا من روايتها الشخصية.

حين خرجت هدى من المحل والأرض تميد بها، هدأت سيارة أجرة بجوارها، يقودها شاب لم تتبين ملامحه، لكنها استنشقت عطره الذكوري الممتزج برائحة الليمون المنبعثة من الفواحة المدلاة من المرآة، ثم سمعت صوته العريض الهادئ وهو يقول لها: "اركبي بسرعة، انتي شكلك تعبانة قوي"، فاستجابت تلقائيا لباب السيارة المفتوح، وجلست بجواره. أخرجت كل ما في كيس نقودها،

ثلاثون جنيها، ووضعتها على تابلوه السيارة، وقالت له أن هذا كل تملكه، لكي يوصلها إلى التجمع الخامس، في الشقة التي تقيم فيها مع أختها الكبرى عزيزة الطماعة، وأختها الصغرى سماح "اللي عندها كهربا زيادة ف المخ، عشان أخوها البلطجي بيضربها على دماغها، وعندها ناصور من ضربه فيها بالشلاليت، وأمها مش بتعمل حاجة عشان مابتكلمش حد". كما أخبرت إيهاب إنها تخاف من منظر السكاكين، لكنها يمكن أن تزجّ بجسدها في أية خناقة لكي تفضها. وقالت له أيضا، إنها كادت تنهي حياتها، حين ألقت بنفسها ذات نهار من البلكونة، وإنها خبطت رأسها في الجدار عدة مرات، حتى سالت منه الدماء، أثر مشادّة بينها وبين أخيها، وإنها تشعر برهبة من لون الدماء منذ ذلك اليوم، حين تلطخ الحائط بدمائها، وأخذت الخيوط الحمراء تسيل ببطء حتى قاربت الأرض. لم تنس هدى أن تقصّ عليه حدوتة هروبها، وكيف حافظت على نفسها في بيت الدعارة والكباريه وشقة الضابط، لكنها غلطت مع سعيد جارهم وهي حبيسة سطوح بيتهم. كما شرحت له أن بعض الأطباء شخّصوا حالة الإغماء التي تنتابها على أنها بؤرة صرعية، وعارضهم أطباء آخرون وقالوا إنها سليمة، أما الإغماء الأخير الذي هاجمها منذ لحظات، ويجعلها لا تكاد تتبين ملامح وجه إيهاب، فهو بسبب قطعة البسكوت التي أحضرتها مروة الكوافيرة، وفتتها ووزعتها بمعاونة رضا، على عدة سجائر، أخذت منها هدى "نفسين" فقط، وكلما احتست القهوة أو أكلت قطعة شوكولاتة لكي تفيق، تعلو دماغها أكثر فأكثر، حتى غُشِيَ عليها. فكرتُ قليلا، تُرى ما ماهية ذلك الـ"بسكوت". لم يحتر إيهاب مثلي، فقد كان يعلم جيدا أن"البسكوت" هو النوع الأرخص من الحشيش المصري. ربت إيهاب على كتف هدى، بعد أن أوقف السيارة أمام بيت أختها، وقال لها بعد أن نزلت من التاكسي "إنتي طيبة قوي يا هدى".

فرحت هدى كطفلة حينما ظهر إيهاب في اللقاء التالي بسيارة حمراء، وأخرجت ذراعها من الشباك، وهي تقاوم الهواء الطازج في الطريق الدائري، وشارع التسعين، وطريق مصر إسكندرية الصحراوي. أحبت هدى إيهاب لأنه يأخذها بالسيارة الحمراء إلى الرست هاوس، ويدخن معها شيشة التفاح، ويقول بعض الكلمات بالإنجليزية، ويرتدي بنطلون جينز وتي شيرت أصفر فاتح، ويقول عن لوحة الورود التي رسمتها إنها حلوة. كما أحبته لأنه لم يعايرها بقصر قامتها، أو بالهالات التي تحيط بعينيها الذابلتين، أو لأنها لم تكمل تعليمها الابتدائي، وهو من حاملي الدبلوم، وسوف يتعين موظفا بالبنك الأجنبي، يوصل الأوراق الهامة بين المكاتب، ويرتدي بنطال كحلي وقميصا أزرق. ولكل هذه الأسباب، لم تعترض هدى حين اقترض منها إيهاب البقشيش الذي أخذته من الزبونات طوال الشهر، لأن السيارة الحمراء التي تحبها، تحتاج إلى ضبط الفرامل، وتغيير الزيت. ثم مرتب الشهر الذي تلاه، لأن السيارة تحتاج إلى سمكرة ودوكو. ولما غابت السيارة، واختفى معها إيهاب، لم تيأس هدى من محاولة الاتصال به من هاتفها، ومن هاتف مروة ورضا، حتى استجاب أخيرا، وأخبرها بأنه قد سلم نفسه للتجنيد، وبأن السيارة الحمراء قد رجعت إلى صاحبها الأصلي، قريبه الذي كان قد استعارها منه، واضطر أن يقول لهدى إنها سيارته الشخصية لما رأى فرحتها بها.

مثل طفلة شغوفة، كنت أتمنى أن أعرف دفعة واحدة إلى ماذا ستنتهي تلك الحدوتة غير المتكافئة بين هدى وإيهاب الذي يصغرها بسبع سنوات، وما الذي أتى بهدى تحت بيتنا لتعتصم مع أسرتها أمام مبنى ماسبيرو مع أهالي الدويقة، وما حكاية صلاح أخيها الذي تعتقد فيه معظم زبونات الجيمنازيوم، وهل هو الشخص نفسه الذي كان يقذف أمه بأقذع الألفاظ وهي قابعة في مدخل العمارة، أم كان إبراهيم الأخ الأصغر، الذي كان يتاجر بها أمام شاشات

الفضائيات، ليحصل على شقة إيواء، مع أن هدى ذكرت لي حتى الآن، مالا يقل عن أربعة شقق يمتلكها أفراد أسرتها: شقة بولاق، وشقتان في منشية ناصر، وشقة التجمع الخامس. لكن هدى تقدم لي حكايتها مع إيهاب على أقساط، لأنني أتجرعها في بث مباشر، وأعايش معها الأحداث حال حدوثها. سألتني هدى ذات حوار: هو حضرتك مسافرة فين يافندم؟

- سويسرا.

- وهتغيبي قد إيه؟

- شهر. رايحة أكتب.

- طيب ما تعملي تاتو حنة في الحواجب، وتركبي رموش دايمة.

– هو ينفع؟ انتي اللي هتعمليلي؟

- لأ..رضا. هتخليكي شكل سعاد حسني. هي اللي عاملة الدلاية النحاس اللي عجبت حضرتك اللي مكتوب عليها "أنا مصرية".

- مش رضا دي اللي هربت معاكي انتي وصاحبتك أول مرة؟

- لأ يافندم، دي كانت طالعة مسيرة المسيحيين. وبعدين كملّت معاهم ع الاعتصام بتاع ماسبيرو. ماهي اللي علمتنا سكة الاعتصامات، وعشان كدة حضرتك شفتيني ف الاعتصام اللي عملوه أهالي منشية ناصر بعد كدة. بس خدي بالك ممكن تاكل ودنك يافندم.

جذور شعري تنوء بمزيج الصبغة ورائحة الأمونيا، لأن "رضا" قررت أن شعري بحاجة إلى إعادة تلوين، لكي يليق والحواجب الكثيفة والأهداب الطويلة التي سأتمتع بها بعد ساعة من الآن. ويثقل حاجبي معجون الحنة البنية، التي وضعتها رضا فوقهما بريشة قوية، ثم بدأت تغمس رموشا صناعية في لاصق

أسود، وتضعها على خط العين رمشا رمشا، وتأمرني بأن لا أضغط جفوني أو أتحرك، بينما قدماي مغمورتان بالماء الساخن، وهدي تحكهما بالحجر الخشن، وتتخلص من الجلد الزائد حول الأظافر، ورائحة دخان السجائر العالقة بملابس "رضا"، المتاخمة لوجهي، تجعلني أحبس أنفاسي.

في اللحظة التي كدت فيها أن أطلق "آهة" عالية، كانت رضا قد بدأت في مسح حنة الحواجب، والتكتلات السوداء فوق رموشي، وأمرت مروة "بتاعة غسل الشعر"، بأن تشطف لي شعري.

بسم الله الرحمن الرحيم. توكلت على الله.

تبدأ رضا أية مهمة بالبسملة، وتؤدي عملها بحركات تشبه رقص الراب، وتراقب نتائج تعبها مثل ناقد فني يتأمل لوحة. فتجفف شعري وتفرده في تأنٍّ بالمكواة السيراميك، وهي تحكي حكاياتها وتقترب جدا وتبتعد بشدة. ويكون ترتيب الحوارات التي تستفها في رأس الزبونة، متوافقا تماما والمدة التي ستقوم فيها بصبغ الشعر، أو فرده، أو تجعيده، أو عقصه في شنيون، أو عرض الدلايات والأقراط والخواتم النحاسية التي تقوم بتصنيعها في خان الخليلي، وبيعها للزبونات وفقا لميولهن الوطنية أو الطائفية. كان حوارنا الأول صامت من جانبي، مصحوبا بنظرات الدهشة والإعجاب بروعة الحلي رخيصة الثمن، التي تعرضها عليّ "رضا"، والمشغولة بحروف عربية مستوحاة من الأحداث التي ألهمتها؛"أنا مصرية".."مصرية وأفتخر".."الثورة مستمرة".."يسقط حكم العسكر".."يسقط حكم المرشد".."30/6".. وفي الأحوال جميعها كانت الأقراط أو الدلايات أو الأساور محلاة بخرز أحمر وأبيض وأسود.

وجه "رضا" بلون طمي النيل خال من المساحيق، إلا من وشم دق فوق الحاجبين، على شكل هلالين عريضين، ووشم آخر يحدد الشفتين، ليعلن مرة

واحدة وإلى الأبد بأن هنا أنثى، تسأل الزبونات جميعا إن كنّ يعرفن عريسا يصلح لها، رجلا يصونها، ويوقع معها عقدا على أن لا يغادرها، مثلما هجرها الرجل الأول، زوجها والد ابنتها.

توصيني رضا مثلما أوصت الجميع على ابنتها، إن تمّ اعتقالها أو قنصها، في مظاهرة أو مسيرة أو اعتصام، فأهلها لا تضمنهم كحضن آمن للبنت، لأنهم لن ينسوا أن رضا تركت البيت ذات ثورة، ونامت في خيام على الأسفلت، وحين أرسلوا لها أخاها الأصغر، ليحضرها من شعرها، ويمحو عارها، اعتقلته السلطات، وبات ليلتين في الحجز.

تنفلت آخر خصلات شعري من يد رضا وهي تموجها بالمكواة، لتسقط كقطعة حرير براقة، وتغطي نصف وجهي. أنظر ثانية في المرآة، فأضع يدي على فمي، مثل بطلات البرامج الأمريكية اللائي يخضعن لتغيير كامل في الشكل، ولا يصدقن عيونهن حين ترين جمال وجوههن بعد التعديل.

المطبخ هو المكان الذي تتردد عليه هدى ليل نهار، في البيت الذي تظنه بيتي، وهو ليس إلا شقة الكاتبة الكبيرة، لا لتعد الطعام، بل لتركيب وصفات النضارة والجمال، التي تجربها فيّ، وتكون وقودها لكي تحكي.

تعصر هدى كيلو من الليمون دون أن ترمي قشره، ثم تقوم بغلي القشر في لترَيْ ماء. تضيف ماء القشر على عصير الليمون وتضعه في زجاجة كبيرة، نحتفظ بها في الثلاجة، وتأخذ كل منا كوبا واحدا قبل الوجبة الأساسية، للتخلص من الأرداف، إلا أن النتيجة لم تبدأ في الظهور إلا بعد مرور خمسة عشر يوما.

"أنا يافندم كنت بعصر على كرامتي لمونة، لما أتصل بإيهاب ومايردش عليا، أو يرد بعد عشر مرات، ويقولي إن الموبايل ممنوع في التجنيد. أصل أنا عرفت

إنه مش في الجيش ولا حاجة، وإنه واخد إعفا عشان وحيد أمه. رضا اللي قالتلي، لما عملت نفسها واحدة أجنبية بتعاكسه، وخدت منه ميعاد،وراح يقابلها. بس لقاني أنا ف وشه. ساعتها قلت له إنت مستعر مني عشان أنا مش معايا شهادة زيك؟ إيه فايدة التعليم وانت كداب وحرامي؟ قلت له تجيب لي كل الفلوس اللي استلفتها مني قبل 6/30. أصل رضا قالتلي ان هيبقى فيه ثورة تانية واعتصامات على آخر الشهر، ويمكن منعرفش نروح الشغل. ده غير إن اخواتي بدأوا يتصلوا بمدام أمينة ويقولولها إن أنا دايرة على حل شعري، وساعات يقولولها إني هبلة وباعمل على روحي وأنا نايمة. كل ده عشان ماكنتش بسلمهم فلوس البقشيش، اللي كنت باديها لإيهاب، فافتكروا إن مفيش شغل ف المحل، وكانوا عايزين يشغلوني ف مكان تبعهم. مدام أمينة قالتلي أشارك رضا ف الشقة، أو تدفع لي هي مقدم شقة تؤويني أنا وأمي وأختي الصغيرة العيانة. عارفة يافندم إحنا عندنا كام شقة وكلهم مش سايعيننا؟؟".

تغيبتُ بضعة أسابيع عن البيوتي سنتر، لانشغالي في إنهاء إجراءات السفر، وكذلك هدى التي لم تعد تنتظم في العمل، كما قيل لي، حين ذهبت مرارا للسؤال عنها، فوجودها حتمي لوضع نهاية لائقة بالفصل الخاص بها. فلا خيال لي ولا روح تهيم وتجلب الأفكار والخواطر، مثل أصحاب الموهبة الأصيلة.

قالت مدام أمينة أن هدى غيرت رقم هاتفها، ورفضت أن تعطيني الرقم الجديد. وذات صباح، جاءني صوتها عبر الهاتف، مبتهجا ومستبشرا، وأخبرتني بنبرتها الطفولية أنها قد "سمعت كلامي"، وسوف تخضع للعلاج، إلا أنها بحاجة إلى ألفي جنيه، لزوم الأشعة والتحاليل، وأنها لا تريد أن تربك لي مواعيدي، ولا بأس من أن أترك المال، إن وافقت، مع عامل الأمن أسفل عمارة الجيمنازيوم خلال يومين.

سمعت عن روائيين ينامون في المقابر، وآخرين يهربون المخدرات لمخالطة المهمشين، وكاتبات يخالطن السجينات والداعرات من أجل قصة قصيرة، فلا ضير من تدبير الألفي جنيه، من أجل وضع حدا لهذا التشوش، وإقفال فصل أظنني بذلت جهدا وارتكبت حماقات، لكي أجعل من صاحبته بطلة على الورق، ولتعويضها عن مرارة عيشة ضاغطة، بعيدا عن السعي وراء حكاية، فتركت لها النقود التي أخذتها وتلاشت.

سألتُ في غياب مدام أمينة عن عنوان شقة هدى الجديدة، فبحثوا في جميع الأدراج، حتى وجدوه مكتوبا في العقد الذي في الدرج، وكتبته إحداهن لي في ورقة صغيرة، ورجونني إن عثرت عليها أن أطمئنهن، لأنهن فشلن جميعا في الاتصال بها، ويخشين إن حاولن زيارتها في منشأة ناصر، أن تطولهن لعنة صلاح، أو مطواة إبراهيم. سألتني إحداهن إن كنت أرغب في عمل باديكير، ونصحتني بأن أجرب الجهاز الجديد الذي احضرته مدام أمينة، بناء على نصيحة هدى. وافقتُ كالمخبر السري، الذي يمضي يوما بأكمله أمام بناية، لمجرد أن يلمح شخصا يراقبه، صاعدا أو هابطا من شقته. حدثت نفسي، ربما وقع أمر يرشدني إلى مكان هدى، وينتهي العناء. إلا أن رضا الكوافيرة أدخلتني وراء ستارة، وغسلت لي قدمي في طست بلاستيكي، ثم أجلستني على مقعد وثير خلف الساتر، وتحته حوض زجاجي، به سمك صغير، قالوا أن اسمه جارا روفا، ونصحوني بألا أخاف، فالسمك سيتجمع عند قدميّ، ويأكل الجلد الميت فقط، وسيترك السليم، وإن ليس لديه أسنان. سرت قشعريرة في ذراعي، وكدت أغادر المقعد، إلا أن رضا أمسكت بكتفي بهدوء، وأقسمت إن هذا السمك لن يقشر سوى الجلد الميت فقط.

"جارا روفا"، أو "بداية مهران"، تتعدد الأسماء والصفة واحدة، فكلانا في أكل اللحم الميت سواء. ها أنا أغطس قدماي حتى أعلى الكاحل، لأمنح قشور

جلدي لكائنات بحرية، لتتغذى عليها، مثلما تغذيت على خيبات النساء، وهتكت سواترهن، ومازلت بانتظار المزيد، لإضافة توابل حارقة أو مُرة للوجبة الدسمة. تتجمع الأسماك عند الكعبين وأسفل القدمين، وحول الأظافر وكأنها تداعب صديقا له لحم أليف، فتتقلص قدمي وساقي، إلا أني أجبر نفسي على تجاهل هذا التشنج الوقتي، بفتح الورقة التي تحتوي على عنوان هدى الجديد، ليكون وجهتي بعد المغادرة. 666 شارع طلمش، متفرع من شارع الملك طارش، مربع أبو العهود. التجمع الخامس. سجلت المكتوب على الورقة، على موقع الخرائط على هاتفي المحمول، فاستغرق وقتا طويلا في البحث، وخرجت نتيجة البحث "لا يوجد"..ثم أتاني سؤال بخط مائل على موقع جوجل: "*هل تقصد الرقم 666، رقم الشيطان*؟ كما تتابعت أسئلة مثل: *هل تقصد طلمش الجن المسيحي الذي يحضر في تلابيب الصرع؟*

ازددت إصرارا في وضع العنوان على أكثر من موقع للخرائط، وأن أتجاهل تلك الهرطقات، لكن النتائج في كل مرة كانت متشابهة، فإما " لا يوجد "، أو "لم يستدل على العنوان".

القاهرة

يا باب يا مقفول إمتى الدخول؟
صبرت ياما واللي يصبر ينول
دقيت سنين..والرد يرجع لي: مين؟
لو كنت عارف مين أنا كنت اقول
عجبي

بريد الكتروني:

من: بداية مهران

إلى: بداية الألفي

تاريخ: 7 – 7- 2013

الموضوع:الرواية

أتصل بك عشرات المرات يوميا منذ عدت من سويسرا، لكن هاتفك خارج نطاق الخدمة. عثرت مصادفة على بريدك الإلكتروني هذا، حيث تفشل كل محاولات إرسال الرسائل على " ياهوو". لذا جئت إلى الأسكندرية، علني أجدك في بنسيون "مونمارتر" هذا الذي قلت أنك ستقيمين فيه، لكنني وجدت لافتة متواضعة مكتوب عليها لوكاندة "وادي النيل" في العنوان نفسه الذي أعطيته لي. كما وجدته مغلقا وملصقا عيه إعلان محكمة وجلسة ما وأشياء لم أفهمها.

أقيم الآن في بنسيون يطل على البحر، في العمارة المجاورة للوكاندة "وادي النيل"، لأسلمك كل ما بحوزتي فيما يخص الرواية. أعرف أنني أجرح خلوتك بذاتك، أو توحدك مع حبيب عمرك، أو صفائك الذهني الذي صبوت إليه، لكن معي قصاصات، وندف حكايات، ومشاعر متنافرة لأناس لا يمتون بصلة لبعضهم البعض، ولا أعرف كيف أربط بينهم. ليست المسألة بالسهولة التي كنت أتصورها، فأن تكوني بطلة ثانوية مثيرة للشفقة في رواية، أهون بكثير من أن تتلبسك أرواح كل الشخصيات التي تكتبينها. أرجوك أن تردي علي بأسرع وقت. لن أقدر على الإقامة أكثر من ذلك في الأسكندرية.

من: بداية الألفي

إلى: بداية مهران

رد:

عودي.

أنا لست في الأسكندرية.

حين أمرتني الكاتبة بداية الألفي، بالعودة من الإسكندرية، بعد فشلي في محاولة ملاقاتها هناك لحل مشكلة الفصل الأخير في الرواية، تقلبت ذات صباح في فراشي القاهري، فسمعت أجراس كنيسة تدق بانتظام وبصوت مرتفع في أذني. ظننتها وأنا بين النوم واليقظة أجراس كنيسة "أوبون" في القرية المجاورة، التي زرتها مع أولجا الروسية، ولما استفقت قليلا وأدركت أني صرت في مصر، خلتها أجراس كنيسة سمعان الخراز التي تذهب إليها هدى في المقطم. لكن الصوت المبحوح لدادة أنيسة ملأ الغرفة، وغلب كل ما عداه، وأخذت يدها العفية تهزني وهي تقول: "اصحي يا بداية، كفاية نوم، انتي مش سامعة الضهر بيأذن؟".صاحت بكلمات أخرى، سمعتها جيدا، كانت تقال بصيغة الأمر، فقمت كالمنومة مغناطيسيا بتنفيذها. وبناء على تلك التعليمات، صعدت إلى الدور السادس، حيث شقة الكاتبة الكبيرة، وقمت بتنظيفها من بقايا خلطات التجميل التي حضرتها هدى، وتركتها في أكياس وأطباق وعلب بلاستيكية صغيرة، كما حرصتُ على تهوية الغرف كلها، ورششتها بمعطر برائحة نسيم البحر، للتخلص من عطانه آثار رائحة السجائر التي كانت تنفثها هدى في كل زاوية. عاد كل ما في الشقة إلى ما كان عليه، إلا أنا، فقد رجعتُ محملة بعبء الفصل الأخير، الذي إما أن يكون بمثابة حبات الكريز اللامعة التي تزين الكعكة، أو ذرات الملح التي ترش فوقها، فتفسد المذاق، وتعكر صفو الاحتفالية.

كنت قد رأيت في المنام أوراقا بيضاء ممزقة، تطير فوق جسدي الممدد على الأرض، وتمر عبر الصالة، نحو الشرفة، وتتناثر كالحمامات البيضاء في الهواء. وقد كان تأويل هذه الرؤية، هو ما جعلني أتخلص من عبء الأقاصيص الصغيرة التي دونتها، وقررت أن أضعها في حجر الكاتبة الكبيرة.

قيل: من رأى أنه يمزق كتابا، ذهبت همومه، ورُفعت عنه الفتن والشرور ونال الخير.

لم يكن من السهل أن ألملم القُصاصات وأعهد بها إلى غيري ليعتني بها، فقد لازمتني انقباضة في القلب، وقضيت عشر ليال أنتحب من ألم الفراق، مثل أم تضطر أن تضع وليدها على باب دار للأيتام، لأنها أنجبته زنا، لكنها تظل تتبعه بقلب منفطر وعينين لاهفتين، بعد أن احتضنته في أحشائها شهورا وأرضعته حنانها لأيام. لم تعد الأقاصيص التي جمعتها صالحة لي، أو بمعنى أدق، أنا التي لم أعد أهلا لأن أكون راعية وكاتبة صالحة لها، فليس لي تاريخ أستند إليه في صياغة الحروف والكلمات، سوى حضور بضع ندوات، والتقاط كلمة من هنا وجملة من هناك. وقد أراحني هذا الاعتراف، الذي ردده صوتي الداخلي في رأسي، وكأن الاعتراف بالفشل له لذة، توازي نشوة تحقيق فوز عظيم أحيانا. حتى القصة الوحيدة التي زعمتُ أنها نبتت من بنات أفكاري، وكانت تصف شبح الخوف، كانت بوحي من الكاتبة الكبيرة بداية الألفي، حين دفعتني نحو طريق الكتابة الذي كنت أتطلع إليه، فإن نجوت صرت مبدعة، وإن فشلت، ستعاود الاستعانة بخيباتي في قصصها الناجحة، كشخصية ثانوية مثيرة للشفقة. وحتى لو عاندت وسلمتُ بأني سأبدأ حياة مختلفة في ثوب مبدعة محترفة، لن يمكنني حجم مشاكل حسبتها توارت خلف ظهري، وأياد لأجساد أرضية ثقيلة تهمّ بأن تشدني، وعيون تحملق في من مكانها المظلم، ولا تستوي والذهن الصافي والتحليق الذي تحتاجه الكتابة. ارتبكتُ أمام النهايات المفتوحة، ففهمت تفسير ما سمعته يوما بأنك لا يجب أن تكتب الجملة الأولى من رواية ما لم تكن الجملة الأخيرة قد كُتبت. كانت الكاتبة بداية الألفي تلقب حالتها الإبداعية بـ"لعنة التدوين"، حين تضطر للقيام بطقوس أشبه بشعوذة صلاح، من أجل مخاض قصة قصيرة، يعقبها نوم متقطع ومغادرة مفاجئة للفراش، فضلا عن بعض التضحيات، فقد تخلى عنها زوج أحبته بوفاء أصيل، حين كتبت رواية عن

امرأة متزوجة وقعت في حب رجل آخر. وعَيرها ناقدٌ بعدد المشاهد العاطفية التي تضمنتها إحدى رواياتها، حين رفضت أن تستجيب لإغوائه. كل هذا يهون في مقابل إحساسها الدائم بأنها منذورة فقط لتسجيل اللحظات، يلاحقها في صحوها ونومها وفرحها وحزنها جني ثرثار، يلهمها الأفكار والسطور، ولا يهدأ له ولا لها بال، إلا حين تخطها على الورق، ثم يعاود القفز والتجول في رأسها من جديد. لكن من الكتاب أيضا، من هو أصيل، ومؤمن بما يفعل، مثلها هي، ويستمتع بكونه إله شخصياته، يتفرج عليهم من سحابته البعيدة، يحييهم ويميتهم ويمتعهم ويشقيهم، ومنهم المقلد والمستنسخ مثلي أنا،مجرد دمية عاجزة تتنقل في أيادي شخوص تحكي عنها، فتطولها عدوى آلامهم وخذلانهم، مثل طباخ خائب للسّم، يتذوق ما يطهوه بطرف لسانه، فيسقط ميتا في الحال. فحين حصلتُ على لقب "كاتبة" بسبب خوف انتابني في ليلة ترويع واحدة، كنت مجرد مسخ إسفنجي هش، فامتصصت لعنات ومخاوف كل من صادفتهم في الجيمنازيوم، وصرت وحدي صورة طبق الأصل من قائمة أنواع الفوبيا، التي نقّبت وفتشت عنها في المراجع. تملكتني في البداية شهوة الشهرة مثل الدكتورة نهلة ومضيت في كتابة سائر الشخصيات بهستيرية لكي تسلط عليَ الأضواء، لكن الدكتورة نهلة كانت تعاني من الكلوستروفوبيا في الوقت ذاته، فصرت أخاف الغرفة المغلقة في القصر الحلم الذي سكنته، بعد أن كنت مسافرة إليه وفي قلبي قليل من الدوماتوفوبيا، وهي الخوف من التواجد بالبيت، شقتنا المتواضعة بالدور الأرضي، أنا ودادة أنيسة. وجدتني أيضا عجينة لينة في أيادي رضا وهدى وحنان، يضعون عجائن الأقنعة على وجهي وجسدي، ويؤلمونني بنزع شعيرات ويثقلون جفوني بشعيرات أخرى، فصرت أتلذذ بذلك العذاب مثل زبونات البيوتي سنتر المصابات بالكاكوفوبيا، الخائفات بشكل مرضي من القُبح. ثم تلبّستني تماما روح مدام أميرة المصابة بال جيمنوفوبيا، والتي كانت تخجل من كشف جسدها، وتخشى أن تموت عارية، فواريت تاريخي وخبأت جذوري، وبترت الجُمل، التي قد تشي بي بين صفحات رواية، يفترض أن يُكتب بخط عريض على

غلافها اسمي. تيقنت من أني كائن هشّ لا يصلح سوى أن يكون شخصية في رواية تكتبها امرأة قوية. والكائن الهزيل ليس له أن يغط في النوم ويتدثّر بالأغطية الناعمة التي تكسو الفراش الذي آوى إليه الكاتب الروسي فلاديمير نابوكوف، فقد طالتني أيضا لعنة الهوس الذي كان يعتريه برغبته الشديدة في تدمير أعماله وحرقها.

غامت الرؤية فصرت أتساءل هل أنا أصلا التي كنت أتلذذ بمذاق قهوة الصباح التي يعدّها لي رجل أمريكي، في مطبخ قصر تحتضنه جبال الألب؟ هل أنا التي أعارت شالها وسترتها، وتركت ما تبقى من زجاجة عطرها لامرأة يهودية، قالت لي في رسالة أخيرة لم أرد عليها أنها تقول للسفير الإسرائيلي يا "حبيبي"، مثلما تناديني؟ وهل وقعتُ في حيرة عاطفية في عز صيف بارد وممطر، بين رجل إنجليزي لا أعرف عنه شيئا، وبين سمير الذي زهدني وهاجر إلى بلاد أجهلها منذ سنوات عشرين، لأجدني ملكة متوجة على رأس مأدبة طعام في بيته، في البلد البعيد نفسه؟ وهل أنا نفسي التي عاشت بين جدران أنيقة لقصر أثري، لكنه لا يحتفظ إلا بروائح خافتة، فتحولتُ إلى مجرمة مثل بطل رواية "العطر"، الذي كان يقتل ضحاياه، ليستخلص روائحهم، ويدهن بها جسده، فيستمد هويته من رحيق جثامينهم؟

لم أعد قادرة على إكمال لا حواديت الجيمنازيوم أو غيرها من الحكايات المكتوبة، بعد أن تحولت شخصيا إلى روح سواحة غادرت جسدها ذات ليلة، ولم تستطع العودة إليه، كأهل الكهف، الذين غفوا ثلاثمائة عام، وحين أفاقوا انقلبوا غرباء، لهم نظرات زائغة، مثلما صرت أنا أعيش مع ظلال لأشياء، وليست الأشياء بذاتها، شأني شأن أم هدى شاردة الذهن، التي قال عنها القس إن جيشا من الجان يقف عليها. أما أنا فقد كنت أرى وأسمع ما يراه الآخرون، لكني لا لم أعد أحسهم ينفذون إلى قلبي، فقد سمعت وشاهدت ولمست خيالات لفتاتين جاءتا لزيارتي من عند أبيهما، ويناديانني بـ"ماما"، وتقولان انهما

افتقدانني، وسيدة بدينة أعيش في بيتها، ترتدي جلبابا منقوشا، وتعقص شعرها الرمادي الخفيف في طرحة صغيرة، وتعطيني أوامر كثيرة، وتخبط بكفها على صدرها إن حكيت لها أي شأن يخصني، أتحاشى مناداتها في أغلب الأحيان، لأن لساني سوف يخضع لقوانين الطبيعة ويقول لها "يا أمي"، إلا أني في قرارة نفسي، أقتنع تماما بأنها دادة أنيسة، مثلما كان يناديها سمير وأخوته.

للكتاب الأصليين حاسةٌ سابعة وثامنة وقرون استشعار، يستلهمون من الماضي ويكتبون المستقبل. هكذا عرفت الكاتبة الكبيرة أنه سيحدث انفجار سيزلزل الحي والشارع الذي تسكنه، أمام كورنيش النيل وقت الثورات القاهرية الكبرى والصغرى. وكانت حقيبتها مثل سفينة نوح قبل الطوفان، فقررت أن تأخذ فيها من كل شيء زوجين اثنين، إلا هي كانت ستسافر وحيدة، ولكي تكتمل أسطورتها قررت أن يكون لها هي أيضا زوج..حبها الأول، رفيق طفولتها، الذي افترقت عنه بفعل فاعل أو بفعل الأقدار. لم تعد تفاصيل الفراق الأول تعنيها أو تعنيه. فحين إلتقيا في منتصف العمر، قررا أنهما سيتقاعدا سويا في بنسيون "مونمارتر" الذي قضت فيه عطلات لطيفة مع أسرتها في الإسكندرية، في القرن الماضي، أيام كانت صغيرة.

لكنها حين ذهبت إلى العنوان نفسه، وجدت أنقاضه، ليس بالمعنى الحرفي للأنقاض؛ وجدت فندقا صغيرا يسمى "لوكاندة وادي النيل"، لكنه كان بالنسبة لها بمثابة الطوب والرمال وألواح الأخشاب المتكسرة والمفتتة التي يخلفها انهيار أي مبنى. سألت عن الملاك الأصليين، فقيل لها إنهم مجموعة من الأقارب من الصعيد أو النوبة، حدثت بينهم خلافات على الإرث، ويريدون التخلص من الفندق، شريطة أن يتولى الأوراق محام متخصص في الأراضي والعقارات. تردد اسم مكتب "حسن مرعي" المحامي، الذي لجأت إليه الكاتبة، ليخلص لها الموضوع. عرف حسن مرعي بأمر لوكاندة "وادي النيل"

المعروضة للبيع، وربط بين عنوانه على الكورنيش وبين الحكايات التي كانت ترويها له مدام أميرة عن بنسيون "مونمارتر" الذي نشأت وكبرت بين غرفاته، فوجدها فرصة طيبة لإعادة الوصال بينه وبين أميرة، وريثة عمتها التي كانت تملك البنسيون منذ عقود، فربما ترغب في أن تلملم ما فرطت فيه عمتها، وتجبر انكسارات روحها. في الوقت نفسه، أرادت الكاتبة الكبيرة أن تستعيد ماضيها كاملا، طفولتها هي أيضا التي كانت تقضي فترات الصيف منها كنزيلة في البنسيون مع أهلها، حين كانت تمتلكه مدام "ميشيل" الفرنساوية، وأن تضمه لمقتنياتها العاطفية، إلى جانب حبيبها الأول، وليتقاعدا في الفراندة المطلة على البحر، يمضغان الوقت بتلذذ، وهما يجتران أوقاتهما معا، ويحكيان لبعضهما البعض، ماذا فعل كل منهما حين كان بعيدا عن الآخر. لذا صارت بين مدام أميرة وبين الكاتبة الكبيرة بداية الألفي حربا باردة على ملكية الفندق.

في هذه الأثناء، ولما كنت مسافرة لرحلتي الحلم إلى سويسرا، باعتقاد أن الكاتبة الكبيرة تستمع بتقاعدها بفندقها الصغير، وحبيبها الموعود، كانت هي في مكان آخر تماما. فقد ذَهَبَتْ إلى الإقامة في الساحل الشمالي مؤقتا، لكي تكون قريبة من رفيق روحها، حيث يقيم في شقته الصيفية بالعجمي، ولكي تراقب أيضا قضيتها الجديدة للفوز بالبنسيون عن كثب. كان المزاد يشتعل بين المرأتين، الكاتبة بداية الألفي، ومدام أميرة، وتعرض كل منهما مبلغا أكبر من المال على الورثة الذين آثروا مدام أميرة، رغم أن المبلغ الذي عرضته كان أقل. لم ينس أبناء وأحفاد عم الضوي وعم حسانين أن الأستاذة أميرة المحامية الكبيرة، كانت لها أيام مثلهم خلف كاونتر الاستقبال، وفي الطرقة المؤدية إلى المطبخ، وفي الغرفة الملوكي الواسعة، حين كانت تعيش في بنسيون مونمارتر مع عمتها صاحبة الفندق. لم يكن الولاء فقط هو ما جعل الورثة يفضلون مدام أميرة، بل لأن الكاتبة الكبيرة قد باعت القضية وفقدت اهتمامها بالأمر كله، حين عدت أنا

من رحلة الكتابة، ورجعت محمّلة لها بحواديت عن نساء الجيمنازيوم، وحكايات الأدباء الأجانب الذين عشت معهم يقظة تشبه الحلم.

لم تكن بداية الألفي البالغة من العمر ثلاثة وستين عاما لتتخلى عن حب حياتها من أجل حفنة أقاصيص، للمتها امرأة عديمة الموهبة، وصارت تعاني من الخوف من كل شيء، مثلي، وألقت لها بها حين إلتقيتا مثل قاتل استراح من عبء جثة لا يعرف أين يخفيها. لكن العلاقة التي بدأتها الكاتبة الكبيرة مع حبيبها منذ نصف قرن تقريبا، كانت قد بهتت وذابت حين ضمهما مكان واحد، وآن أوان عودة حياة كل منهما إلى ما كانت عليه، بعد أن استنفذت العلاقة غرضها. كيف وغصة الفراق والحرمان التي كانت تتجول في قلبها وروحها في الماضي، قد ألهمتها اثنين وعشرين كتابا، منها ما هو نثر وما هو شعر، وما هو روايات طويلة ذات نهايات مفتوحة حزينة. ولوعة ألم بعاده عنها، قد منحته ميزة التحدي والتحقق في صفقات ورحلات ناجحة، ووفرت له أحلاما يومية يشاهد طيفها فيها، فتؤنس فراغ وحدته. ثم صار يسردها عليها، في رسائل الكترونية أو مكالمات قصيرة، ثم يغلق الخط سريعا وينصرف إلى أعماله، قبل أن يصدمه واقعها الممتلئ بغيره. لكنه حين ضاق بالليالي الصاخبة بالأحلام التي تمتلئ بالبشر، وتظهر هي بينهم كطيف لا يقدر على الإمساك به، وينتهي الحلم نهاية غير سعيدة، استعان بطبيب نفسي، فنصحه أن يدخل في علاقة عاطفية جديدة أو زيجة، وعرض عليه الطبيب قريبة له، أرملة بلا أبناء، وتخشى أن تموت في شقتها وحيدة، مثله. اتصل رفيق الروح بحبيبته القديمة بداية الألفي، فظنت أنه سيقص عليها حلما، ويغلق الخط كعادته، لكنه سألها أن تفتح بريدها الالكتروني، حيث أرسل لها رسالة طويلة يسألها فيها إن كانت ستغضب منه، لو ارتبط بأخرى، فردت سريعا بحرفين: لا. ثم مكثت شهرا كاملا، تأكلها الحسرة، على أيام أهدرتها في زيجات وأبناء تفرقوا في البلاد، وتركوها تبتلع ألم ابتلائها بابنتها "همسة"، التي صارت تكبر أمامها يوما

بعد يوم، حتى صارت في العشرين، لكنها مازالت حبيسة فراشها، وكرسيها المتحرك، ولا تنطق سوى الصرخات التي تعبر بها عن حاجتها لتناول حليبها، أو تغيير حفاضاتها، وهي المهمة التي تقوم بها دادة أنيسة بإخلاص ودأب. وعلى الرغم من أن همسة قد ورثت عن أبيها الحسن والجمال، إلا أنها كانت نتاج ليلة الحب التي قضتها معه بداية الألفي في غرفة الفندق الدنماركي، المزينة بالعرائس والدمى، وهي ما ختمت بطابعها على "همسة"، وحكمت عليها أن تظل عروسا بلا كلام أو حركة. وكالعروس التي يسقط ذراعها أو تنخلع عينها دون سابق إنذار، هزت دادة أنيسة همسة في فراشها ذات صباح، فوجدتها فقدت روحها، وفارقت الحياة. كان قد مر شهر على رسالة حبيب بداية الألفي الأخيرة لها، والذي كان قد جرب خلاله الارتباط رسميا بامرأة أخرى، وفشلت فيه التجربة بجدارة، حيث أدرك أنه لا يصلح للقيود الأرضية، وعاد أسيرا لقيوده الأثيرية التي ترسل له صورا لبداية الألفي في أحلامه، خاصة بعد أن فقد هو الآخر كلبه الذي رافقه لاثنتي عشر عاما. أشار عليه صديق بأن هناك رجلا عارفا بالروحانيات يدعى "صلاح"، ويعيش في منطقة "منشأة ناصر"، تعاويذه ووصفاته مجربة. وبعد أن لفه المدعو صلاح بالدخان المعطر للبخور والجاوي، وأطعمهُ العسل الصافي المقروء عليه آيات مقدسة، نصحه بأن يداوي نفسه بالتي كانت هي الداء. كان هذا بعد أن ودعت بداية الألفي جثمان ابنتها همسة، وشعرت برغبة عارمة في أن تضع يديها على أذنيها وتخرس صوت جني الحواديت، وأن تفتح رئتيها لمياه البحر المشبعة برائحة اليود، والنسمات المحملة بشواء الذرة والبطاطا والسوادني المحمص في عربات صغيرة على كورنيش الإسكندرية. وحين كتبت على صفحتها في الفيسبوك: " حبات المطر اللي داخلة م الشباك تزغزغ وشي، لها نفس طعم وحنية الموجة البيضا الصغيرة اللي كانت بتعاكسني وأنا قاعدة بلعب ع الرمل. الاتنين فيهم طعم ودفا إسكندرية، مع إن واحدة كانت ف عز حر الصيف، والتانية نازلة ترخ ف ليل بداية شتا. "عرف الحبيب أن بداية الألفي نفذت جزء من خطتها وذهبت لتقضي ما

سيتبقى من حياتها في الإسكندرية، ورغب في أن يكمل حلمهما بأن يتقاعدا سويا، حتى وإن كان بشكل غير رسمي. لكن بداية وحبيبها، أيام كانا صغيرين ويسمى كل منهما الآخر بـ"رفيق الروح"، كان كل منهما ينظر إلى الآخر فيرى ذاته، ويكلمه فيسمع نفسه. فأدركا بعد أن عاشا حياة يومية تقليدية، في الساحل الشمالي، وتحديا الحلم التعيس المتكرر بالفراق، أدركا أن رفيق الروح في الماضي، لا يكون بالضرورة مرافقا صالحا للجسد في الحاضر، فافترقا مرة أخرى راضيين، واكتفيا بأن ينظر كل منهما إلى مرآته، فيرى صورة نفسه ويسمع صوته.

سلمتُ الكاتبة بداية الألفي فصول الرواية التي لم تكتمل، وعضوية الجيمنازيوم، التي كنت قد قمت بتجميدها لأني لا أظن أني سأستطيع العودة إليه، فقرَرَتْ أن تستفيد بالشهر المتبقي من اشتراك البيوتي سنتر والجيمنازيوم، لتقوية ما وهن من عضلاتها، من جراء التقاعد. لكنها حين وضعت إصبعها على الجهاز الالكتروني الذي يأخذ بصمتها، ويفتح لها البوابة الحديدية لصالة الألعاب، أصدر صفيرا عاليا، وإنذار بأن هناك خطأ ما، تداركت على إثره الخطأ، وقامت بتغيير العضوية باسمها، وصارت بصمتها الشخصية هي مفتاح دخولها. وما أن وطأت قدمُها بدّال العجلة الثابتة، الموجودة أمام الصالة التي تدور فيها حصة الرقص الشرقي، حتى سمعَتْ صراخا صادرا من الفتيات اللاتي يتلقين الحصة، ويرتدين التيشرتات أو السراويل الرياضية، فلقد لمحن عامل الصيانة وهو يمر أمام الصالة، واتهمنه بأنه كان يحملق فيهن، على الرغم من أنه لم يرفع رأسه للحظة، وفقا لأصول العمل يوم الصيانة الأسبوعية. لاحظت بداية الألفي أن كل من صرخن، واتهمن الفتى ظلما كن من البدينات ذوات البشرة الكابية، أو شديدات النحافة ممن يقلدن المدربة بآلية وبلا إحساس كالعروس الخشبية التي كانت تتمايل في أوبريت الليلة الكبيرة بطريقة مضحكة. أما من لم يتذمرن من المرور العابر لعامل الصيانة، وواصلن الدرس بإحساس مرهف بدقات الطبلة، وميوعة الكمان وشخللة

بعد يوم، حتى صارت في العشرين، لكنها مازالت حبيسة فراشها، وكرسيها المتحرك، ولا تنطق سوى الصرخات التي تعبر بها عن حاجتها لتناول حليبها، أو تغيير حفاضاتها، وهي المهمة التي تقوم بها دادة أنيسة بإخلاص ودأب. وعلى الرغم من أن همسة قد ورثت عن أبيها الحسن والجمال، إلا أنها كانت نتاج ليلة الحب التي قضتها معه بداية الألفي في غرفة الفندق الدنماركي، المزينة بالعرائس والدمى، وهي ما ختمت بطابعها على "همسة"، وحكمت عليها أن تظل عروسا بلا كلام أو حركة. وكالعروس التي يسقط ذراعها أو تنخلع عينها دون سابق إنذار، هزت دادة أنيسة همسة في فراشها ذات صباح، فوجدتها فقدت روحها، وفارقت الحياة. كان قد مر شهر على رسالة حبيب بداية الألفي الأخيرة لها، والذي كان قد جرب خلاله الارتباط رسميا بامرأة أخرى، وفشلت فيه التجربة بجدارة، حيث أدرك أنه لا يصلح للقيود الأرضية، وعاد أسيرا لقيوده الأثيرية التي ترسل له صورا لبداية الألفي في أحلامه، خاصة بعد أن فقد هو الآخر كلبه الذي رافقه لاثنتي عشر عاما. أشار عليه صديق بأن هناك رجلا عارفا بالروحانيات يدعى "صلاح"، ويعيش في منطقة "منشأة ناصر"، تعاويذه ووصفاته مجربة. وبعد أن لفه المدعو صلاح بالدخان المعطر للبخور والجاوي، وأطعمهُ العسل الصافي المقروء عليه آيات مقدسة، نصحه بأن يداوي نفسه بالتي كانت هي الداء. كان هذا بعد أن ودعت بداية الألفي جثمان ابنتها همسة، وشعرت برغبة عارمة في أن تضع يديها على أذنيها وتخرس صوت جني الحواديت، وأن تفتح رئتيها لمياه البحر المشبعة برائحة اليود، والنسمات المحملة بشواء الذرة والبطاطا والسوادني المحمص في عربات صغيرة على كورنيش الإسكندرية. وحين كتبت على صفحتها في الفيسبوك: " حبات المطر اللي داخلة م الشباك تزغزغ وشي، لها نفس طعم وحنية الموجة البيضا الصغيرة اللي كانت بتعاكسني وأنا قاعدة بلعب ع الرمل. الاتنين فيهم طعم ودفا إسكندرية، مع إن واحدة كانت ف عز حر الصيف، والتانية نازلة ترخ ف ليل بداية شتا. "عرف الحبيب أن بداية الألفي نفذت جزء من خطتها وذهبت لتقضي ما

سيتبقى من حياتها في الإسكندرية، ورغب في أن يكمل حلمهما بأن يتقاعدا سويا، حتى وإن كان بشكل غير رسمي. لكن بداية وحبيبها، أيام كانا صغيرين ويسمى كل منهما الآخر بـ"رفيق الروح"، كان كل منهما ينظر إلى الآخر فيرى ذاته، ويكلمه فيسمع نفسه. فأدركا بعد أن عاشا حياة يومية تقليدية، في الساحل الشمالي، وتحديا الحلم التعيس المتكرر بالفراق، أدركا أن رفيق الروح في الماضي، لا يكون بالضرورة مرافقا صالحا للجسد في الحاضر، فافترقا مرة أخرى راضيين، واكتفيا بأن ينظر كل منهما إلى مرآته، فيرى صورة نفسه ويسمع صوته.

سلمتُ الكاتبة بداية الألفي فصول الرواية التي لم تكتمل، وعضوية الجيمنازيوم، التي كنت قد قمت بتجميدها لأني لا أظن أني سأستطيع العودة إليه، فقرَرَتْ أن تستفيد بالشهر المتبقي من اشتراك البيوتي سنتر والجيمنازيوم، لتقوية ما وهن من عضلاتها، من جراء التقاعد. لكنها حين وضعت إصبعها على الجهاز الالكتروني الذي يأخذ بصمتها، ويفتح لها البوابة الحديدية لصالة الألعاب، أصدر صفيرا عاليا، وإنذار بأن هناك خطأ ما، تداركت على إثره الخطأ، وقامت بتغيير العضوية باسمها، وصارت بصمتها الشخصية هي مفتاح دخولها. وما أن وطأت قدمُها بدّال العجلة الثابتة، الموجودة أمام الصالة التي تدور فيها حصة الرقص الشرقي، حتى سمعَتْ صراخا صادرا من الفتيات اللاتي يتلقين الحصة، ويرتدين التيشرتات أو السراويل الرياضية، فلقد لمحن عامل الصيانة وهو يمر أمام الصالة، واتهمنه بأنه كان يحملق فيهن، على الرغم من أنه لم يرفع رأسه للحظة، وفقا لأصول العمل يوم الصيانة الأسبوعية. لاحظت بداية الألفي أن كل من صرخن، واتهمن الفتى ظلما كن من البدينات ذوات البشرة الكابية، أو شديدات النحافة ممن يقلدن المدربة بآلية وبلا إحساس كالعروس الخشبية التي كانت تتمايل في أوبريت الليلة الكبيرة بطريقة مضحكة. أما من لم يتذمرن من المرور العابر لعامل الصيانة، وواصلن الدرس بإحساس مرهف بدقات الطبلة، وميوعة الكمان وشخللة

الصاجات، وكن يضعن حول وسطهن أحزمة فاقعة ألوانها، تسر القلب والعين، أو يكشفن بطونهن الرشيقة، التي تتماوج في انسيابية مع ليونة أذرعهن وأناملهن وأكتافهن، فهن من تعرفن عليها والتفغن حولها والتقطن معها الصور بهواتفهن، بعد انتهاء تدريبهن اللذيذ، وعرضت عليها كل منهن أن تتبرع لها بحكايتها حتى تخلدها في رواية، واقترحن أن تسميها "رقصة بلدي ".

كانت الكاتبة بداية الألفي تُتهم أحيانا بأنها تدور حول ذاتها، ولا تكتب سوى حكاية واحدة بتنويعات مختلفة، تجذب بها ناقصات العقل وأنصاف المثقفات، اللاتي لا يدركن أنهن يبتلعن طُعم الحكاية نفسها تحت عناوين مختلفة وأغلفة براقة. وحين تحوَل الكافيه الملحق بصالة الجيمنازيوم إلى مقهى ثقافي، ومنتدى للاعترافات العلنية، لنساء يهوين التعري على إيقاع الموسيقى، وخرير دغدغة الجاكوزي، وفحيح بخار الساونا، وإصرارهن على سرد حكاياتهن بلا مواراة، قلّبت الفكرة في رأسها، وصارت تتخلى تدريجيا عن قرارها بالاعتزال، مثلما تخلت عن كيلوجرامات كانت تثقل أردافها، وروحها. فأخذت تتدبر الحكايات التي تجلت لها، وتفكر في صياغات فنية لها، وهي تميل رأسها للخلف، تحت المياه المتدفقة برغوة الشامبو الوفيرة، بين أصابع عاملات البيوتي سنتر، أو حين يتفنن في عمل التنظيف العميق لبشرتها أو تدليك ساقيها، وهي مغمضة العينين. ولأن بداية الألفى تمتلك فلسفة في التعري الوجداني، ليس هدفه الإثارة، بل دخول التاريخ، وكشف الكذب والخداع المهيمن على مجتمعها، فقد قررت أن تكون زبونات الجيمنازيوم، المتدربات بفصول الرقص الشرقي هن بطلاتها، بعد أن ألقت نظرة سريعة على الأقاصيص التي تركتُها أنا لها عن بطلاتي المكبلات بأصناف الفوبيا، ولم تحبهن، فقامت بتنحيتهن جانبا، مثلما اخترن لأنفسهن التستر أو الاختباء أو الهروب.

حصلت الكاتبة بداية الألفي على جسد ممشوق وبشرة مشدودة، رجعت بعمرها عشرات السنوات. وكان الظهور الإعلامي لها، كضيفة أسبوعية ثابتة في

الفقرة الثقافية ببرنامج له جمهور عريض، في إحدى القنوات الفضائية، قسمت فيها الوقت المحدد لها إلى جزئين. الفترة الأولى أسمتها فضفضة، والثانية خصصتها لعمل ورشة افتراضية عن الكتابة الإبداعية. لم تخضع بداية الألفي لتقاليد إلقاء المحاضرات والتحدث النظري عن الكتابة الجيدة، بل نفذت إلى قلب الموضوع، وعرضت رواية صنفتها بالرديئة، وكانت عبارة عن الفصول والقصاصات الورقية التي سلمتها لها، وأرادت أن تثبت لمريديها من المبدعين الصغار، كيف ستحولها من ثوب باهت فضفاض، إلى فستان يشفّ ويصف، ويغوي القراء بألا يتركوه حتى كلمة النهاية. أدخلت بداية الألفي تفاصيل عديدة على الفصل الذي يخص الدكتورة نهلة، وصار رواية من جزئيين، تسرد فيها تفاصيل اللعنات والمخاوف ومحاولات الانتحار التي فشل بعضها، ونجح الكثير منها على مدار أجيال ثلاثة في تاريخ تلك الأسرة، وأسمتها "لعنة عائلة". وفعلت شيئا مشابها مع حكاية مدام أميرة، وأسمتها "فوبيا التعري". أما حكاية الفنانة التشكيلية داليا التي كان تتوارى في لوحاتها خلف كردانها المفقود، فقد ألهمتها بالتوجه نحو ناقدة وفنانة من نوع آخر، قرأت عنها في صفحة الفن بإحدى المجلات، تسمى بهية أبوسيف، تتميز بالبحث عن الزوايا الجمالية في تقسيمات جسد الرجل. وقد نالت تلك الفنانة التشكيلية العديد من الجوائز الدولية، وقسيمة طلاق بائن من زوجها، ليس لأنه ضاق بالتردد المتكرر على بيتها من موديلاتها من الرجال العرايا، بل لأن علاقتهما قد بهتت وذابت تلقائيا بعد أن "استنفذت أغراضها". أما حكايات هدى التي كانت تتقلب بين بيوت الدعارة وشقق تحضير الجان، فقد قررت أن تلقيها في سلة مهملاتها، ثم أعادت التفكير والتقطتها ثانية، ووضعتها في درج مكتبها، فربما كتبت لها سيناريو يصلح لمسلسل تليفزيوني رمضاني. أما مشهد الغواية الذي كنت قد اقحمته على وصف الليلة الأولى بالقصر السويسري، فقد قامت بداية الألفي بنزعه من هذا الفصل، وألحقته بفصل الليلة

الأخيرة، مثلما يجدر بعلاقة استمرت شهرا، بعد أن حوّلت أحداث رحلة الكتابة إلى رواية قائمة بذاتها، أسمتها "غرفة أخيرة بنهاية الدهليز".

وفي فترة الفضفضة ببرنامجها الأسبوعي، لم تخجل من الاعتراف بأن أحد الأسباب الفرعية لقرار اعتزالها، كان بسبب تعرضها للسكتة الإبداعية، التي نشطت وعادت إلى الحياة، بعدما تنازلتُ لها راضية عن الحكايات التي لملمتها. ولكي تملأ ساعات عرض البرنامج، حكت باستفاضة عمن أحبوها ومن هجروها، الأمر الذي ألهمها رواية للبوح النسائي، تحوي فصولا لرسائلها الغرامية، وأسمتها "صندوق باندورا". وبعدما فرَغَتْ من حواديتها الخاصة، عادت إلى الشخصية الهامشية في حياتها، لكن ليس كشخصية روائية على الورق، بل كحلقات متتالية في فقرة الفضفضة، التي أدمجتها والكلام عن الكتابة، وقالت إن ما جعل تلك الشخصية تفشل ككاتبة هو إنكارها لمبدأ هام؛ ألا وهو تذكر كل شيء، خاصة أي جرح ترك ندبة غائرة أو سطحية على أيامها، أو ظهر في مناماتها، أو حتى لو كان وهما يداعب خيالها بأنها عاشت في أزمنة غابرة.

لم تراع الكاتبة بداية الألفي الترتيب الزمني لأحداث حياتي، فبدأت من ـهى، وعادت إلى الوراء قليلا، وتوقفت في المنتصف، واختتمت ببداية البداية.

الـ أمورا عن ابنتين لي من زيجة سابقة، وشيخ يحب الظلام الدامس، ليس فلسـ نام إلى جواري، وفتاة صغيرة هي أنا، كانت تصعد السلم جريا إلى والخـ ـاء في حضنها، وتتمنى أن تبقى بداخله إلى الأبد، حين تطالها المتدر ة أمها. ثم لمعت نظرة الزهو الكبرى في عيني "بداية الألفي" الأقاصيـ ـبرة تسمى "حلم الطفولة "، كَتَبَتْها من عشرات السنين في فقامت بذ فيها بما سأكون عليه.

حصلت أسمع مقاطع من القصة التي لم ألتفت إليها من بعمرها عشر عتها القصصية الأولى. شعرت أن الكلمات التي

289

كانت تصف بيتنا وهيئتي حين كنت صغيرة، خطافات حديدية وأصابع قاسية، تمزق ملابسي قطعة قطعة، ولم تنجح محاولاتي في احتضان نفسي بأن تنفي فكرة أني صرت بالفعل عارية.

قرأتْ بداية الألفي تلك القصة القصيرة، بكل عيوبها الفنية وأخطائها النحوية، مثلما كتبتها تماما حين كانت مبتدئة، وكنت أنا مجرد ابنة صغيرة لأرملة البواب التي تقطن في الدور الأرضي بعمارتها، في شقة حوائطها رطبة وتأوي شقوقها شتى أنواع الحشرات، جنبا إلى جنب مع حفنة من الأخوات. تنبأت لي بأني سأصير مسخا لها، حين لمحت نظرة في عيني وأنا أتطلع إلى اللوحة الزيتية على حائط منزلها، والتي بها صورة متخيلة لابنتها همسة وهي تحمل عروسا شقراء. أمرت سيدة البيت/ هي، بأن يعطي أحد تلك الفتاة الفقيرة عروسا قديمة. وضعت البنت العروس بجوار قلبها، وأفسحت لها سنتيمترات في فراشها دون أن تتبين ملامحها. وحين أطل الصباح، حلت "بداية" الصغيرة قبضتها عن عروسها لتتعرف عليها، لكنها وجدتها بلاذراع. وفي نهاية تلك القصة تتصور بداية الألفي أن البنت الصغيرة قد صارت امرأة لها بيتا أنيقا، ومكانة عالية، وذات يوم لمحت بنتا فقيرة تشبهها وهي صغيرة تقف في صالة بيتها، فأعادت تدوير القهر دون وعي منها، وأمرت خادمتها أن تأت للبنت بعروس قديمة. أنا الفتاة التي حملت عروسا مبتسرة كانت قد وهبتها لي بداية الألفي في طفولتي، واستشرفت المستقبل بأني لن أقدر على العطاء، حين أكبر، إلا بما هو هزيل وغير مكتمل.

في تلك الليلة، التي عرضت فيها حكايتي، تحسست جبيني فوجدته يكاد يشع لهبا بسبب الحمى التي أمسكت بجسدي، وجعلتني أرتعش مثل مريض في نوبة صرع. تناولت قرصين من شريط الـ"كونجستال" الذي يخفض لي الحرارة، ويغوص بي في أغوار سحيقة تفصلني عن عالم اليقظة، بعد أن تدثرت ببطانية في عز أغسطس.

الأخيرة، مثلما يجدر بعلاقة استمرت شهرا، بعد أن حوّلت أحداث رحلة الكتابة إلى رواية قائمة بذاتها، أسمتها "غرفة أخيرة بنهاية الدهليز".

وفي فترة الفضفضة ببرنامجها الأسبوعي، لم تخجل من الاعتراف بأن أحد الأسباب الفرعية لقرار اعتزالها، كان بسبب تعرضها للسكتة الإبداعية، التي نشطت وعادت إلى الحياة، بعدما تنازلتُ لها راضية عن الحكايات التي لملمتها. ولكي تملأ ساعات عرض البرنامج، حكت باستفاضة عمن أحبوها ومن هجروها، الأمر الذي ألهمها رواية للبوح النسائي، تحوي فصولا لرسائلها الغرامية، وأسمتها "صندوق باندورا". وبعدما فرَغَتْ من حواديتها الخاصة، عادت إلى الشخصية الهامشية في حياتها، لكن ليس كشخصية روائية على الورق، بل كحلقات متتالية في فقرة الفضفضة، التي أدمجتها والكلام عن الكتابة، وقالت إن ما جعل تلك الشخصية تفشل ككاتبة هو إنكارها لمبدأ هام؛ ألا وهو تذكر كل شيء، خاصة أي جرح ترك ندبة غائرة أو سطحية على أيامها، أو ظهر في مناماتها، أو حتى لو كان وهما يداعب خيالها بأنها عاشت في أزمنة غابرة.

لم تراع الكاتبة بداية الألفي الترتيب الزمني لأحداث حياتي، فبدأت من المنتهى، وعادت إلى الوراء قليلا، وتوقفت في المنتصف، واختتمت ببداية البداية. ذكرت أمورا عن ابنتين لي من زيجة سابقة، وشيخ يحب الظلام الدامس، ليس والدهما، ينام إلى جواري، وفتاة صغيرة هي أنا، كانت تصعد السلم جريا إلى شقتها والارتماء في حضنها، وتتمنى أن تبقى بداخله إلى الأبد، حين تطالها لكمات دادة أنيسة أمها. ثم لمعت نظرة الزهو الكبرى في عيني "بداية الألفي" حين قرأتْ قصة قصيرة تسمى "حلم الطفولة "، كتَبَتْها من عشرات السنين في مجموعتها الأولى، وتنبَأتْ فيها بما سأكون عليه.

بين الغفو والصحوة كنت أسمع مقاطع من القصة التي لم ألتفت إليها من قبل، حيث كانت منسية في مجموعتها القصصية الأولى. شعرت أن الكلمات التي

كانت تصف بيتنا وهيئتي حين كنت صغيرة، خطافات حديدية وأصابع قاسية، تمزق ملابسي قطعة قطعة، ولم تنجح محاولاتي في احتضان نفسي بأن تنفي فكرة أني صرت بالفعل عارية.

قرأتْ بداية الألفي تلك القصة القصيرة، بكل عيوبها الفنية وأخطائها النحوية، مثلما كتبتها تماما حين كانت مبتدئة، وكنت أنا مجرد ابنة صغيرة لأرملة البواب التي تقطن في الدور الأرضي بعمارتها، في شقة حوائطها رطبة وتأوي شقوقها شتى أنواع الحشرات، جنبا إلى جنب مع حفنة من الأخوات. تنبأت لي بأني سأصير مسخا لها، حين لمحت نظرة في عيني وأنا أتطلع إلى اللوحة الزيتية على حائط منزلها، والتي بها صورة متخيلة لابنتها همسة وهي تحمل عروسا شقراء. أمرت سيدة البيت/ هي، بأن يعطي أحد تلك الفتاة الفقيرة عروسا قديمة. وضعت البنت العروس بجوار قلبها، وأفسحت لها سنتيمترات في فراشها دون أن تتبين ملامحها. وحين أطل الصباح، حلت "بداية" الصغيرة قبضتها عن عروسها لتتعرف عليها، لكنها وجدتها بلاذراع. وفي نهاية تلك القصة تتصور بداية الألفي أن البنت الصغيرة قد صارت امرأة لها بيتا أنيقا، ومكانة عالية، وذات يوم لمحت بنتا فقيرة تشبهها وهي صغيرة تقف في صالة بيتها، فأعادت تدوير القهر دون وعي منها، وأمرت خادمتها أن تأت للبنت بعروس قديمة. أنا الفتاة التي حملت عروسا مبتسرة كانت قد وهبتها لي بداية الألفي في طفولتي، واستشرفت المستقبل بأني لن أقدر على العطاء، حين أكبر، إلا بما هو هزيل وغير مكتمل.

في تلك الليلة، التي عرضت فيها حكايتي، تحسست جبيني فوجدته يكاد يشع لهبا بسبب الحمى التي أمسكت بجسدي، وجعلتني أرتعش مثل مريض في نوبة صرع. تناولت قرصين من شريط الـ"كونجستال" الذي يخفض لي الحرارة، ويغوص بي في أغوار سحيقة تفصلني عن عالم اليقظة، بعد أن تدثرت ببطانية في عز أغسطس.

رأيت فيما ترى النائمة، امرأة تشبهني تماما، لكنها عارية، وتلف حول جسدها أوراق جرائد عريضة، وكأنها فوطة للحمّام. كان يحيط بي أناس كثيرون، يرفعون كؤوس النبيذ ويشربون نخبا في سعادة، ويعتبرونني محسوبة عليهم وأجالسهم، لكني كنت فقط أتفرج عليهم، وأنا حبيسة جدران زجاجية تفصلني عنهم. وبعد قليل وصلت امرأة، كانت ترتدي جاكيت أنيق بكم طويل، لكن فوق جسدها العاري. صار الجميع يلتفتون إليها بإعجاب، ولا يستغربون زيها العجيب، وكأنه أمر دارج في هذا المكان الفاخر. شدت المرأة الجرائد التي تلفّ جسدي بأطراف أصابعها وانصرفت. وحين استيقظتُ، وحاولت تذكر ملامح تلك المرأة التي جردتني من الصحف التي كانت تسترني بداخل الحلم، كانت الكاتبة بداية الألفي.

تقلبتُ على جانبي الأيمن، فظهر لي خيال "كاترينا" وهي تمسك الصور الثلاث لحبيبة الرسام التي كانت تكتب سيرتها، وتحتار في أمرها، بسبب تبدل هيئتها بين الحشمة والخلاعة، وتساءلت أنا أيضا، هل أنا واحدة منهن، أم الثلاثة معا.

سمعت صوتا آتيا من بئر سحيق، يردد برجع الصدى، كلمات من رباعيات جاهين:

" دي مذكرات كتبتها من سنين

ف نوتة زرقا لون بحور الحنين

عترت فيها..رميتها ف المهملات

وقلت صحيح، أما صحيح كلام مخبولين"

عجبي

ابتلعت ريقي مع حروف الجملة الأخيرة، التي قيلت بصوت عريض مألوف، فكان لها وقع أنعم وألذّ من رحيق الشوكولاتة، وملأتني نشوة غشت روحي حين أضاف: "كوين أوف ذا نايل..تصبحين على عطر".

ترتمي أمامي وريقات حوافُها متآكلة من كتاب مقلوب، تومض من بين سطوره كلمات قالها شخص اسمه "سعيد" أو "إدوارد"، أو الاثنين معا:

"وعندما قابل فلوبير الغانية المصرية، وقضى معها لحظات حب ملتهبة، لم تكن بالنسبة له سوى نموذج صارخ لامرأة شرقية، لم يتح لها التعبير عن مشاعرها، والتحدث عن ماضيها وحاضرها".

أستنشق عبير أمواج صغيرة، تحيط بقلعة حجرية، يغزوها شاعر وفرسان، أتطلع معهم إلى بيانو معلق بأحبال تتدلى من السماء. وعلى شاطئ البحيرة، لافتة مثبتة في الأرض مكتوب عليها وصف لزهرة من ورقتين أهداها الشاعر لي:

"لزهرة التيوليب حياتان: حياة فوق الأرض، تنتهي بالأزهار ذات الألوان الجميلة، وحياة أخرى خفية، تنتهي بتكوين الأبصال الجديدة.تلتف التيوليب حول نفسها، وتبقى منغلقة كالمرأة التي تحيط نفسها بهالة من الغموض، خوفا من إنفضاح مشاعرها حياء وخجلا".

تمت

ليس ضروريا أن يكون الرداء عاري الكتفين، كاشفا عن الفخذ ليغوي، مثل فستان بطلة قصة "كاترينا". يكفي أن يكون بلون أسود، وأن تضع صاحبته طلاء شفاه باللون الأحمر القاني، لتجمع بين لوني الحزن والغموض والغواية والخمر، وليشعل الغيرة في قلب "نيل"، لأني سوف أذهب مع "سمير" هكذا وبمفردي في سيارته، بعدما فاجأتنا "ناتالي" مديرة الدار، بأنها ستحمل الآخرين في سيارتها الكبيرة، وتتركني لأعيش ذكريات الطفولة مع "سمير" ونتحدث العربية كما يحلو لنا. تراصّ الجميع في عربة "ناتالي" ووقفت بمفردي في انتظار سمير الذي هاتفني على تليفون البيت وقال انه سيتأخر خمس دقائق. أخرج "نيل" رأسه من شباك السيارة وقال بصوت مرتفع: " ستنتظرين إلى الأبد. المصريون لا يلتزمون بالمواعيد!"، وقبل أن ينته من دعابته الساخرة، وبعد انقضاء الدقيقة الرابعة، كان "سمير" يجلس خلف عجلة القيادة في سيارة سوداء فارهة، وعلى وجهه الابتسامة الطفولية نفسها، التي كانت تزين صورته الموضوعة في إطار من الفضة، على منضدة في صالون بيت والدته، الكاتبة "بداية الألفي".

مي خالد
روائية

خريجة كلية الإعلام الجامعة الأمريكية بالقاهرة
مذيعة بالبرامج الإنجليزية الموجهة-الإذاعة المصرية
تعمل في ترجمة ومعالجة الأعمال الدرامية التليفزيونية
تعمل في تمثيل الأعمال الدرامية المدبلجة
صدرت لها:
مجموعة قصصية "أطياف ديسمبر"، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1998
رواية "جدار أخير"، ميريت 2001
مجموعة قصصية "نقوش و ترانيم"، دار شرقيات 2003
رواية "مقعد أخير في قاعة إيوارت"، دار شرقيات 2005
رواية "سحر التركواز"، دار شرقيات 2007
مجموعة قصصية "مونتاج"، دار الدار 2009
رواية "تانجو و موال"، دار العين 2011
كتاب أدب رحلات "مصر التي في صربيا"، دار العربي للنشر والتوزيع 2013
وقد تُرجمت رواية سحر التركواز إلى الألمانية والانجليزية

ISBN 978-977-319-217-4
9 789773 192174 >

العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

تصميم الغلاف: محمد نبيه